ليوبولد فون زاخر مازوخ

# فينوس ذات الفراء

ترجمة: عبد الكريم بدرخان

رواية

موزاييك للدراسات والنشر
MOSAIC FOR STUDIES AND PUBLICATION

# فينوس ذات الفراء

**ISBN: 978-625-7240-60-4**

**عنوان الكتاب:** فينوس ذات الفراء | رواية

**اسم المؤلف:** ليوبولد فون زاخر مازوخ

**ترجمة:** عبد الكريم بدرخان

**الطبعة الأولى:** ٢٠٢٢

---

**جميع الحقوق محفوظة ©**

دار موزاييك للدراسات والنشر

الفاتح -اسطنبول -تركيا.

**E-mail**: rameta12009@hotmail.com

---

**لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.**

رواية

# فينوس ذات الفراء

ليوبولد فون زاخر مازوخ

ترجمة: عبد الكريم بدرخان

{الربُّ القديرُ ضربَهُ
وأسلَمَهُ إلى يد امرأةٍ فطعَنَتْه}

* سفر يهوديت - الإصحاح ١٦، الآية ٧.

# (١)

**كانت زائرتي ساحرة الجمال.**

قُبالتي، قربَ موقد النار الكبير المبنيّ على طراز عصر النهضة، جلستْ فينوس. لم تكن امرأةً عاديةً من نساء الأرض، من اللواتي يُخفينَ تحت أسمائهنّ المثيرة حربًا شعواء ضدّ الجنس الآخر، مثل الآنسة كليوباترا. لا... لا... أبدًا، لقد كانت ربّة الحبّ الحقيقية.

كانت جالسةً على الكرسيّ الخشبي المجاور للموقد، وألسنةُ اللهب تتموّج في خطوطٍ حمراء على وجهها الأبيض ذي العينين البيضاوين. وبين الفينة والأخرى، ألمحُ ألسنةَ النار منعكِسةً على بياض قدميها، حين تقرّبهما من الموقد.

كان وجهُها رائع الجمال، على الرغم من عينيه المتحجّرتين. وجهُها هو كلُّ ما أستطيعُ رؤيته منها، بعدما لفَّتْ جسدَها الرُخاميّ بالفراء، وراحتْ ترتجفُ كالقطة.

"لا أفهمُ ما يحدث"، قلتُ لها: "لم يعد الجوّ باردًا، وخلال الأسبوعين الماضيين كان الطقس ربيعيًّا دافئًا. لا بُدّ أنكِ ترتجفين بسبب شيءٍ آخر".

"أنا ممتنّةٌ جدًا لهذا الربيع"، أجابتْ بصوتٍ خافتٍ متجمّد. ثم عطسَتْ عطسةً إلهيّة، أتبعتْها بعطسةٍ جليلة ثانية: "لم أكنْ أفهم ما يحدث هنا، لكنني الآن بدأتُ أفهم".

"ماذا يا سيدتي العزيزة؟"

"بدأتُ أصدّقُ ما لا يُصدَّق، وأفهمُ ما يتعذّرُ فهمُه، وكل ذلك حدث فجأةً. الآن بدأتُ أفهمُ فضائلَ المرأة الجرمانية، والفلسفة الألمانية، ولم أعدْ أستغربُ بعد اليوم أنكمْ يا أهلَ الشمال لا تعرفون كيف تُحبّون، لا تعرفون ما هو الحبّ، لا تملكون أدنى فكرة عنه".

"لكن يا سيدتي، أنا لا أدافع عنهم".

"آه... أنت"، عطست الربةُ للمرة الثالثة، وهزّتْ كتفيها بجلالٍ لا مثيلَ له: "ولهذا كنتُ لطيفةً معكَ على الدوام، حتى إنني أقوم بزيارتكَ بين وقتٍ وآخر، مع أنني أصابُ بالزكام في كل مرةٍ، رغمًا عن الفراء الذي أتشحُ به. هل تذكر لقاءنا الأول؟"

"وكيف أنسى؟ يومها كان شعرُكِ بنيًّا كثيفًا ومتموّجًا، وكانت عيناكِ بنّيتين وفمُكِ أحمر. لكنني أعرفك على الفور حين أراكِ، أميّزُ ملامحَ وجهكِ وبياضَه الرخاميّ. كنتِ ترتدين معطفًا بنفسجيّ اللون، مزيّنَ الحوافّ بفرو السنجاب".

"كنتَ تعشق ثيابي، وتُطيعني كُليًّا".

"لقد علَّمتِني ما هو الحبّ، ولَكَمْ أنساني جمالُكِ الطاهرُ المقدّس... كلَّ ما حدث خلال ألفيّ عام".

"وكان وفائي لكَ لا يوازيه أيُّ وفاء".

"وسيبقى كذلك، طالما بقي الوفاء على وجه الأرض".

"لكنّكَ ناكرٌ للجميل".

"لنْ ألومكِ على أيّ شيء، صحيحٌ أنك امرأة مقدّسة، لكنك في النهاية امرأة، ومثل كل النساء أنتِ قاسية في الحب".

"ما تسمّيه قسوةً"، أجابتْ ربة الحبّ بحُنق: "هو بكلّ بساطةٍ أصلُ الشغف والعشق الطبيعي، هو فطرة المرأة، وهو ما يجعلُها تهبُ نفسها حين تحبّ، وتحبُّ كلَّ ما يمتعها".

"هل توجد قسوةٌ في نظر العاشق أكثر فظاعةً من أنْ تخونه المرأة التي يحبّها؟"

"في الحقيقة، نحن مُخلصاتٌ طالما أننا عاشقات. لكنك تريد من المرأة أنْ تُخلِص لكَ من دون حبّ؟ وأنْ تهبكَ نفسها من دون رغبة؟ من هو القاسي إذًا؟ المرأة أم الرجل؟ أنتم يا أهل الشمال، تفهمون الحبّ بطريقةٍ عقلانيةٍ ومُفرطةِ بالجدّية، تتحدثون عن الواجبات بينما المطلوب هو أمرٌ واحد فحسب: اللذة".

"ولهذا... فإنّ عواطفنا شريفة وعفيفة، وعلاقاتنا دائمة".

"ولهذا... لديكم توقٌ أهوجُ ومتحرّق إلى عُري الوثنية! لكنّ ذاك الحبّ... الذي هو قمة السعادة، وهو البساطة المقدّسة بعينها، لا يليقُ بكم أيها الحديثون، يا أولاد الفكر! إنه يتحوّل عندكم إلى شرّ، وما إنْ يتصرّف المرء على فطرته حتى يصبحَ ماجنًا في نظركم. لقد صارت الطبيعةُ عدوًّا وخصمًا بالنسبة إليكم، يا مَنْ حوّلتُم آلهة الإغريق الودودين إلى شياطين[1]، وجعلتُم مني شيطانةً أيضًا، تتعوّذون منّي وتلعنونني، أو تذبحون أنفسَكم في حالةٍ من الجنون المعربد على محرابي. وإذا امتلكَ واحدٌ منكم الجرأة على تقبيل فمي، فإنه يذهبُ في رحلة حجّ إلى روما، متّشحًا بأسمال التوبة، على أمل أنْ تُفتّح الأزهارُ من قضيبه الذابل. بينما تفتّح الورود والرياحين كلَّ ساعةٍ تحت خطواتِ قدميّ، لكنّ شذاها يأنفُ أنْ يصِلَ إلى أنوفكم. ابقوا وسطَ ضباب

[1] - اعتمدنا مفردة "إغريقي" لما يتعلّق باليونان القديم، و"يوناني" لما يتعلق باليونان الحديث والمعاصر. (المترجم)

الشمال وبخور المسيحيّة، واتركونا نحن الوثنيين تحت الأنقاض، تحت الحمم البركانية، ولا تنبُشوا الأرض بحثًا عنا. لم تُبنَ "بومبي"[٢] من أجلكم، وكذلك قصورنا وحمّاماتنا ومعابدنا. أنتم لا تحتاجون إلى آلهة، أنتم غارقون في دنياكم".

سعلَت المرأةُ الرخامية الجميلة، ثم رفعت الفراء ليغطّي كتفيها.

"ممتنٌّ لهذا الدرس الكلاسيكي، لكنْ لا يمكنكِ أنْ تُنكري أنّ الرجل والمرأة عدوّان إلى حدّ القتل، سواءً في عالمكم المشمس النقيّ أو في عالمنا الضبابيّ. وفي الحبّ يتّحد الطرفانِ لفترةٍ وجيزةٍ في كينونةٍ واحدة، في فكرٍ واحدٍ وإحساس واحد وإرادة واحدة، لكنهما يفسخان هذه الوحدة بعد مدّة. تعرفين ذلك أكثر مني. وعندما يفشل الواحدُ منهما في إخضاع الآخر، فإنّ قدَمَ هذا الآخر سوف تصبح فوق رقبة الأول فورًا".

"والقاعدة العامة: قدَمُ المرأة فوق رقبة الرجل". قالت السيدة فينوس بغرور وسخرية: "وهذا ما تعرفه أنتَ أكثر مني".

"بالطبع، ليس لديّ شكّ في ذلك".

"تعني أنه ليس لديكَ شكّ في أنكَ الآن عبدي، وأنك سوف تجدُ قدمي فوق رقبتك من دون رحمة".

"سيدتي!"

"ألَم تعرفني على حقيقتي لحدّ الآن؟ نعم أنا قاسية، طالما أنكَ تبتهج بسماع هذه الكلمة، أَوَلسْتُ أهلًا لها؟ الرجلُ هو مَن يشتهي، المرأةُ هي المشتهاة، هذا

---

٢ - بومبي: مدينة قديمة في جنوب غرب إيطاليا، تدمّرت عام ٧٩ بسبب فوران بركان جبل فيزوف، وكان يقطنها ٢٠ ألف نسمة آنذاك، وقد بقيت المدينة مطمورةً تحت الحمم البركانية لمدة ١٦٠٠ سنة، إلى أن اكتُشِفت في القرن الثامن عشر. لم يبق منها اليوم سوى آثارها القديمة. (المترجم)

جوهرُ المرأة وسببُ تفوّقها الحاسم. ومن خلال العاطفة، تُوقِعُ الطبيعةُ الرجلَ بين يديّ امرأة. والمرأةُ التي لا تعرفُ كيف تجعلُه خاضعًا لها، عبدًا لها، لعبةً لها، ولا تعرف كيف تخونه وهي تبتسم؛ ليست امرأةً حكيمة".

"هذه هي مبادئك تمامًا".

"هذا تراكُمُ تجارب وخبراتٍ عمرُهُ آلاف السنوات". أجابتْ بسخريةٍ بينما كانت أصابعها ترقص فوق الفرو الأسود: "عندما تقدّم المرأةُ نفسَها كمخلصةٍ وفيّة، يصحو الرجل من هيامه ويزدادُ طغيانه. وعندما تعاملُه بقسوةٍ شديدة، وتكون قليلة الوفاء له، وتحاولُ استغلاله في كلّ شيء، وتعبثُ به وتلهو بمشاعره، ولا تُظهر له أيّة شفقة... فإنها تُشعِلُ رغبتُه بشكلٍ جنوني، وتصبح معشوقتَهُ ومعبودته. هكذا تسير الأمور، منذ أيام هيلين ودليلة وكاثرين الثانية ولولا مونتيز[٣]".

"لا أنكرُ أنْ لا شيء يسحرُ الرجلَ أكثرَ من صورة المرأة الجميلة الفاتنة القاسية المستبدّة، المرأة التي تغيّر عشاقها بعبثٍ وجور، من دون أي تردّد، وحسب نزواتها وأهوائها".

"وفوق ذلك، ترتدي الفراء".

---

٣ - هيلين: من أبطال الإلياذة، وهي ابنة زيوس وليدا، اختطفها باريس ابن ملك طروادة، وتسبّب ذلك بنشوب حرب طروادة وسقوط المدينة.

- دليلة: وردت قصة "شمشون ودليلة" في الكتاب المقدس- سفر القضاة، ودليلة امرأة من نبلاء الفِلَسطيّين، تمكنّتْ من إيقاع القاضي اليهودي شمشون الجبّار في حبّها، وقصّتْ شَعره الطويل الذي هو سِرُّ قوته، ليقعَ أسيرًا في يد الفلسطيّين، وتنتهي حياته بالانتحار.

- كاثرين الثانية أو كاثرين العظيمة (١٧٢٩-١٧٩٦): امبراطورة روسيا القيصرية لمدة ٣٤ سنة، تعتبر أهمّ من حكم روسيا، وأعظم النساء الحاكمات عبر التاريخ.

- لولا مونتيز (١٨١٨-١٨٦١): كاتبة وممثلة وراقصة إيرلندية، كانت عشيقة فرانز ليسْتْ وألكسندر دوماس الأب. ثم عشيقة لودفيغ الأول ملك بافاريا، وكانت هي الحاكمة الفعلية لبافاريا. (المترجم)

"ماذا تقصدين بذلك؟"

"أعرفكَ وأعرف ما تهوى".

"هل تعرفين أنكِ قد ازدَدْتِ إغراءً منذ لقائنا الأخير؟"

"من أية ناحية؟"

"من حيث إن لا شيءَ يُبْرزُ جمالَ جسمكِ الأبيض أكثرَ من هذا الفراء الأسود، وهذا..."

ضحكت الربة، وقالتْ: "أنتَ تحلُم، استيقظ". ثم أمسكتْ ذراعي بيدها الرخامية البيضاء: "هيّا استيقظ"، كرّرتْها بصوتٍ خشن. فتحتُ عينيّ بصعوبة.

نظرتُ إلى اليد التي تهزّني، فإذا بها سمراءُ برونزية، وغدا الصوتُ صوتَ سكّيرٍ غليظ، صوتَ خادمي القوزاقيّ الذي كان واقفاً قربي بقامته الفارعة.

"هيّا انهضْ"، تابع الشابُ الطيب: "إنه أمرٌ معيب".

"ما هو المعيب؟"

"أنْ تنام بملابسك، وبكتابٍ فوقك". نفخَ على الشمعة التي ذابتْ طوال الليل، والتقط الكتاب: "أنْ تنام وفوقك كتاب لـ...". نظر إلى الغلاف: "كتاب لـ هيغل، لقد تأخّر الوقت، والسيد سيفرين ينتظر زيارتنا له".

* * *

"حلم عجيب"، قال سيفرين عندما رويتُ له ما رأيت، أسند كوعيه على ركبتيه، واضعًا وجهه بين راحتي يديه الرقيقتين المزركشتين بالعُرُوق الزرقاء، واستغرقَ في التفكير.

ظلَّ ساكنًا لفترة طويلة، من دون أي حركة، حتى كأنه لا يتنفّس. وهو يفعل ذلك عادةً، فلم أعتبر سلوكه غريبًا أبدًا. لقد جمعتْنا صداقةٌ حميمة لمدة

تقاربُ ثلاث سنوات، وصرتُ معتادًا على طباعه. لا أنكرُ أنه شخص غريب الأطوار، لكنه ليس ذاك المجنون الخطير كما يحسبُه جيرانه، أو بالأحرى كما يراه جميع سكّان مقاطعة كولوميا. لا أعتبرُ شخصيّته مثيرةً للاهتمام فحسب، بل شخصيّةً ودودةً ولطيفة أيضًا، ولهذا يعتبرني الكثيرون نصف مجنون. بالنسبة إليه كنبيلٍ غاليسيّ[٤]، ملّاكٍ إقطاعي، وإذا أخذنا عمره -بالكاد تخطّى الثلاثين- بعين الاعتبار؛ فإنه يتصرّف بوقارٍ رزين وبجدّيةٍ رصينة، وبحذلقةٍ أيضًا. يعيش حياته وفق نظامٍ مفصّلٍ ودقيق، نصفُه ذهنيّ والآخر عملي، يسيرُ مثل عقارب الساعة. لكنه لا يعيش وحيدًا، فهو محَاطٌ بميزان الحرارة ومقياس الضغط الجوّي ومقياس كثافة الهواء ومقياس كثافة السوائل، ويعيش مع أبقراط وأفلاطون وهوفلاند وكانط وكنِشْغَهْ واللورد تشيسترفيلد[٥]. لكنه في بعض الأحيان، يُصاب بنوبات انفعال شديدة، فتحسبه سوف يركض ويضرب رأسه بأقرب جدار. وفي حالةٍ كهذه، يفضّلُ الجميع الابتعاد عن طريقه.

بينما ظلَّ صامتًا، كانت النار تغنّي في الموقد، وسَمَاوَرُ الشاي يصفُر، والكرسيُّ الهزّاز الذي أجلس عليه يتأرجح نحو الأمام والخلف، وسيجاري يحترق، والجُدْجُدُ ينشِدُ في الجدران الخشبية العتيقة. سمحتُ لعينيَّ بأنْ تتجوّلا بين الأجهزة الغريبة الموجودة عنده؛ هياكل عظميّة لحيوانات، طيور محنّطة، مجسّمات للكرة الأرضية، تماثيل جصّية، وكتب متكدّسة فوق بعضها. ثم

---

٤ - كولوميا وغاليسيا: مقاطعتان ضمن الإمبراطورية النمساوية المجرية، أما اليوم فتقع الأولى في أوكرانيا، والثانية مقسّمة بين أوكرانيا وبولندا.

٥ - كريستوفر فيلهلم هوفلاند (١٧٦٢-١٨٣٨): طبيب ألماني ومؤلّف لعشرات الكتب العلمية.
- أدولف فرايهر كنِشْغَهْ (١٧٥٢-١٧٩٦): كاتب ألماني ومؤسس جمعية "المتنوّرون".
- لورد تشيسترفيلد (١٦٩٤-١٧٧٣): كاتب بريطاني ورجل دولة.(المترجم)

وقعتْ عينيْ على لوحةٍ سبقَ لي أنْ رأيتُها مرارًا، لكنها اليوم، ومع انعكاس ألسنة اللهب الحمراء عليها، تركتْ في داخلي انطباعًا لا يُوصف.

كانت لوحةً زيتية ضخمة، فيها أشخاص مرسومون بكامل أجسادهم، وهذا أسلوب المدرسة البلجيكية. لكنّ موضوعها كان شديد الغرابة.

امرأةٌ جميلة ترتسم على وجهها ابتسامةٌ لامعة، شعرُها غزير مربوطٌ ربطةً تقليدية، يتناثر فوقه بُهرجٌ أبيض مثل رذاذ الصقيع. كانت مُتّكِئةً على أريكةٍ عثمانية[٦]، مستندةً على ذراعها اليسرى. لقد كانت عاريةً تمامًا، لولا الفرو الأسود الذي يلفّ جسدها. يدُها اليمنى تلوّح بالسوط، بينما تستريح قدمُها العارية بلا مبالاةٍ على رقبة رجل. كان الرجل مستلقيًا أمامها مثل عبد، مثل كلب. تلمحُ في قسَمَاتِ وجهه المرسومة بدقةٍ وإتقان، علاماتِ الحزن والبؤس، والشهوة المخلصة أيضًا، إذ كانت عيناه تنظران إليها بحُرقة وذهول، وكأنهما عينا شهيد. هذا الرجل- مسنَدُ قدَمِ تلك المرأة، هو سيفرين. لكنه كان من دون لحية، ويبدو أصغر بعشر سنواتٍ تقريبًا.

صرختُ وأنا أشير إلى اللوحة: "فينوس ذات الفراء! هكذا رأيتُها في حلمي تمامًا".

قال سيفرين: "وأنا كذلك، الفارق الوحيد هو أنني شاهدتُ حلُمي بعينين مفتوحتين".

"حقًا؟"

"إنها قصة متعبة".

---

٦ - الأريكة العثمانية (Ottoman): هي أريكة منخفضة ليس لها ظهر، ترتفع بشكل انسابيّ من الجانبين لتشكّل مساند الأذرع. تستخدم اليوم في غرف النوم، وخاصةً في الفنادق. وردتْ في بعض المصادر العربية باسم "المتَّكَأ التركي". (المترجم)

"يبدو أن لوحتكَ قد أملَتْ عليّ حلمي. لكنْ أخبرني ما معناها؟ أتصوّر أنها قد لعبتْ دورًا في حياتك، وربما كان دورًا حاسمًا. ولن أعرف التفاصيل إلّا منك".

"انظُرْ إلى نظيرتها"، ردّ صديقي الغريب من دون أن يجيب على سؤالي. كانت نظيرتُها نسخةً ممتازة من لوحة تيتيان الشهيرة "فينوس والمرآة"[٧]، المحفوظة في متحف درِسْدِن.

"وما هو المغزى؟"

نهضَ سيفرين وأشار إلى الفراء الذي لفَّ به تيتيان ربّة الحبّ، وقال مبتسمًا: "إنها أيضًا فينوس ذات الفراء، ولا أظنّ أنّ العجوز الفينيسيّ قد قصدَ غير ذلك. لعلّه رسم لوحةً لإحدى السيدات الأرستقراطيّات، وكان لبِقًا جدًّا عندما جعلَ كيوبيد يحملُ لها المرآة[٨]، لكي تبصر جمالها الجليل بنوعٍ من الرضا الهادئ. اللوحة مرسومة بإتقانٍ مفرط، وفيما بعد قام أحدُ الخبراء في عصر الروكوكو[٩]، بتعميد هذه السيدة تحت اسم: فينوس. هذا الفراء السلطانيّ الذي تتشح به السيدة الكريمة التي رسمها تيتيان، هو لغرض الحماية من البرد، أكثر مما هو للاحتشام. ولقد صار رمزًا للطغيان والقسوة اللذين يشكّلان وجود المرأة، ويصوغان جمالها".

"لكنْ دعنا من ذلك، اللوحة كما هي اليوم، تمثّل انتقادًا لاذعًا للحبّ عندنا. فينوس في هذا الشمال المجرّد، في هذا العالم المسيحي المتجمّد، صار عليها أنْ تدُبَّ متّشحةً بفراءٍ أسود ضخمٍ لكيلا تصاب بالزكام".

---

٧ - تيزيانو فيسيليو تيتيان (١٤٩٠-١٥٧٦): رسّام إيطالي من أعلام الفنّ في عصر النهضة.

٨ - كيوبيد: إله الحبّ عند الرومان، كمقابل لـ "إيروس عند الإغريق، يُصوّر كطفلٍ ممتلئ الجسم له جناحان، ويحمل قوسًا وسهمين بيديه.

٩ - الركوكو: مدرسة فنية في الرسم والعمارة والديكور، تعتبر امتدادًا للباروك لكن بمقاييس جماليّة تتسم بالسلاسة والرقة، وعصر الروكوكو هو القرن الثامن عشر.

ضحكَ سيفرين، وأشعل سيجارًا آخر.

فجأةً فُتحَ الباب، ودخلت فتاة شقراء جذابة وممتلئة الجسم، لها عينان رائقتان، ترتدي ثوبًا أسود. قدّمتْ لنا طبقًا من اللحم والبيض إلى جانب كؤوس الشاي. أخذ سيفرين بيضةً وقطعها بالسكين، ثم صرخ بصوتٍ جعلَ الفتاة ترتعد: "ألَم أقُلْ لكِ بأنني أريدُها نصفَ مسلوقة؟"

"لكن يا عزيزي سيفرينو..."

"سيفرينو؟!... أنتِ هنا لكي تُطيعي الأوامر فقط! أطيعي فقط! هل تفهمين؟"

التقطَ السوط الذي كان معلّقًا على جدار الأسلحة، فهربتِ الفتاة من الغرفة مثل أرنبة مذعورة. "انتظري! سأحاسبكِ فيما بعد".

وضعتُ يدي على ذراعه: "لكن يا سيفرين، كيف تعامل فتاة يافعةً وجميلة هكذا؟"

أجاب وأجفانه ترفّ: "هل ترى هذه المرأة؟ إذا ما غازلتُها وتملّقتُها، فسوف تلفُّ المشنقةَ حول عنقي. لكنْ عندما أُربّيها بالسوط، فهي تعشقني".

"هُراء! ليس من المعقول أنْ تكون هذه طريقةً للتعامل مع امرأة".

"حسنًا، إذا أعجبتكَ هذه الطريقة، فسوف تعيش مثل الباشا في الحَرَمْلِك. وإذا لم تعجبك، فاحتفظْ بنظرياتك لنفسك".

"ولمَ لا".

"قولُ غوته {إما أن تكون مطرقةً أو سِنْدانًا}[١٠] مناسبٌ جدًا لعلاقة الرجل والمرأة. ألَمْ تثبتْ لكَ السيدة فينوس في منامك ذلك؟ قوةُ المرأة تكمن في عاطفة الرجل، وهي تجيدُ استغلالها جيدًا إذا لم يدرك الرجل حقيقة ذاته.

---

١٠ - يوهان فولفغانغ غوته (١٧٢٩-١٨٣٢): الشاعر والأديب الألماني الكبير، صاحب "فاوست" و"آلام فرتر" و"تاسو" و"المراثي الرومانية".

لأنّ أمامه خيار وحيد: إما أنْ يكون طاغيةً عليها أو عبدًا لها. وما إنْ يتنازل لها عن الحكم، حتى يجدَ نير العبودية ملتفًّا على عنقه، والسوطَ في طريقه إليه".

"لديك مبادئ غريبة".

"ليست مبادئ، بل تجارب! لقد جرّبتُ السوطَ فعلًا، لكنني شُفيت، هل تريد أن تعرف كيف؟". نهضَ سيفرين وأحضرَ مخطوطًا ضخمًا من على طاولته المكتظة بالأوراق، ووضعه أمامي: "لقد سألتَني قبل قليل عن اللوحة، ويجب عليّ أنْ أقدّم لك شرحًا طويلًا، ولهذا اقرأْ...".

جلسَ سيفرين قرب الموقد تاركًا ظهره لي، بدا وكأنه يحلم بعينين مفتوحتين. عمَّ الصمتُ من جديد، وعدتُ أسمعُ غناء الموقد والسَّمَاوَر والجُدْجُد المختبئ في الجدار العتيق. فتحتُ المخطوط وقرأتُ العنوان: "اعترافات رجُل مرهف الأحاسيس". في هامش المخطوط نُقشتْ عبارةٌ شهيرةٌ من مسرحية فاوست: {أكثرُ النساء إثارةً، هي التي تجرُّكَ من أنفك – مفيستوفيليس}. عدتُ إلى صفحة العنوان وقرأتُ: "ما يلي هو تجميع للمذكرات التي كتبتُها في تلك الفترة، لأنه من المستحيل على المرء أن يكتب عن ماضيه بنزاهة. أما في حالتي هذه، فتحتفظُ كل لوحةٍ بألوانها الطازجة، ألوان اللحظة الراهنة. غوغول، وهو موليير روسيا، قال في كتابه... في أحد كتبه: {المهرّج الحقيقي، هو المهرج الذي تسيلُ دموعُه تحت قناعه الضاحك}، يا لَها من عبارةٍ رائعة"[١١].

* * *

[١١] - نيكولاي غوغول (١٨٠٩-١٨٥٢): الأديب الروسي الكبير، صاحب "المعطف" و"المفتّش العام" و"تاراس بولبا".
- موليير (١٦٢٢-١٦٧٣): ممثل ومؤلف مسرحي فرنسي كبير، صاحب "البرجوازي النبيل" و"النساء العالمات" و"البخيل".

ينتابني شعورٌ غريبٌ وأنا أبدأ الآن بتدوين يومياتي، أحسُّ الهواءَ مُثقلًا بعبير الأزهار المنعش، وهذا ما يشلُّ قواي، ويسبّب لي الصُداع. يتموّج دخانُ الموقد ويتكاثفُ على شكلِ وجوهٍ لأقزامٍ ذوي لحىً رمادية، يشيرون بأصابعهم نحوي ويضحكون. ثمة كيوبيداتٌ ذوو خدودٍ بدينة، يتسلّقون على الكرسيّ ويجلسون في حضني. أبتسمُ لا إراديًّا، أضحكُ بصوتٍ عال، وأنا أدوّن مغامراتي. في الحقيقة أنا لا أكتبُ بحبرٍ عادي، بل بالدم الأحمر المتقطِّر من قلبي. كلُّ جراحه التي التأمَتْ فيما مضى، تفتّحتْ من جديد، لتنبضَ وتُوجِع. وبين الفينة والأخرى، تسقط دمعةٌ ساخنة على الورق.

تسيرُ الأيام ببطءٍ ورتابةٍ شديدة، في هذا المنتجع الصحي الواقع على جبال الكاربات[١٢]. هنا لا ترى أحدًا، ولا أحد يراك. الحياةُ مملةٌ إلى درجةِ أنْ تكتبَ شعرًا رعويًّا، لديّ وقتُ فراغٍ يكفيني لتزويد معرضٍ فني بكلّ لوحاته، لتزويد مسرحٍ بمقطوعاتٍ موسيقيّة تتنوّع على مدار الفصول، بعشرات الكونشيرتوات والثلاثيّات والثنائيّات. لكنّ ما أتحدّثُ عنه لن يُنتجَ في النهاية سوى تمديد القماش على الخشبة، وتشميع قوس الكمان، ورسْم المَدْرَج الموسيقي. وذلك لأنني -من دون أيّ تواضُعٍ زائف، عزيزي سيفرين، يمكنكَ أن تكذب على الآخرين، لكنكَ لم تعُدْ تنجحُ بالكذب على نفسك- لستُ أكثر من هاوٍ، هاوٍ في الرسم، هاوٍ في الشعر، هاوٍ في الموسيقى. وفي عدة مجالاتٍ أُخرى من الفنون التي تُوصَف بأنها لا تُطعِم خبزًا. فوق كل ذلك، أنا هاوٍ في الحياة، فحتى اليوم لم أُنجزْ في الحياة إلّا كما أنجرتُ في الرسم والشعر. لم أتجاوزْ مرحلة الإعداد بعدُ، ما زلتُ عند الخطّة، في الفصل الأول من المسرحية، في

١٢ - الكاربات: سلسلة جبال في أوروبا الشرقية والوسطى، تمتدّ اليوم بين سبع دول، لكن القسم الأوكراني منها هو مسرح أحداث الرواية.

المقطع الأول من القصيدة. هنالك أشخاصٌ على هذه الشاكلة، يبدؤون في كل شيء، ولا يستطيعون إتمامَ أيّ شيء، وأنا مجرّد واحد منهم. لكن ماذا أقول للأعمال العالقة بين يدي؟

أجلسُ قرب النافذة، أرنو إلى البلدة الصغيرة البائسة، فأمتلأ كآبةً مع أنّ المنظر مفعمٌ بالشعرية. ما أجملَ الجمال الشاهقة وهي تعانقُ أشعة الشمس الذهبية، بينما تنسابُ جداول الماء من قممها مثل خيوط الفضة. ما أنقى السماء الزرقاء التي ترتفعُ فيها قممُ الجبال المغطّاة بالثلج! ما أبهى الغاباتِ الخضراء المنحدرة من أكتاف الجبال، والمروجَ التي ترعى فيها الخرافُ الصغيرة، وحقولَ القمح التي تمتدُّ تحتها مثل بحرٍ من الذهب.

يقعُ البيتُ الذي أسكنُ فيه وسطَ حديقة، أو هي غابة، أو برّية... سمِّها ما شئت، في عزلةٍ تامة عن العالم. سكّان البيت المنعزلون هم أنا، وأرملة من ليمبرغ[١٣]، والسيدة تارتاكوفسكا صاحبة البيت. وهي امرأة ضئيلة الحجم، تبدو أكبر عمرًا وأصغرَ حجمًا يومًا بعد يوم. هنالك أيضًا كلبٌ عجوز يعرُج على إحدى أقدامه، وقطّة صغيرة تلعب دومًا مع كبّابة صوف، أظنُّ أنها للأرملة. يُقال إنّ الأرملة جميلةٌ جدًّا، وما زالتْ شابةً لم تتجاوز الرابعة والعشرين، وغنيةٌ جدًّا. أقطنُ أنا في الطابق الأرضي، بينما هي في الطابق الأول، حيث تبقى الستائرُ الخضراء مُسْدَلةً على الدوام، وثمة شرفةٌ تملؤها أُصُصُ الورد والنباتاتُ المتسلّقة. القسم الذي أعيشُ فيه في الأسفل، تجاورُه عريشةُ عَسَلَةٍ جميلة، عادةً أجلسُ تحتها لأقرأ وأكتب وأرسم وأغني مثل

[١٣] - ليمبرغ: الاسم القديم لمدينة "لفيف" الأوكرانية.

عصفورٍ بين الأغصان. من هنا، يمكنني النظرُ إلى شرفتها، وقد فعلتُ ذلك بضعَ مراتٍ، ورأيتُ وميضَ ضوءٍ أبيضَ يبرِقُ من خلَلِ الأجمة الخضراء.

في الحقيقة، هذه المرأة الجميلة الساكنة فوقي، لا تثير اهتمامي كثيرًا، لأنني واقعٌ في غرام امرأةٍ أخرى، ومُستاءٌ جدًّا من ذلك، مستاءٌ أكثر من "فارس توغنبرغ" ومن الفارس في "مانون ليسكو"[١٤]، وذلك لأن معشوقتي امرأةٌ من حجر.

في البرية المجاورة، ثمة مرجٌ رائق يرعى فيه زوجٌ من الغزلان بسلام، وعلى المرج نفسه، يوجد تمثال حجري لفينوس. هذه الفينوس هي أجملُ امرأة رأيتها في حياتي، وهذا لا يدلُّ على شيءٍ عظيم، لأنني لم أرَ سوى القليل من النساء الحسناوات في حياتي، وبالأحرى القليل من النساء بشكلٍ عام. في الحبّ أيضًا، أنا رجل هاوٍ، لا يقدر على تخطّي مرحلة الإعداد أو المشهد الأول. لكنْ لماذا أستخدمُ صيغة التفضيل العليا؟ وكأنّ شيئًا بهذا الجمال يمكن التفوّق عليه؟ يكفي القول إن هذه الفينوس جميلة، وإنني أحبّها بشغف كبير، وبقوة رهيبة، وبجنونِ مَنْ يعشقُ امرأةً لا تستجيبُ إلى غرامه إلّا بصمتٍ أبديّ وابتسامةٍ متحجّرة. أعشقها بكل معنى الكلمة، أجلسُ أمامها وأقرأُ محتميًا من أشعة الشمس بأغصانِ الشجيرات. وفي الغالب أزور سيدتي الباردة القاسية ليلًا، فأجثو على ركبتيّ أمامها، وألصقُ وجهي بقاعدة التمثال الباردة التي تقف عليها، وأتلو صلواتي إليها. ما يزال القمرُ الصاعد في كبد السماء نصفَ مكتمل، لكنه يُعطي للمشهد تأثيرًا لا يوصَف، وكأنه يطوفُ حول الأشجار، ويسكبُ فوق العشب ضياءهُ الفضيّ. صار للربة الآن مظهر جديد، تبدو وكأنها

---

١٤ - فارس توغنبرغ: قصيدة للشاعر الألماني شيلر (١٧٥٩-١٨٠٥).
- مانون ليسكو: رواية للكاتب الفرنسي آبيه بريفو (١٦٩٧-١٧٦٣).

تستحمُّ بضوء القمر الشفيف، بيضاءَ كالحجر المغسول بماء القمر، يفصلُها عني ستارٌ من شجر. يبدو أنّ المرأة الرخاميّة بدأتْ تشفقُ عليّ، فصارتْ حيّةً ومشتْ ورائي. انتابني خوفٌ غريب، وكاد قلبي أن ينفجر. وعلى الرغم من أنني هاوٍ في الحبّ، وفي العادة أسقطُ عند المقطع الشعري الثاني، إلا أنني لم أسقطْ هذه المرة، بل على العكس، ركضتُ بأقصى سرعةٍ تستطيعُها رجلاي.

# (٢)

يا لها من صدفة رائعة! عن طريق بائع متجوّل يهوديّ حصلتُ على صورة لفتاة أحلامي، كانت الصورة نسخةً مصغّرة عن لوحة تيتيان "فينوس والمرآة". يا لها من امرأة! أردتُ أن أكتب قصيدة، لكنني بدلًا من ذلك أخذتُ الصورة، وكتبتُ على ظهرها: "فينوس ذات الفراء".

كيف تشعرين بالبرد وأنتِ شعلةُ نار؟ بكل حال، هذا الفراء الملكي الذي تلفّينَ به جسدك لا يليقُ على أيّ امرأةٍ مثلما يليقُ عليك، أنتِ يا ربة الحبّ والجمال القاسية. بعد قليل، كتبتُ على ظهر الصورة أبياتًا لـ غوته، نقلتُها من إحدى هوامش "فاوست":

"إلى آمور:[١٥]

الجناحانِ محضُ خَيَال

والسهامُ... ليستْ سوى مخالبه

إكليلُ الزهور على الرأس، يُخفي قرنينِ صغيرين،

لأنه دون شكّ

ومثلَ كلّ آلهةِ الإغريق

شيطانٌ بثوبِ ملاك".

وضعتُ الصورة على الطاولة أمامي، ورحتُ أحدّق فيها.

كنتُ في قمة السعادة، وفي الوقت ذاته انتابني خوفٌ غريب. تدهشني الطريقةُ اللعوبُ التي أخفتْ بها هذه المرأة الرائعة جمالَها الأخّاذ؛ تحت وشاحٍ من فرو

[١٥] - آمور: هو الاسم اللاتيني لـ إيروس الإغريقي، ويعني الحبّ.

السَّمُّور الأسود، تخيفني القسوة والجدية المختبئتان في ملامح هذا الوجه الرخاميّ البارد. مرةً أخرى، انتشلتُ قلمي وكتبت:

"أن تحبَّ، وأن تكون محبوبًا، يا لها من سعادة! على الرغم من ذلك، ما أروعَ هذا الوجه الأبيض النبيل! حين يقترنُ بالنعيم الموجِع الذي يغمرُنا عند عبادةِ امرأةٍ تجعلُ منا دميةً لها، عندما نكون عبيدًا لطاغيةٍ جميلة تدوسنا تحت قدميها. حتى شمشون البطل الجبّار، ألقى بنفسِهِ بين يديّ دليلة، وحتى بعدما خانتْه لأول مرة، ولثاني مرة، وبعد أنْ كبّلُه الفلسطيّيون بالأصفاد[١٦]، واقتلعوا عينيه، بقيتْ عيناه إلى آخر لحظةٍ سكرانتين غضبًا وعشقًا، ومُسمَّرتين نحو الخائنة الجميلة".

كنتُ أتناول الفطور تحت عريشة العَسَلَة، وأقرأ "سفر يهوديت"، فحسدتُ البطل "هولو فرنيس"[١٧] على المرأة العظيمة التي قطعتْ رأسه بالسيف، وعلى نهايته الدموية المجيدة.

{الربُّ القديرُ ضربَهُ، وأسلَمَهُ إلى يد امرأةٍ فطعنَتْه}، لهذه المقولة تأثيرٌ غريب عليّ.[١٨]

يا لَسماجةِ أولئك اليهود! خطر لي، كان على ربّهم أن يختار تعابير أكثرَ لباقةً عندما يتحدث عن الجنس اللطيف. {الربُّ القديرُ ضربَهُ، وأسلَمَهُ إلى يد امرأةٍ فطعنتْه}، ردّدتُ المقولة، ماذا سأفعل؟ هل يقوم الربُّ بمعاقبتي إذًا؟!

---

١٦ - ترجمنا "Philistines" بـ "الفلسطيّين" تماشيًا مع الترجمة العربية للكتاب المقدّس، وللتمييز بين الرواية التوراتية كأسطورة، والشعب الفلسطيني كحقيقة تاريخية وواقعية.

١٧ - هولو فرنيس: وردتْ قصتُه في الكتاب المقدس- سفر يهوديت، وهو القائد الآشوري الغازي الذي استطاع اليهودُ الانتصارَ عليه بمساعدة أرملة يهودية جميلة وغنيّة اسمها يهوديت.

١٨ - الاقتباس من الكتاب المقدس: سفر يهوديت، الإصحاح ١٦، الآية ٧.

فلْتحمِنا السماء! جاءتْ إليَّ صاحبةُ البيت التي يصغُر حجمها كل يوم، وهناك في الأعلى، وسطَ النباتات المتشابكة الخضراء، يلمعُ ثوبٌ أبيض، هل هي فينوس؟ أم أنها الأرملة؟

هذه المرة كانت الأرملة، إذ طلبت السيدة تارتاكوفسكا مني، بناءً على طلب الأرملة، استعارةَ شيءٍ لكي تقرأه، فدخلتُ إلى غرفتي وتناولتُ كتابين.

تذكّرتُ فيما بعد أنني قد نسيتُ صورة فينوس في أحد الكتابين، والآن صارت الصورةُ وما كتبتُ على ظهرها من هذيانٍ عاطفيّ بين يدي تلك المرأة البيضاء، فماذا سوف تقول عني؟

أسمعُ ضحكتها آتيةً من الأعلى، هل تضحكُ عليّ يا تُرى؟!

عندما اكتمل القمر، وراح يسكبُ ماءه فوق شجيرات الشوكران التي تسوّر الحديقة، انبثقتْ موجةُ فضةٍ من الشرفة، وامتدتْ بين الأشجار على طول الحديقة، بلغتْ أقصى ما تبصرُهُ العين. ثم تلاشتْ في البعيد، وكأنها قد تبخّرتْ.

لا أستطيع المقاومة، أحسُّ بدافعٍ غريب، بنداءٍ قويّ يتصاعد في داخلي. ارتديتُ ملابسي، واتجهتُ إلى الحديقة. ثمة قوةٌ غامضة جذبتْني نحو المرج، نحوها، إلى هناك... حيث تقف معشوقتي ومعبودتي.

كان الليل معتدل البرودة، فشعرتُ بقشعريرة طفيفة. بينما كان الهواء مُشبَعًا بعبير الزهور ورائحة العشب، يا لَهُ من جوٍّ مُسكِر! يا لهذا الجمال! ويا لتلك الموسيقى العذبة التي تنشِدُها العنادلُ بين الأشجار! النجوم تلتمعُ وترتعشُ وسط البهاء الأزرق، والعشبُ يغدو أملَسَ وكأنه مرآة، أو مثل سطح بحيرة متجمّدة.

ما زال تمثالُ فينوس واقفًا في مكانه بجلالٍ وإشراق.

لكن ما الذي يحدث؟ من الكتفين الرخاميين للربةِ... ينسدلُ وشاحٌ من الفرو الأسود... ويصلُ إلى كعبي قدميها! تسمّرتُ في مكاني مصعوقًا، وحدّقتُ مشدوهًا. وللمرة الثانية، ينتابني خوفٌ لا يوصَف، فرحتُ أعدو.

أسرعتُ الركض، ولاحظتُ أنني قد أضعتُ الطريق، وبينما كنتُ أحاول التوجّه نحو واحدٍ من ممرات الحديقة... رأيتُ فينوس جالسةً على مقعد حجري أمامي، لا أقصد تلك المرأة الجميلة المنحوتة في الرخام، بل ربة الحبّ بعينها، بلحمها الساخن ودمها النابض في العروق. يبدو أنها قد بُعثَتْ حيّةً من أجلي، مثل تمثالٍ تدُبُّ فيه الحياةُ كُرمى لنحّاته. في الحقيقة، كانت المعجزة نصف مكتملة، لأن شَعرها الأبيضَ ما زال يبدو من حجر، وثوبها يلمعُ مثل ضوء القمر، أم إنه ثوب من الساتان؟!... من أعلى كتفيها ينسدل الفرو الأسود، لكنّ شفتيها بدأتا تحمرّان، كما بدأ خدّاها يتورّدان. ثمة شعاعان أخضران شيطانيّان انطلقا من عينيها نحو عينيّ، وها هي الآن تضحك!

ضحكتُها غامضة جدًّا، ضحكتها... لا أعرف، لا يمكنني وصفها، لقد خطفتْ أنفاسي. صارت الضحكة الساخرة تطاردني في طرقات الحديقة، وعبر المروج الخضراء، وسط الأجمات الكثيفة التي لا يقدرُ شعاع قمرٍ واحدٍ على النفاذ فيها. ما عدتُ أعرف إلى أين أذهب، أدور حول نفسي في حيرةٍ تامة، وقطرات العرَق البارد تتساقط من جبيني.

وأخيرًا تمالكتُ أنفاسي، وقلتُ لنفسي كلامًا ينفع الشخص المهذّب جدًّا، أو الوقح جدًّا، قلتُ لنفسي: "يا حمار!". لهذه الكلمة تأثيرٌ ممتاز علي، وكأنها وصفة سحرية، تحرّرني وتُعيدني سيّدًا على نفسي. بدأتُ أهدأ قليلًا، وبمتعةٍ فائقةٍ كررتُ: "يا حمار!".

الآن أرى كل شيء بوضوح من جديد، هذه هي النافورة، وهذا هو الممشى المفروش بألواح الخشب، وهناك يقع البيتُ الذي أخبُّ نحوه ببطء.

لكنّ ذاك المشهد عاد مجددًا، هناك... خلفَ اللوحة الخضراء التي يعبر ضوءُ القمر من خلالها، ليخرج موشّى بالفضة؛ أرى الوجه الأبيض مرة أخرى، وجه المرأة الحجرية التي أعبدها، والتي أخافُ منها وأهرب.

بعد قفزتين وجدتُ نفسي داخل البيت، وبدأتُ ألتقط أنفاسي وأفكاري. من أنا بحقّ الجحيم؟ هل أنا هاوٍ صغير؟ أم حمار كبير؟!

كان الصباح حارًّا، والهواء واقفًا في مكانه، مثقلًا بالعطور. جلستُ تحت عريشة العسلة، ورحتُ أقرأ في "الأوديسة"[١٩] عن الحسناء التي تمسَخُ عشاقها إلى بهائم، يا لَها من صورةٍ رائعة عن الحبّ في العصر القديم.

بدأتُ أسمع حفيفًا ناعمًا بين الأغصان والأوراق، كما أنّ صفحات كتابي راحت تتقلّب، وثمة خشخشةٌ آتيةٌ من الشرفة أيضًا.

فستانُ امرأة!

كانت فينوس، لكنْ من دون فراء. لا... إنها الأرملة هذه المرة، لا... لا... إنها فينوس، آه... يا لَها من امرأة!

واقفةً بثوبها الأبيض الرقيق، نظرتْ إليّ. كان مظهرُها يطفح بالشعرية والسموّ، لم تكنْ بدينةً ولا نحيلة، وجهُها فاتنٌ ومثيرٌ مثل وجوه المركيزات الفرنسيّات. يا لهذا السحر وهذي النعومة! يا لهذا المكر الجذّاب الذي يحوم حول فمها الصغير! كانت بشرتُها في غاية الرقة والرهافة، تشِفُّ عن عروقها

[١٩] - الأوديسة: الملحمة الثانية التي تُنسَب إلى الشاعر الإغريقي القديم هوميروس، وهي تتحدث عن الرحلة البحرية التي قطعها أوديس من طروادة عائدًا إلى مملكته إيثاكا، ومدّة الرحلة عشر سنوات.

الزرقاء، حتى من تحت الموصلين الذي يغطّي ذراعيها وصدرها. ما أغزرَ شَعرها! وما أبهى لونه المتدرّج بين الأشقر والذهبيّ والأحمر، وكيف يتموّجُ حول عنقها كأغنيةٍ شيطانية. الآن... تضربُ عيناها عينيّ مثل برقٍ أخضر، إنهما خضراوان، عيناها، ولهما سطوةٌ خضراءُ لا تُوصَف، وكأنهما جوهرتان، أو بحيرتان رائقتان عميقتان.

يبدو أنها قد لاحظتِ الارتباكَ عليّ، وهو ما جعلَني أتصرّف بطريقة غير لائقة، إذ بقيتُ جالسًا في مكاني، وقبّعتي فوق رأسي.

ابتسمتْ بخبث.

وأخيرًا نهضتُ، ورفعتُ قبّعتي لها. اقتربتْ أكثر، ثم أطلقتْ ضحكةً طفوليةً رنّانة. تلعثمتُ وانعقد لساني، وهذا كلُّ ما يمكنُ للهاوي الصغير أو الحمار الكبير فعلُه في حالةٍ كهذه.

وهكذا تعرّفنا على بعضنا لأول مرة.

سألتِ الربةُ عن اسمي، وذكرتْ لي اسمها.

اسمها: فاندا فون دوناييف.

وهي فينوس بذاتها.

"لكن يا مدام، كيف خطرَ على بالك..."

"الصورة الصغيرة التي تركتها في أحد كتابيك".

"لقد نسيتُها في الكتاب".

"الملاحظات الغريبة التي كتبتها على ظهر الصورة".

"لماذا هي غريبة؟"

"لطالما أردتُ التعرّف على حالمٍ حقيقي ذات يوم، على سبيل التغيير، ويبدو أنكَ الأكثرُ جنونًا في قبيلة الحالمين".

"سيدتي العزيزة، في الحقيقة..."، للمرة الثانية أقعُ ضحيةً للتلعثُم الأبله البغيض، وفوق ذلك احمرّتْ وجنتاي مثل مراهقٍ في السادسة عشرة.

"كنتَ خائفًا مني ليلة أمس".

"حقًا؟ بالطبع... تفضّلي بالجلوس".

جلستْ مسرورةً بالارتباك الظاهر عليّ، فلقد ازداد خوفي منها الآن، وأنا أراها في وضَح النهار. ارتسمتْ علامةُ ازدراءٍ هازئٍ على شفتها العليا.

"أنتَ تنظرُ إلى الحبّ، وخصوصًا إلى المرأة، كشيءٍ مُعادٍ، كأمرٍ يجبُ الدفاعُ عن النفس أمامه، ولو أنّ دفاعاتك سوف تتهاوى. تشعر أنّ سلطتها عليك، سوف تمنحكَ إحساسًا بالعذاب اللذيذ، بالقسوة الحارقة، وهذه في الأصل وجهة نظرٍ حديثة".

"ألا توافقينني الرأي؟"

"لا أوافقك الرأي". أجابت بسرعةٍ حاسمة، وهي تهزّ رأسها وترقّصُ خصلاتِ شعرها مثل ألسنةِ اللهب. ثم تابعتْ: "المثال الذي أتوقُ إلى الوصول إليه في حياتي، هو الشهوة الحسيّة النقيّة الصافيّة، مثلما كانت عند الإغريق، لكن من دون ألم. لا أؤمن بذاك النوع من الحبّ الذي تبشّرُ به المسيحية، والمعاصرون، وفرسان الروح. نعم، انظرْ إليّ، أنا أكثر من مُهَرطِقة، أنا وثنية. {هل تتخيّل أنّ ربّة الحبّ تُصغي إلى نصيحةٍ من أحد، وهي تتسلّى مع آخيل في جنة عدن؟}".

"هذان البيتانِ من المراثي الرومانية لـ غوته، لطالما أحببتُهما. في الطبيعة لا يوجد حبٌّ سوى الحبّ الذي كان في عصر الأبطال، حينما وقع الأربابُ والربّاتُ في الحبّ. في ذلك الزمن، كانت الرغبة تتدفّق من العينين، الرغبة بالسعادة، وكلُّ ما عداها مُصطنَع ومزيَّف. أما المسيحية برمزها العنيف، أعني

الصليب، فلطالما تركت انطباعًا وحشيًّا في داخلي، وأضافتْ عنصرًا دخيلًا وعدوانيًّا إلى الفطرة وغرائزها البريئة".

"إنّ صراع الروح مع الشهوات، هو إنجيلُ الإنسان المعاصر، وهو أمرٌ لا يعنيني بتاتًا".

"نعم، إن جبل الأولمب[٢٠] هو المكان المناسب لكِ سيدتي. نحن المعاصرين لا يمكننا بلوغ النقاء الفطريّ القديم، على الأقلّ في الحب. إنّ فكرة الاشتراكِ في عشق امرأة واحدة، حتى لو كانت أسبازيا[٢١]، تثير اشمئزازنا. نحن غُيُورون كما هم آلهتُنا، نفضّل أنْ تكون إحدى عذارى هولباين[٢٢] الشاحبات الهزيلات لنا وحدنا، على عشق فينوس العريقة. فهي على الرغم من جمالها الإلهي، تحبُّ أنخيسيس اليوم، وباريس غدًا، وأدونيس بعد غد[٢٣]. وفي حال انتصر صوتُ الفطرة في داخلنا، وقدّمنا آياتِ الولاء العاطفيّ المتوهّج لامرأة كهذه، سوف تبدو سعادتُنا الطاهرةُ عملًا شيطانيًّا، إذ نقرأُ بين سطور السعادة معاني الخطيئة، الخطيئة التي ينبغي التكفيرُ عنها".

"إذًا أنتَ واحد ممّن ينتقدون المرأة المعاصرة بشدّة، أعني تلك المخلوقات المؤنثة البائسة والمسعورة، اللواتي لا يُقدّرنَ قيمة الرجل الواقعيّ أثناء بحثهنّ

---

٢٠ - الأولمب: جبل يقع شمال شرق اليونان، وهو مسكن الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية.

٢١ - أسبازيا (٤٧٠-٤٠٠ ق.م): كانت عشيقة بركليس حاكم أثينا، وقد لعبتْ دورًا سياسيًّا بارزًا في عصرها، حتى إنها كانت الحاكمة الفعلية لأثينا. اشتُهرت بكونها مُومسًا وصاحبة ماخور، وكذلك بمواهبها الخطابية وثقافتها الواسعة.

٢٢ - هانز هولباين الأب (١٤٦٠-١٥٢٤): رسّام ألماني من عصر النهضة، اشتُهر برسم سلسلة لوحات عن السيد المسيح وتلاميذه والسيدة العذراء.

٢٣ - أنخيسيس: هو في الإلياذة أمير طروادي ووالد إينياس.

- باريس: ابن بريام ملك طروادة، وهو خاطف هيلين والمتسبّب بنشوب الحرب.
- أدونيس: من الأسطورة الإغريقية، شابّ بالغ الجمال والجاذبية، تقع فينوس وبرسيفون في حبّه، وتتشاجران عليه، فيحكُم زيوس بينهما، على أنْ يُمضي أدونيس أربعة أشهر مع الأولى، وأربعة أشهر مع الثانية، وأربعة أشهر في أي مكان يختاره، وهكذا دواليك.

الأعمى -كمَن يسيرُ في نومه- عن فتى الأحلام والذكَر المثال. يعِشْنَ في بحر من الدموع والحشرجات، ويقُمْنَ يوميًّا بتشويه واجباتهنّ المسيحية. إنهنّ خادعاتٌ ومخدوعات، يكرّرنَ البحثَ مرةً تلو أخرى، ويكرّرن الاختيار، ويكرّرن خيانة مَن اخترنه. هؤلاء لن يعرفنَ السعادة يومًا، ولن يهبنَ السعادة لأحد. يُلقينَ باللَّوم على القدر، بدلًا من الاعتراف الصريح بأنهنّ يحلُمنَ بالعيش مثلما عاشتْ هيلين وأسبازيا. الطبيعةُ تُقِرُّ بعدم استمرار أيّ علاقةٍ بين رجل وامرأة".

"لكن، يا سيدتي العزيزة..."

"دعني أكمل! الأمر يعود برمّته إلى أنانية الرجل، فهو يرغب بالاحتفاظ بالمرأة مثل كنزٍ مدفون. كلُّ المساعي التي بُذلتْ لتحقيق الاستمرارية في الحبّ، وهو أكثرُ شيءٍ متغيّرٍ في الوجود البشري الدائم التغيير، ذهبتْ هباءً منثورًا. وذلك على الرغم من كلّ الشعائر الدينية والعهود والقوانين الملزمة. هل تُنكر أنّ عالمنا المسيحي استسلمَ للفساد والانحلال؟"

"لكن؟"

"لكن ماذا؟ تريد القول إنّ الفرد الذي يثور على التقاليد الاجتماعية؛ يصبحُ منبوذًا؟ موصومًا بالعار؟ مرجومًا بالحجارة؟ حسنًا، فلْيكُنْ ذلك. أنا مستعدّة لمواجهة المخاطر، مبادئي وثنية بامتياز، سأعيش حياتي بالطريقة التي ترضيني، وسوف أفعل ما أريد بغضّ النظر عن احترامكم أو عدمه، أُفضّل أن أكون سعيدة. لقد أبلَى مُبتكِرو الزواج المسيحي بلاءً حسنًا، عندما وظّفوا فكرة الأبديّة في صميم الزواج الأبديّ. أنا -في كل الأحوال- لا أرغب بحياة أبدية. وعندما ألفظُ أنفاسي الأخيرة، فإنّ كلَّ ما في العالم، مثله مثل فاندا فون دوناييف، سوف يُمسي تحت التراب. وماذا سوف أستفيد إذا انضمَّتْ روحي

الطاهرة إلى جوقة الملائكة؟ أو إذا تشكّل مخلوقٌ جديد من رُفاتي؟ هل ينبغي عليّ أنْ أُخلِصَ لرجلٍ واحدٍ طُولَ العمر، لأنني قد أحببتُه مرةً في العمر؟! الزهدُ لا يناسبني، فأنا أحبُّ كلّ رجلٍ يسعدني، وأمنح السعادة لكل مَنْ يحبّني. هل هذه قباحة؟ لا... إنها أجملُ بكثيرٍ من القسوة وتعذيبِ مَن يُثيرهُم جمالي، ومِنْ رفض رجلٍ مسكين يتلهّف شوقًا إلي. أنا شابةٌ وجميلة وغنيّة، وأعيش حياةً نقيةً غايتها السعادة واللذة".

كان الذكاءُ يلمعُ في عينيها وهي تتحدّث. أمسكتُ يديها، لكنني لم أعرف ماذا أفعل بهما، وبما أنني غِرٌّ أصيل، أفلتُّ يديها بسرعة. ثم قلتُ: "صراحتكِ تسعدني، ليس هذا فحسب..."، وللمرة الثانية تخنقني غَرارتي الحائرة، وكأنها حبْل مشدود على عنقي.

"كنتَ تريد أن تقول؟"

"كنتُ أودُّ أن أقول... إنني... آسف... لقد قاطعتُك".

"كيف ذلك؟"

عمّ الصمتُ فيما بيننا، لا بدّ أنها تتحدث عني في سرّها، أحاول ترجمة الحديث إلى لغتي، فأجده يتضمّن كلمة واحدة: "حمار!". وبصعوبةٍ شديدة نطقتُ: "هل لي أن أسأل... كيف توصّلتِ إلى هذه... هذه الاستنتاجات؟"

"ببساطةٍ شديدة، كان والدي رجلًا نبيهًا، إذ فتحتُ عينيّ ونشأتُ في بيت حافل بروائع الفنّ القديم. في العاشرة من عمري قرأتُ "جيل بلاس"[٢٤]، في الثانية عشرة "العذراء"[٢٥]. وبينما يعتبرُ الآخرون "عقلة الإصبع" و"ذو اللحية

[٢٤] - جيل بلاس: رواية بيكارسكيّة للكاتب الفرنسي ألان رينيه ليساغ (١٦٦٨-١٧٤٢).

[٢٥] - العذراء (Le Pucelle): قصة شعرية للأديب والفيلسوف الفرنسي فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨).

الزرقاء" و"ساندريلا"[٢٦] أصدقاء طفولتهم، فإنّ أصدقاء طفولتي هم: فينوس وأبوللو وهرقل ولاوكون[٢٧]. أمّا زوجي... فقد كان رجلًا رائقًا ومشرقًا، حتى المرض العُضال الذي أصابه بعد فترة وجيزة من زواجنا، لم يلطّخْ جبينه الشامخ. في الأشهر الأخيرة من عمره، كان يُحتضَر على كرسيّه المتحرّك، ويقول لي مازحًا: [هل وجدتِ عشيقًا؟] فتحمرُّ وجنتاي من الخجل. وفي ليلة وفاته، أخذني بين ذراعيه وقال: [هل وجدتِ عشيقًا؟ سيكون من المعيب في حقي إذا لم تختاري رجلًا وسيمًا، بل أكثر من واحد. أنت امرأة رائعة، لكنك ما زلت طفلة، وتحتاجين إلى بعض الدُمى]. من الضروري أنْ تعرف أنني خلال حياتي معه، لم يكنْ لديّ حبيبٌ سواه. لكنْ بفضله هو، أصبحتُ ما أنا عليه، امرأةً من عصر الإغريق".

"بل ربة!"

"أيةُ واحدةٍ منهنّ؟"، ابتسمتْ.

"فينوس".

رفعتْ سبّابتها في وجهي، وقطّبتْ حاجبيها: "ربما... فينوس ذات الفراء. احذرْ، لديّ وشاحٌ كبير من الفرو، يمكنني حبسُكَ في داخله. ولديَّ من الذكاء ما يكفي لاصطيادك به، مثلما تُصطَاد السمكة بالشبكة".

لمعتْ فكرةٌ جيدة في رأسي، وعلى الرغم من سذاجتها وابتذالها قلتُ: "هل تعرفين بأنّ أفكارك قد توصلكِ إلى الإعدام في هذا الزمن؟ أقصد أنْ تختال فينوس في الطرقات ومحطات القطار بكل جمالها السافر؟"

---

٢٦ - "عقلة الإصبع" و"ذو اللحية الزرقاء" و"سندريلا": قصص للفرنسي شارل بيرو (١٦٢٨-١٧٠٣).

٢٧ - أبوللو: إله الشعر والفنون عند الإغريق.

- لاوكون: كاهن المعبد الطروادي، ورد ذكره في الإلياذة

"السافر؟ بالطبع لا، لكنْ بالفراء". ابتسمتْ: "هل ترغب برؤيته؟"

"وبعد ذلك؟"

"ماذا بعد ذلك؟"

"الجمال، الحرية، النقاء، السعادة البشرية كما كانت عند الإغريق، لا يمكن تحقيقها إلا عند السماح بامتلاك العبيد، لكي يقوموا بالمهام اليومية الوضيعة، من أجل أنفسهم، ولخدمة أسيادهم".

"بالطبع"، أجابتْ بخبث: "آلهة الأولمب مثلي، تحتاج إلى جيشٍ كامل من العبيد. حذارِ مني".

"لماذا؟"

أنا مَنْ كنتُ خائفًا جدًّا بعد سؤالي لها "لماذا"، أما هي فلم يهتزّ لها رمش. باعدتْ شفتيها عن بعضهما قليلًا، فانكشفتْ أسنانها البيض المنضودةُ مثل عقدٍ من اللؤلؤ. ثم قالتْ ببرود، وكأنها تناقش أمرًا تافهًا: "هل تريد أن تكون عبدًا لي؟"

أجبتُ جادًّا: "لا توجد مساواة في الحب، وعندما يتوجّب عليّ الاختيار بين أنْ أكون حاكمًا أو محكومًا، أرى أنّ الخيار الأكثر إرضاءً لي، هو أنْ أكون عبدًا لامرأة جميلة. لكن، كيف لي أن أجد المرأة القادرة على الحكم برصانة، مفعمةً بالثقة بالنفس، وحتى بالقسوة. وألّا تحاول كسبَ سلطتها عن طريق التذمّر والنكد؟"

"قد لا يكون الأمر صعبًا".

"تظنّين ذلك؟"

"أنا، على سبيل المثال". ضحكتْ وهي تميلُ رأسها إلى الخلف: "عندي موهبة حقيقية في الاستبداد، ولديّ الفرو اللازم أيضًا. لكن، هل كنتَ خائفًا مني حقًّا ليلة أمس؟"

"حقًا، حقًا..."

"ولماذا؟"

"الآن خائفٌ منكِ أكثر من أيّ وقتٍ مضى".

* * *

صرنا نلتقي كل يوم، أنا و. . . فينوس. نتناول الفطور تحت عريشة العَسَلَة، نشربُ الشاي في غرفة ضيوفها الصغيرة. كانت الفرصة مناسبةً لأكشف لها عن كل مواهبي، فما الفائدةُ من قراءتي لكل تلك الكتب، ومن ممارستي لمختلف الفنون، إذا لم أُظهر أفضلَ ما عندي في حضْرة حسناءٍ شابة؟

إنها امرأةٌ صغيرة فعلًا، لكن تأثيرها عليّ كبير جدًا. حاولتُ رسمَها اليوم، وأدركتُ بشكلٍ واضح أن الأزياء الحديثة لا تناسب وجهها الجوهرة أبدًا. في وجهها شيءٌ من الفنّ الروماني، لكنه أقربُ إلى التحف الإغريقية. أحيانًا يخطر لي أن أرسمها على شكل بسيخي[٢٨]، ومراتٍ على شكل عشتروت[٢٩]. وذلك حسب التعبير الذي يلمع في عينيها، إذا ما كان حالمًا سرّانيًّا، أو منهكًا برغبة عطشى. بينما هي تصرُّ على أنْ أرسم لها بورتريهًا عاديًّا.

يجب أن أقدّم لها هديةً من الفرو، فإذا لم يكن الفرو قد خُلِقَ من أجلها، فبِمَنْ يليقُ الفراءُ الملوكيّ الفاخر؟!

---

[٢٨] - بسيخي: من الأسطورة الإغريقية، فتاة بالغة الجمال، تغار منها فينوس فترسل إليها كيوبيد لكي يرميها بسهم، ويجعلها تقع في حبّ رجل بشع كالثور. لكن كيوبيد أحبّها لما رآها، فرمى نفسَه بسهمٍ ووقع في غرامها.

[٢٩] - عشتروت: ربة الحب والخصب والحرب عند الفينيقيين.

# (٣)

كنا معًا البارحة، وكنتُ أقرأ لها "المراثي الرومانية"، ثم ألقيتُ الكتاب جانبًا، وارتجلتُ لها بعضًا من الشعر. أسعدها ما قلت، والأهمُّ من ذلك أنها تتشرّب كلماتِ الغزل التي تسمعها، فيزداد جمالُها رونقًا.

كان المطر يضرب زجاج النافذة بإيقاع رتيب، والنار تقرقع في الموقد بحميميّة شتوية. أحسُّ معها وكأنني قد عدتُ إلى بيت أهلي، فقد تبدّدتْ كل مخاوفي السابقة منها. قبّلتُ يدها، فلم تمانع. ثم جلستُ على الأرض عند قدميها، وقرأتُ لها قصيدةً قصيرةً كتبتها لها:

{فينوس ذات الفراء}

ضَعيْ قدمَكِ فوق عبدكِ

يا امرأةً نصفُها من الجحيم، ونصفُها من الأحلام.

وسْطَ الظلال الداكنة الموحشة

يومضُ جسدُكِ الممشوقُ كالبرق.

وتابعتُ القراءة، كانت هذه المرة الأولى التي أتجاوز فيها المقطع الشعري الأول. وبناءً على طلبها، أعطيتُها القصيدة في المساء، وهي النسخة الوحيدة لديّ. والآن أثناء كتابتي لهذه اليوميات، لم أتذكّرْ من القصيدة غير مقطعها الأول. يتملّكني إحساسٌ غريب، لا أصدّق أنني وقعتُ في حبّ فاندا. متأكّد أنني في لقائي الأول معها، لم أشعر بصاعقةٍ عاطفية تضربني. لكنني بدأتُ تدريجيًّا أحسُّ بجمالها الإلهيّ الخارق يعصِفُ بي، ويلتفُّ حولي ناصبًا شراكه المُغرية

في كل مكان. ما يكبرُ في داخلي، ليس انجذابًا روحيًّا لها، بل شعورٌ بالخضوع الجسدي، ينمو ببطءٍ شديد، وهنا مكْمنُ خطورته.
أعاني من هذا الشعور يومًا بعد يوم، أما هي، هي، فنادرًا ما تبتسم.

# (٤)

من دون أيّ نيّة للتحرّش، قالتْ لي اليوم: "أنتَ تثير اهتمامي. معظمُ الرجال متشابهون وسخيفون، لا حيويّة فيهم ولا خيال عندهم. أما أنتَ ففي داخلك عمقٌ مثير وجدّية رزينة، وهذا يسعدني. سوف أتعلّم أنْ أحبك".

بعد توقُّف المطر، ذهبنا إلى المرج حيث يقف تمثال فينوس. كانت الأرض تتبخّرُ من حولنا، والسديمُ يتصاعد نحو السماء مثلَ غيماتٍ من بخور، وثمة قوسُ قزحٍ متكسّر بين أراجيح الهواء. كانت الأشجار تنفضُ عن أوراقها ما علِقَ بها من مطر، بينما تقفزُ العصافير من غصنٍ إلى غصن وهي تغرّد بسرور. كان الفضاءُ مُشْبعًا بالعطور والروائح النديّة. لم نستطع السير على المرج لأنه ما زال مبتلًّا، ويبدو مثل بركة ماءٍ عندما ينسكب ضوءُ الشمس عليه. أما ربة الحبّ، فتبدو وكأنها قد خرجتْ للتوّ من بين تموّجات الماء الرائقة مثل سطحِ مرآة، وثمة سربُ فراشاتٍ صغيرة يحوّمُ حول رأسها، ويلمعُ في ضوء الشمس، فيبدو عليها مثل إكليل من النور.

كانت فاندا تستمتع بجمال المنظر، ولأن كافة مقاعد الحديقة مبلّلة، وضعتْ ذراعها فوق كتفي لترتاح قليلًا. ثمة تعبٌ طفيف تغلغلَ في أعطافِ جسمها، كانت عيناها نصفَ مغلقتين، وأنفاسُها العذبة تلامس خدّي.

لا أعرف من أين أتيتُ بهذه الشجاعة، حقًّا لا أعرف، لكنني أمسكتُ يدها وسألتُ: "هل يمكن أنْ تحبّيني؟".

"لِمَ لا؟"، أجابتْ وهي تُلقي نظرتها الهادئة الرائقة على عيني، لكنْ ليس لوقتٍ طويل.

بعد دقيقة، جثوتُ على ركبتيَّ أمامها، ودفنتُ وجهي الملتهبَ في ثنايا ثوب الموصلين العطِر.

"لكنْ يا سيفرين! ليس هكذا..."

أمسكتُ قدمَها، وقبّلتُها بشغف.

"أنتَ تزدادُ سوءًا"، انتزعتْ نفسَها من بين ذراعيّ، وأسرعتْ عائدةً إل البيت، بينما بقيَ خُفّها الأنيق بين يديّ. أهو بشارةُ خيرٍ؟ أم نذيرُ شؤم؟!

# (٥)

لم أجرؤ طوال النهار على الاقتراب منها، وفي المساء كنتُ جالسًا تحت العريشة، عندما بزغَ رأسُها الأحمر وسْطَ خُضرة الشرفة، ونادتْني بشوق: "لماذا لا تصعد لعندي؟"

صعدتُ السلالم ركضًا، وقُبيل وصولي فقدتُ الجرأة من جديد. نقرتُ على الباب برقّة بالغة، لم تقلْ لي: تفضّلْ. لكنها فتحت الباب، وظلّتْ واقفةً عند العتبة: "أين هو الخفّ"؟

"إنه. . . عندي، لكن. . .أردتُ. . ."

"أحضرْهُ، ثم نشرب الشاي معًا ونتحدث".

كانت تحضّر الشاي حين عدت. وضعتُ الخفّ على الطاولة بلباقة، ثم وقفتُ في الزاوية مثل طفل ينتظر العقاب. لاحظتُ أن حاجبيها متّصلان ببعضهما بخطّ رفيع، بينما تطفو على شفتيها مسحةٌ من القسوة والسطوة تبهجُ قلبي.

فجأةً، من دون إنذار مسبق، انفجرتْ ضاحكةً: "إذًا، أنتَ تحبّني؟"

"نعم، وأعاني في حبّكِ أكثر مما تتصوّرين".

"تعاني؟"، ضحكتْ مجددًا.

شعرتُ بالخزي والمهانة والانكسار، لكن كلّ ذلك لم ينفعني في شيء.

"لماذا؟ أنا معجبةٌ بكَ من كل قلبي". أعطتْني يدها، ونظرتْ إليّ بلطفٍ ودود.

"وهل تقبلين أن تكوني زوجتي؟"

حدّقتْ فاندا في عيني، كيف أصِفُ نظرتها؟ في البداية كانت نظرة اندهاش، ثم تحوّلتْ إلى نظرة استهزاء.

"من أين أتيتَ بكل هذه الشجاعة دفعة واحدة؟"

"شجاعة؟!"

"نعم شجاعة، أنْ تطلب من امرأةٍ الزواج، ومني أنا بالذات". تناولت الخفّ من على الطاولة، ورفعتْه: "هل هذا ما قادكَ إليّ؟ دعِ المزاح جانبًا، هل ترغب حقًّا في الزواج مني؟"

"نعم".

" حسنًا سيفرين، هذا موضوع جدّي. أصدّق أنك تحبّني، وأنا أهتمّ لأمرك كذلك، والأكثر أهميةً هو أنّ كلًّا منا يرى الآخرَ مثيرًا للاهتمام، ولا خوفَ من أنْ نضجر من بعضها بعد فترة قصيرة. لكنْ كما تعلم، أنا امرأة متقلّبة الأهواء، ولهذا أنظر إلى الزواج بجدّية مطلقة. عندما أقطع عهدًا، يجب أنْ أكون قادرةً على الالتزام به. وأخشى أنْ أجرحكَ إذا كان جوابي: لا".

"أرجوكِ، كوني صريحةً معي".

"حسناً، بكلّ صدق، لا أظنّ أنني أقدرُ على حبّ رجلٍ لفترةٍ تزيد على. . .". أمالتْ رأسها وراحتْ تفكّر.

"سنة؟"

"وماذا تتوقّع؟ ربما شهر".

"حتى بالنسبة إليّ؟"

"بالنسبة إليك، ربما شهران".

"شهران!"، صرختُ.

"شهران. . . فترة طويلة جدًا".

"لقد تجاوزتِ عاداتِ العصور القديمة".

"هل ترى؟ لا يمكنك أن تحتمل الحقيقة".

جالتْ فاندا في أرجاء الغرفة، ثم توقفت قرب الموقد، مالتْ بذراعها فوق سقف الموقد، ونظرتْ إلي: "ما الذي يمكنني فعله لك؟"

"افعلي ما تشائين"، أجبتُ مستسلمًا: "افعلي كلّ ما يجلبُ لك السعادة".

"هذا غير معقول! في البداية كنت تريدني زوجة لك، والآن تقدّم نفسَكَ كلُعبةٍ أتسلّى بها؟"

"فاندا، أنا أحبك".

"الآن عدنا إلى نقطة البداية، أنت تحبني وتريدني زوجة لك، لكنني لا أريد الدخول في تجربة زواج جديدة، لأنني لا أضمن استمرار مشاعر كلّ منا تجاه الآخر".

"لكنْ ماذا لو قبلتُ بالمخاطرة معكِ؟"

"هذا يتوقّف على ما إذا كنتُ أنا راضيةً بالمخاطرة معك"، أكملتْ بهدوء: "يمكنني أنْ أتخيّل أنْ أكون مخلصةً لرجل واحد طوال حياتي، لكنْ يجب أنْ يكون رجلًا بكل معنى الكلمة، رجلًا يحكمُني، يخضِعُني بقوته، هل تفهم؟ لكنّ كلَّ رجل –أعرفُ هذا جيّدًا- عندما يُغرم بي، يصبح ضعيفًا وهشًّا ومضحكًا، فتَراهُ يُلقي نفسَه بين يديّ امرأة، ويركع على ركبتيهِ أمامها. الرجلُ الوحيد الذي يمكنني أنْ أحبّه على الدوام، هو الرجل الذي أركع أنا أمامه. لقد بدأتَ تعجبني حقًّا، لكنني ما زلتُ أختبرك".

جثوتُ عند قدميها.

"كُرمى للسماء! ها أنتَ قد ركعتَ فورًا". أضافتْ بسخريةٍ لاذعة: "هذه بداية موفّقة".

عندما نهضتُ، أكملتْ كلامها: "سوف أعطيكَ مهلة سنة، لكي تفوز بي، لكي تقنعني بأننا مناسبان لبعضنا بعضًا، وقادران على العيش سويًّا. إذا نجحتَ

فسوف أصبح زوجتك، وسأكون زوجةً –يا سيفرين- تلتزم بجميع واجباتها بدقةٍ وإخلاص. وخلال هذه السنة، سوف نعيش معًا كما لو أننا متزوّجان".

صعد الدمُ إلى رأسي.

وفي عينيها أيضًا، ثمة لهيبٌ يتوهّج...

"سوف نعيش معًا، نشترك في حياتنا اليومية، وبهذه الطريقة يمكننا أنْ نعرف إذا ما كنا ملائمين لبعضنا فعلًا. أضمنُ لكَ كلَّ حقوق الزوج، الحبيب، الصديق. هل أنتَ راضٍ؟"

"أعتقد، يجب عليّ أن أكون راضيًا".

"ليس الأمر واجبًا".

"إذًا، أريد أن أكون راضيًا".

"ممتاز، هكذا يتكلّم الرجال. خُذْ يدي...".

# (٦)

لمدة عشرة أيام، ترافقنا معًا ساعةً بساعة، ما عدا ساعات الليل. كان مسموحًا لي طوال النهار أنْ أنظر إلى عينيها، أمسك يديها، أستمع إلى صوتها، وأرافقها أينما ذهبت.

وكأنّ هذا الحبّ هاويةٌ لا قرارَ لها، أراني أهوي فيها أعمق وأعمق، ولا يمكنُ لأيّ شيءٍ إنقاذي منها.

بعد الظهيرة، كنا مُستلقينَ على المرج عند قدمي تمثال فينوس. جمعتُ بعض الأزهار وألقيتُها في حضنها، فقامتْ بصنع إكليل منها، وزيّنتْ به تمثال ربّتنا.

فجأةً، نظرتْ فاندا إليّ نظرةً غريبة، فاختلطتْ مشاعري، واشتلعتْ رغبةٌ في داخلي راحتْ تصعد إلى رأسي بشكلٍ مخيف. فقدتُ السيطرة على نفسي، ورميتُ ذراعيّ حولها وقبّلتُها. وهي -هي أيضًا- شدّتْني إليها حتى التصقَ صدرُها بصدري.

"هل هذا يضايقكِ؟" سألتُها.

"لا، أنا لا أتضايق من أيّ شيء عفوي. لكنني أخشى عليكَ من الذوبان".

"آهٍ... إنني أذوب وأتبخّر..."

"صديقي المسكين"، مشّطتْ شعري بأصابعها: "أرجو ألّا تكون معاناتكَ بسبب خطأٍ ارتكبتُه أنا؟"

"لا أبدًا. مع أنّ حبّي لكِ قد تجاوز حدود الجنون، لكنّ فكرة أنْ أخسركِ يومًا ما، تمزّقني ليلَ نهار".

"لكنكَ لم تملكني بعد". قالت فاندا وهي تنظر إليّ مجددًا، تلك النظرة النابضة بالحياة التي سبقَ أنْ حملتني بعيدًا. ثم نهضتْ، وبيديها الصغيرتين الشفافتين؛ وضعتْ إكليلًا من شقائق النعمان حول رأس فينوس الأبيض.

رميتُ ذراعيّ حول خصرها لا إراديًّا: "لا يمكنني العيش من دونك، يا لكِ من امرأة رائعة! صدّقيني، صدّقيني هذه المرة فقط، لأنني لا أغازلكِ الآن، ولا أحلم. أحسُّ من أعماق روحي بأنّ حياتي مرتبطةٌ بحياتكِ ارتباطًا لا فكاكَ منه. وإذا ما تركتني، فسوف أتحطّم، وأتناثر كالزجاج المكسور".

"من الصعب حدوث ذلك، لأنني أحبّك". وضعتْ يدها على خدي: "أيها الأحمق!"

"لكنكِ ستكونين لي وفق شروط معينة، بينما سأكون لكِ من دون أي شرط".

"هذا ليس موقفًا حكيمًا يا سيفرين". أجابتْ وكأنها تعيدنا إلى البداية: "ألَمْ تعرفني بعد؟ هل تعتقد أنكَ تعرفني بما فيه الكفاية؟ أنا طيّبة عندما أُعامَلُ بجدية وعقلانية، لكن عندما تسلِّم نفسَك لي كليًّا، أصبح امرأة متكبّرة".

"فلْتكوني كذلك، كوني متكبّرة، كوني مستبدّة". صرختُ فرحًا: "فقط كوني لي، لي، إلى الأبد".

جثوتُ عند قدميها، وعانقتُ ركبتيها.

"سوف تنتهي الأمور بشكلٍ سيّئ، يا صديقي".

"لن تنتهي الأمور أبدًا". أكملتُ منفعلًا، بل غاضبًا: "لا شيء غير الموت يمكنه أن يفرّق بيننا. إذا لم يكن بإمكانك أن تكوني لي على الدوام، إذًا أريد أن أكون عبدك، لكي أخدمك، وأعاني منك كل ألوان العذاب. لكنْ أرجوكِ لا تبعديني عنك".

"هدِّئْ من روعك". قالتْ وهي تميل فوقي وتقبّل جبيني: "إنني مغرمة بك حقًّا، لكن الطريق الذي تسلكُه لن يقودك إلى الفوز بي، والاحتفاظ بي".

"سوف أفعل أي شيء، أي شيء كان، أي شيء تريدين، لكيلا أخسرك. فقط هذا الشيء، هذه الفكرة... لا أستطيع تحمّلها".

"انهضْ".

أطعتُ أمرها.

"أنتَ شخص غريب، تريد أن أكون لك... مهما كان الثمن".

"نعم، مهما كان الثمن".

"لكن، ماذا سيكون الثمن مثلًا؟". فكّرتْ مليًّا، ولمعتْ فكرةٌ غامضةٌ في عينيها: "ماذا لو توقّفتُ عن حبك؟ ماذا لو أحببتُ رجلًا سواك؟"

ارتجف جسدي بأكمله. نظرتُ إليها، كانت تقف بثقةٍ وإباء، وعيناها تتوهّجان.

"هل ترى؟ إنّ مجرّد طرح الفكرة يرعبك". أضاءتْ ابتسامةٌ ساحرةٌ وجهها.

"أشعرُ برعبٍ فظيع، عندما أتخيّل أنّ المرأة التي أحبُّها، والتي بادلتْني الحبّ، قد تهبُ نفسَها إلى رجلٍ غيري. لكنْ هل عندي خيارٌ آخر؟ عندما أحبُّ امرأة كهذه إلى درجة الجنون، هل يمكنني أنْ أديرَ ظهري لها وأخسرَ كل شيء من أجل حفنةٍ من الكبرياء؟ ماذا أفعل؟ هل أطلقُ رصاصةً على رأسي؟ عندي نموذجان للمرأة؛ وإذا لم أستطع الحصول على المرأة النبيلة البسيطة التي تقاسمني حياتي بصدق وإخلاص؛ فلنْ أقبل بأنصاف الحلول. عندئذٍ أفضّلُ أنْ أكون خاضعًا لامرأة لا تعرف الفضيلة أو الإخلاص أو الرحمة. امرأة كهذه، بأنانيّتها وغرورها، تمثّل النموذج المثال. إذا لم يكنْ مقدّرًا لي أن أستمتع بنُعمياتِ الحبّ كاملةً، فأفضّل أن أتجرّع آلامه وبُرَحاءَه حتى الثمالة. أريدُ ممَّنْ

أحبّها أن تعاملني بسوء، وأن تخدعني، وكلما زادتْ قسوتُها ازداد عشقي لها. يا لهُ من نعيم!"

"هل فقدتَ عقلك؟"

"أحبكِ من أعماق روحي، وبكامل قواي العقلية. وجودكِ في حياتي هو أهمُّ ما في الوجود، ولا حياة لي من دونك. اختاري واحدًا من النموذجين، وافعلي بي ما تشائين، اجعليني زوجًا لك، أو عبدًا لك".

"حسنًا، إذًا"، قالتْ فاندا وهي تعقد حاجبيها الرفيعين: "بالنسبة إليّ، الأكثرُ تسليةً هو أنْ أضعَ رجُلًا يحبّني ويهتمُّ بي تحت سلطتي المطلقة، فعلى الأقلّ لن تعوزني التسلية. لقد كنتَ متهوّرًا جدًّا عندما تركتَ الخيار لي، وها أنذا أختار؛ أريدكَ عبدًا لي، سوف أجعل منكَ دميةً أتسلّى بها".

"افعلي أرجوكِ"، صرختُ وأنا أرتجفُ نصفَ خائفٍ نصفَ مسرور. "إذا كانت مؤسسةُ الزواج تقوم على المساواة والتوافق، فإنه من الصحيح القولُ إنّ العشق العظيم ينبع من التناقض. نحن متناقضان، تقريبًا عدوّان، ولذلك ثمة شيءٌ من الكراهية وشيءٌ من الخوف في أعماق حبّي لك. في علاقةٍ كهذه، يمكن لواحدٍ من الطرفين فقط أنْ يكون مطرقةً، فيكون الآخر سِنْدانًا، آملُ أن أكون السِنْدان. لا أكون سعيدًا عندما أنظر إلى المرأة التي أحبّها من فوق، يجب أن تكون هي مَنْ في الأعلى. أريد حبًّا إلى درجة العبادة، وهذا لا ينجحُ إلّا عندما تكون المحبوبةُ قاسيةً معي".

"لكنْ يا سيفرين!"، أجابتْ بشيءٍ من الحنق: "هل تصدّق أنه يمكنني تعذيبُ رجل يحبّني كما تحبّني أنت؟ وأنا أحبّه فوق ذلك؟"

"لمَ لا؟ طالما أنني سوف أعشقكِ أكثر. الحبُّ الحقيقي هو لِمَنْ يقفُ فوقنا، لامرأةٍ تُخضِعُنا بقوة جمالها وذكائها ومزاجها، وتنصّبُ نفسها طاغيةً علينا".

"إذًا، فإنّ ما ينفّرُ الآخرين، هو ما يجذبك؟"

"نعم، هذا هو الجانب الغريب في شخصيتي".

"ربما، في النهاية، لا يوجد شيءٌ غريبٌ أو فريدٌ في كلّ مشاعرنا. مثلًا، مَنْ منا لا يحبُّ الفراء الفاخر؟ كما أنّ كل شخصٍ يعرف ويحسُّ بالتقارب الوثيق بين الحبّ الجنسي والألم".

"لكنْ في حالتي، كل هذه العوامل تبلغُ ذروتها".

"في كلامٍ آخر؛ للعقل سلطةٌ طفيفة عليك، وأنتَ بالفطرةِ لطيفٌ ومُطيع وشهوانيّ".

"هل كان الشهداء[٣٠] لطيفين وشهوانيّين أيضًا؟"

"الشهداء؟"

"على العكس، لقد كانوا مرهفي الأحاسيس، يجدون المتعة في المعاناة. ولقد سَعَوا وراءَ العذاب المرعب، وحتى الموت نفسه، مثلما يسعى الآخرون وراء السعادة. ومثلما كانوا هُمْ، هكذا أنا: مرهف الأحاسيس.

"لكنْ حذارِ -إذا كنتَ كذلك- من أن تصبحَ شهيدًا للحب، شهيدًا لامرأة".

كنا جالسين في شرفة فاندا الصغيرة، في ليلة صيفية نشوى بالعبير. فوقنا سقفٌ مضاعف، الأول هو سقف النباتات المتسلّقة الأخضر، والثاني قبّة السماء المرصّعة بنجومٍ لا تحصى. جالسًا على كرسيّ القدمين بجوار قدميها، أحدّثها عن طفولتي.

"حتى منذ ذلك الزمن، كانت هذه النزعات الغريبة باديةً عليكَ بوضوح؟"

---

٣٠ - المقصود بالشهداء هم آباء الكنيسة، المسيحيّون الأوائل الذين فضّلوا التعذيب حتى الموت على ترك معتقدهم.

"بالطبع، لا أتذكّر نفسي إلا هكذا. حتى في المهد –كما أخبرتْني أمي- كنتُ مرهفَ الأحاسيس، إذ رفضتُ ثدي مرضعتي، ولهذا نشأتُ على حليب الماعز. أما كطفلٍ صغير، فكنتُ خجولًا بشكلٍ غريب أمام النساء، وهذا ما لا يمكن تفسيره إلا كتعبيرٍ عن رغبةٍ شديدةٍ في هنّ. كنتُ أشعر بالكبتِ تحت قناطر الكنيسة الرمادية وظلامها الغامض. وكنتُ أخافُ من المذابح المضاءة، ومن أيقونات القدّيسين. أذكر أنني كنتُ أتسلّل خلسةً، كمَنْ يمارسُ لذّةً سرّية، إلى تمثال فينوس الجصّي المنتصب في مكتب والدي. أجثو على ركبتيَّ أمام التمثال، وأرفع له الصلوات التي تعلّمتُها: {أبانا الذي في السماوات}، و {السلام عليكِ يا مريم}، و {أومنُ بالله، الأب القادر على كل شيء}. في إحدى الليالي، نهضتُ من سريري لكي أزورها، كان منجلُ القمر دليلي إليها، ونبراسي الذي أراني الربة تتوهّج كالنار الزرقاء. سجدتُ أمامها وقبّلتُ قدميها الباردتين، مقلّدًا الفلاحين الذين رأيتُهم يقبّلون قدميّ تمثال المسيح.

تملّكتْني رغبةٌ لا تقاوم.

نهضتُ وعانقتُ الجسد الجميل البارد، قبّلتُ الشفتين الباردتين. سَرَتْ قشعريرةٌ غامضةٌ في عظامي، فهربتُ. وفي يوم آخر، ظهرتِ الربةُ في منامي، كانتْ واقفةً قرب سريري، توبّخني وهي ترفعُ يدها إلى الأعلى.

أدخلوني إلى المدرسة في سنّ مبكّرة، ثم دخلتُ المدرسة الثانوية. كانت روحي تتعلّق بكلّ شيءٍ يُوحي إليّ بأنّ العودة إلى العالم القديم أمرٌ ممكن. وخلال فترة وجيزةٍ، صرتُ على درايةٍ جيّدةٍ بآلهة الإغريق، أكثرَ من معرفتي بالديانة المسيحية. كنتُ مع باريس عندما أعطى التفاحة المشؤومة إلى فينوس[٣١]،

---

[٣١] - تحدّثْنا الإلياذة عن تفاحة ذهبيّة كُتبَ عليها "للأجمل"، لكنّ فينوس وهيرا ومنيرفا اختلفنَ على مَنْ هي الأجملُ بينهنَّ والأجدرُ بالتفاحة، فقرّرنَ الاحتكام إلى الشابّ الوسيم باريس، ابن بريام ملك

رأيتُ طروادة تحترق بأمّ عينيّ، ورافقتُ أوليسيس[٣٢] في أسفاره. لقد تشرّبتْ روحي الأنماط الأولية كلَّها بعذوبة، ونتيجةً لذلك، في الوقت الذي كان فيه معظمُ الصبيان وقحين وبذيئين، كنتُ أُبدي اشمئزازًا شديدًا لكلِّ ما هو رديءٌ وهابط وسُوقيّ.

بالنسبة إليّ، وفي بداية تشكّل وعيي، كنتُ أرى حبَّ النساء شيئًا دونيًّا وقبيحًا، لأنهُ بدا لي أكثرَ الأشياء شُيُوعًا وابتذالًا. تجنّبتُ جميع أشكال التواصل مع الجنس اللطيف، وباختصار؛ كنتُ مرهف الأحاسيس إلى حدّ الجنون.

أذكرُ في الرابعة عشرة من عمري، كانتْ لدينا خادمةٌ جميلة، صبيّةٌ جذّابة في أوج التفتُّح والإزهار. مرةً كنتُ جالسًا أقرأُ لـ تاسيتس[٣٣]، وأزدادُ حماسًا وإعجابًا بمناقب الجرمان القدماء، بينما كانت هي تكنسُ غرفتي. فجأةً توقفتْ عن العمل، مالتْ إليّ وهي تستند على المكنسة، وألصقتْ شفتينِ حُلوتينِ ممتلئتينِ رائعتين على شفتيّ. كانت قُبلة هذه القطّة المتيّمة الصغيرة أشبَهَ بزلزالٍ هزَّ كياني، لكنني رفعتُ كتاب "جرمانيا" بيننا، مثل درعٍ يحميني من الغواية، وغادرتُ الغرفة ساخطًا".

أطلقتْ فاندا ضحكةً مجلجلة: "من الصعب جدًّا أنْ يُصادف المرءُ رجلًا مثلك! لكنْ أكملْ".

"هنالك حادثةٌ أخرى من تلك الفترة، لا يمكنني نسيانها. كانت الكونتيسة سوبول، وهي إحدى عمّاتي البعيدات، في زيارةٍ إلى بيتنا. وهي سيّدة فاتنة جليلة

---

طروادة، ليختارَ من هي الأجمل. وهنا تعِدُ فينوس باريسَ بأنّ تزوّجَه بأجمل فتاة على وجه الأرض إذا ما جاء الحكم لصالحها، وفعلًا يقوم باريس بإعطاء التفاحة لفينوس، فتُهيّئ لهُ فينوس الظروفَ للقاء هيلين التي يختطفُها، ويتسبّب بنشوب حرب طروادة.

٣٢ - أوليسيس: هو الاسم الروماني لـ أوديس الإغريقي، بطل "الأوديسة".

٣٣ - بوبليوس كونيليوس تاسيس (٥٥-١٢٠): مؤرخ روماني، من أعماله "جرمانيا" و"التواريخ".

ذات ابتسامة أخّاذة. على الرغم من ذلك كنتُ أكرهها، لأنها تحظى باحترامٍ وتبجيلٍ من العائلة لم تحظَ بمثله حتى ميسالينا[٣٤]، وكنتُ أتصرّف معها بأقصى ما أستطيعُ من الخبث والوقاحة والبذاءة.

ذات يوم، كان والداي مسافرين إلى العاصمة، فقرّرتْ عمتي أنْ تنتقم لنفسها وتعاقبني في ظلّ غيابهما. دخلتْ غرفتي بصورةٍ مفاجئة، وهي تلبس معطفها الفرو، تتبعُها الطاهيةُ وخادمةُ المطبخ، والخادمةُ القطّةُ التي سبقَ أنْ رفضتُها. ومن دون أيّ كلامٍ قُمْنَ بتطويقي، وبربطِ يديَّ وقدميّ رغمًا عن مقاومتي الشديدة. ثم ابتسمتْ عمتي ابتسامتها الماكرة، شمَّرتْ عن ساعديها، وراحتْ تضربني بسوطٍ غليظ. لقد جلَدتْني بقسوةٍ حتى نفَرَتِ الدماءُ من تحت جلدي، وهذا ما أدّى في النهاية إلى ترويض روحي الحَرُون، فصرختُ وبكيتُ وتوسّلتُ الرحمة. بعد ذلك فكّتْ وثاقي، فجثوتُ أمامها وقبّلتُ يديها، وشكرتُها على العقاب.

هل فهمتِ الآن ما هو الأحمقُ المرهفُ الأحاسيس؟ تحت سِيَاطِ امرأةٍ جميلة، تفتّحتْ شهواتي البكْر، وأدركتُ كُنْهَ النساء. لقد بدَتْ لي وهي ملتفّة بمعطفها الفرو مثل ملكةٍ غاضبة. ومنذ ذلك اليوم، صارتْ عمّتي أكثر امرأةٍ أشتهيها على وجه الأرض. إنّ تزمُّتي الأخلاقيّ وحيائي الشديد أمام النساء، لم يكنْ سوى رغبةٍ متلهّفةٍ إلى الجمال. وفي تخيُّلاتي، صارت الشهوةُ عقيدةً وديناً، فأخذتُ عهدًا على نفسي بألّا أُبدِّد هذه القيمة المقدّسة على شخصٍ عاديّ، وأنْ أحتفظ بها للمرأة المثال. وإذا أمكن الأمر؛ لربّة الحبّ ذاتها.

[٣٤] - فاليرا ميسالينا (١٧-٤٨): الزوجة الثالثة للإمبراطور الروماني كلوديوس الأول.

دخلتُ الجامعةَ في سنٍّ يافعة، وكانت الجامعة في العاصمة حيثُ تقيم عمّتي. كانت غرفتي في تلك الأيام، مثل غرفة الدكتور فوستس[٣٥]، فوضى عارمة، وخزائن ضخمة مكتظّة بالكتب التي أشتريها بثمنٍ بخسٍ من بائع يهودي. كانت في الغرفة مجسّماتٌ للكرة الأرضية وأطالس، دَوَارق وقوارير، خرائط للسماء، هياكل عظمية لحيوانات، جماجم، تماثيل نصفيّة لمشاهير وعظماء. كان الجلُوس في الغرفة يعطيك الإحساسَ بأنّ مفيستوفيليس[٣٦] قد يظهر في أي لحظةٍ من وراء الكتب. درستُ كلّ شيء بشكل عشوائي، من دون نظام أو ترتيب: الكيمياء، الخيمياء، التاريخ، الفلك، الفلسفة، القانون، التشريح، والأدب. قرأتُ هوميروس، فرجيل، أوشان، شيلر، غوته، شكسبير، سرفانتس، فولتير، موليير، القرآن، "الكون"، ومذكّرات كازانوفا[٣٧]. ازدادتْ حيرتي يومًا بعد يوم، وازداد خيالي جُمُوحًا وأحاسيسي رهافةً. وطوال الوقت، كانت المرأة الجميلة المثال ترفرف في خيالي. وبين فينةٍ وأخرى، تتجلّى أمامي مثل الرؤيا بين أكداس الكتب والهياكل العظمية، مستلقيةً على سريرٍ من الورود، ومحاطةً بعددٍ من الكيوبيدات. أحيانًا كنتُ أراها بزيّ آلهةِ الأولمب،

---

[٣٥] - الدكتور فوستس: هو يوهان غيورغ فاوست (١٤٨٠-١٥٤١) طبيب ألماني وعالم فلك ومنجّم وساحر وخيميائي. تحوّلتْ شخصيّته التاريخية إلى شخصيّة أدبية لعبتْ دورَ البطولة في العديد من الأعمال، كان أشهرها مسرحية "التاريخ المأساوي للدكتور فوستس" لـ كريستوفر مارلو، ثم مسرحية "فاوست" لـ غوته، ورواية "الدكتور فوستس" لـ توماس مان.

[٣٦] - مفيستوفيليس: هو الشيطان في مسرحية "فاوست" لـ غوته، حيث يعقد فاوست صفقةً مع الشيطان، يبيع فيها روحَه مقابل الحصول على المعرفة الكاملة.

[٣٧] - فرجيل (١٩-٧٠ ق.م): الشاعر الروماني الكبير، صاحب ملحمة "الإنياذة".

- أوشان: تُنسَب له العديد من القصائد الملحميّة التي تمثّل الثقافة الشعبية الأسكتلندية. لا تعرف الفترة التي عاش فيها، لكنها على الأرجح أواخر العصور الوسطى.

- الكون: كتاب من خمسة أجزاء، وضعه عالم الطبيعيّات الألماني ألكسندر فون هومبولت (١٧٦٩-١٨٥٩).

- جاكومو كازانوفا (١٧٢٥-١٧٩٨): شاعر وكاتب إيطالي، عُرف بمذكّراته "قصة حياتي" التي يعرض فيها مغامراته العديدة مع النساء.

وبوجهٍ أبيض قاسي الملامح، وكأنه وجهُ تمثال فينوس الجصّي. ومرّاتٍ أراها بضفائر بنّيةٍ وعينين زرقاوين، وبمعطف عمّتي المخمليّ الأحمر المزيّن الحواشي بالفراء.

ذات يوم، وبعدما تجلَّتْ أمامي -وسطَ سديمٍ ذهبيّ- ابتسامتُها العذبة، ذهبتُ لزيارة الكونتيسة سوبول، فاستقبلتْني بحفاوةٍ وحرارة. قبّلتْني قُبلة الاستقبال، فاشتعلتْ حواسّي. كانت في حدود الأربعين من العمر، لكنها مثل جميع النساء المحافظِات في العالم، يحافظنَ على ألَقِ الشباب. كانت ترتدي معطفًا مزيّنًا بالفراء، لكنه من المخمل الأخضر هذه المرة، وحواشيه من فرو السَّمُّور. لم ألمحْ على وجهها ذاك التجهُّم الذي أحببْتُه من قبل، لكني لمحتُ مسحةً من القسوة، جعلتْني أعشقها أكثر. إنها أوّلُ امرأةٍ تكتشف رهافةَ أحاسيسي، وبراءتي الحمقاء، وكانت تبتهجُ لرؤيتي سعيدًا. وفي الحقيقة، كنتُ فرِحًا ونشوانَ مثل إلهٍ شابّ. آهٍ لو كان بإمكاني أنْ أجثو على ركبتيّ أمامها، وأقبّل يديها اليدين اللتين أذاقتاني طعمَ السوط! يا لَهما من يدين مباركتين، رائعتي الجمال، مُكتنزتين وناعمتين وبيضاوين، فيهما غمّازاتٌ ساحرة عند منبت الأصابع! ربما كنتُ مغرمًا بيديها فقط. أمسكتُ بهما، لعبتُ بهما، تركتُهما تغرقان وتطفوانِ في أمواج الفرو الداكن. رفعتُهما أمام الضوء، وما كانتْ عيناي تشبعانِ منهما".

نظرتْ فاندا لا إراديًّا إلى يديها، انتبهتُ إلى ذلك، فابتسمتْ.

"من الطريقة التي انتصرَ فيها مرهفُ الأحاسيس في داخلي، ومنذ ذلك الوقت، ترينَ بأنني كنتُ مغرمًا فقط بضربات السوط القاسية التي تلقّيتها من عمّتي. بعد قرابة عامين، صرتُ أتودّد إلى ممثّلة مسرحيّة أبهرني أسلوبُها في التمثيل، وخلال فترةٍ وجيزةٍ وقعتُ في غرامها. كانت تتصرّف أمامي كامرأةٍ شريفة

محترمة لا غبارَ عليها، لكنها في نهاية المطاف، خانتْني مع ثريّ يهوديّ. هل ترين؟ لأنني تعرّضتُ للخيانةِ والبيع من قِبَل امرأةٍ تدّعي الالتزام بالأخلاق الفاضلة، وبالمثاليّة المطلقة، أكره المبادئ الأخلاقيّة والروحانية، وأراها خياليّة. أريد امرأةً صادقةً إلى درجةِ أنْ تقول لي: أنا مدام بومبادور، أنا لوكريسيا بورجيا[٣٨]، وسوف أعشقها حتى العبادة".

قامتْ فاندا وفتحت النافذة: "لديكَ أسلوبٌ عجيب في تحفيز خيال الآخر، واستثارة أعصابه، وتسريع نبضاتِ قلبه. تضعُ إكليلَ غارٍ على رأس الخطيئة، بشرطِ أنْ تكون صادقة. وامرأتُكَ المثال؛ مومسٌ جريئة من بنات الجنّ. أنتَ من الرجال الذين يُفسدون أخلاق المرأة، حتى آخر ذرّةٍ منها".

---

[٣٨] - مدام دي بومبادور (١٧٢١-١٧٦٤): سيّدة أرستقراطية ثريّة ومثقفة، افتتحتْ صالونًا ثقافيًّا في باريس، واجتذبتْ إليه أهمّ الفنانين والمفكّرين في عصرها. ثم أصبحتْ عشيقة الملك لويس الخامس عشر، وقد لعبتْ دورًا كبيرًا في الحياة السياسيّة والثقافية.

- لوكريسيا بورجيا (١٤٨٠-١٥١٩): هي الابنة غير الشرعية للبابا ألكسندر السادس، اشتُهرتْ كامرأة فاتنة ومثيرة، تزوّجتْ ثلاث مرات، واتخذتْ لنفسها عددًا كبيرًا من العشاق الذين نهبَتْ أموالهم، وقتلتْ بعضهم بالسمّ، وكانت تتحكّم بالسياسة والكنيسة في روما.

# (٧)

عندما دقّتْ ساعةُ منتصف الليل، سمعتُ نقْرًا خفيفًا على نافذتي، نهضتُ من السرير وفتحتُ النافذة، فانشدَهْتُ! من دون أيّ حركة، ومثلَ تمثالٍ مهيب، كانت فينوس ذات الفراء واقفةً خلف نافذتي.

"لقد أزعجتَني بقصَصك، أتقلّبُ في السرير ولا أستطيع النوم. تعال الآن، تعال ونَمْ عندي".

"دقيقة واحدة فقط".

دخلتُ غرفة فاندا، كانت جالسةً قرب الموقد المشتعل.

"الخريف على الأبواب، ولقد صار الليل باردًا حقًّا. أخشى أنْ يضايقكَ هذا، لكنني سأبقى ملتفّةً بالفراء إلى أنْ تصبح درجةُ حرارة الغرفة مقبولة".

"لا، لا يُضايقني –هل تمزحين- أبدًا"، رميتُ ذراعي حولها وقبّلتها.

"أعرف ذلك، لكنْ لِمَ كلُّ هذا الولَع بالفراء؟"

"ولدتُ هكذا، وتعلّقتُ بالفراء مُذْ كنتُ طفلًا. بالإضافة إلى أنّ للفراء تأثيرًا مثيرًا على الأذواق الرفيعة، وهذا يعود إلى القوانين الطبيعية والعامة معًا. فهنالك مُحفزّاتٌ للجسدِ تجعله يتخدّر ويرتعش، ولا يمكن لأحد الفرار منها. لقد كشفَ العلم الحديث عن علاقةٍ وثيقة بين الكهرباء والحرارة، وعلى كل حال، فإنّ تأثيراتهما على أعضاء الإنسان متّصلة. المناطق الحارّة تنجبُ شخصيّاتٍ أكثر شهوانيّة، فالجوّ الحارّ يثير الدوافع، وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى الكهرباء. ولهذا السبب، فإنّ لوجودِ القطط تأثيرًا سحريًّا على الأشخاص ذوي الذكاء الحادّ. ولهذا كانتْ ربّاتُ الجمالِ هذه، ذواتُ الأذيال

الطويلة، هذه الرائعات، هذه البطّاريات الكهربائية القادحة للشَّرَر؛ الحيوانَ المفضَّل عند النبيّ محمّد، الكاردينال ريشيليو، كربيون، روسُّو، وفيلاند[٣٩].

"إذًا، فإنّ المرأة الملتحفةَ بالفراء. . . ليستْ أكثر من قطةٍ كبيرة؟ أو بطاريةٍ كهربائية متضخّمة؟!"

"من دون شكّ، هذا تفسيري للمعنى الرمزي الذي اكتسبَهُ الفراء، وارتباطه بالقوة والجمال. في العصور السالفة، استخدمه الملوكُ والنبلاء وأصحابُ السلطة والنفوذ في أزيائهم، وبهذا المعنى تمامًا. واستخدمه الرسّامون الكبار كدلالةٍ على الجمال المُلوكيّ، فالقالَبُ الأجمل الذي اختاره رافائيل لعشيقته فورنارينا[٤٠]، وتيتيان لجسدِ حبيبته الورديّ، هو الفراء الداكن".

"شكرًا لهذه المحاضرة التعليمية عن الحبّ. لكنكَ لم تخبرني بكل شيء، لديكَ ارتباط شديد الخصوصية بالفراء".

"في الحقيقة، أخبرتُكِ مرارًا أنّ للألم جاذبيةً غريبةً عليّ، لا شيء يثير شغفي أكثر من المرأة الجميلة القاسية الطاغية، وخصوصًا الخائنة. ولا أستطيعُ

---

٣٩ - الكاردينال ريشيليو (١٥٨٥-١٦٤٢): رجل دين ورجل دولة فرنسي، كان وزيرًا، ثم أصبح كاردينالًا، ثم رئيس وزراء في عهد لويس الثالث عشر، ويعتبر أول رئيس وزراء في التاريخ.

- كربيون: لعلّه يقصد الكاتب المسرحي الفرنسي بروسبير جوليو دي كربيون (١٦٧٤-١٧٦٢)، أو نجله الكاتب المسرحي كلود بروسبير جوليو دي كربيون (١٧٠٧-١٧٧٧).

- جان جاك روسُّو (١٧١٢-١٧٧٨): الأديب والفيلسوف الفرنسي، من أعماله: "إميل" و"العقد الاجتماعي".

- كريستوف مارتن فيلاند (١٧٣٣-١٨١٣): شاعر وكاتب ألماني، اشتُهر بترجمة الأدب الإغريقي ومسرحيات شكسبير إلى الألمانية، ومن أعماله رواية "أغاتون".

٤٠ - رافائيل (١٤٨٣-١٥٢٠): من أهمّ رسّامي إيطاليا في عصر النهضة، من أعماله "مدرسة أثينا" و"زواج السيدة العذراء" و"القديس جاورجيوس والتنين".

اعتبارَ هذه المرأة، هذه المثال، نابعةً من جماليّة القبح. إنها روحُ نيرون[٤١] في جسد فريني[٤٢]، وفوق ذلك الفراء".

"أفهمُكَ، فالفراءُ يُعطي سطوةً للمرأة، وطابعًا مهيبًا".

"ليس هذا فحسب، تعرفين أنني مرهف الأحاسيس، وبالنسبة إليّ، فإنّ كل شيء يعود بجذوره إلى مملكة الخيال، ومنها يستقي الماء والغذاء. منذ الطفولة كانت حساسيّتي عالية، وفي حدود العاشرة من عمري وقعتْ حكاياتُ الشهداء البطوليّة بين يديّ. أذكر أنني كنتُ أقرؤها مرتعبًا، لكنه رعبٌ ممزوجٌ بالبهجة. أذكر كيف كانت أجسادُهم تنحلُ في السجون، وكيف كانوا يُسَجَّون فوق المشواة، وتُثقَّبُ أعضاؤهم بالنِّصَال. يُغْلَون بالقَطْران، ويُرمَونَ للحيوانات المفترسة. يُسَمَّرُونَ على الصُلْبان، ويتعرّضون لأشنع صنوف التعذيب برضًا وحبُور. بعد ذلكَ، صرتُ أرى المعاناة ومكابدة العذاب الأليم سعادةً باذخة، خاصةً عندما تمارسُ الاضطهادَ امرأةٌ فاتنة. منذ تفتُّح وعيِيْ، كنتُ أرى كلَّ ما هو شِعريٌّ وشيطانيّ متركّزًا في المرأة. وقد حوّلتُ هذه الفكرة إلى مبدأ وعقيدة، من دون أيّ مبالغة.

أحسَسْتُ أنّ هنالك شيئًا مقدّسًا في الجنس، في الحقيقة هو الشيء الوحيد المقدّس. رأيتُ في المرأةِ وفي جمالها شيئًا إلهيًّا، لأنّ أكثرَ الوظائف أهميةً في هذا الوجود -بقاء الأنواع- هي وظيفتُها. بالنسبة إليّ تمثّلُ المرأةُ تجسيدًا للطبيعة،

---

[٤١] - نيرون (٣٧-٦٨): خامس أباطرة الإمبراطورية الرومانية، عُرف حكمُه بالقمع والبطش والدموية، اشتُهر بأنه قام بإحراق روما عام ٦٤ م.

[٤٢] - فريني: مومس إغريقية من القرن الرابع قبل الميلاد، ممّن عُرفنَ بـ "نساء الهيتايرا". حُوكمتْ بتهمة الإلحاد، فدافع عنها أحد زبائنها، وهو الخطيب الأثيني هيبريدس الذي استخدم كل مهاراته اللغوية حتى أثبت براءتها.

إنها إيزيس[٤٣]، وقد كان الرجلُ سادنًا لها، وعبدًا لها. إنها قاسيةٌ مثل الطبيعة نفسها، فهي ترمي جانبًا أيًّا كانَ ممَّنْ خدموا أغراضها، حينما لا تعودُ بحاجة إليهم. وكانت قسوتُها في عيون الرجل -حتى لو بلغت القتل- متعةً شهيّة.

سبق أنْ حسَدتُ الملك غونثر الذي قيّدتْهُ الملكة برونهيلد العظيمة في ليلة العرس[٤٤]. والشاعر الجوّال الذي خاطتْ له سيّدتُهُ المزاجية ثوبًا من جلد الذئاب، لكي تطارده الذئاب وتنهشَهُ. حسدتُ الأمير ستيراد الذي أوقعتْهُ الأمازونةُ شاركا في فخّ نصبتْه له، في تلك الغابة قرب براغ[٤٥]. ثم حملتْهُ إلى قلعة "ديفاين"، وبعد أنْ متَّعتْ نفسَها به قليلًا، قطَّعتْ أوصالَهُ وهو مُسجّىً على المِخْلَعة".

"مقرف!"، صاحتْ فاندا: "أتمنّى أنْ تقع بين يديّ امرأةٍ من ذاك الجنس المتوحّش، أنْ تلبسَ جلدَ الذئب، أنْ تمزَّقَ بين أنياب الكلاب، أو فوق أخشاب المِخْلَعة. . . لعلّكَ تنسى موهبتكَ في التخيُّل".

"هل تظنّين أني سأنساها؟ لا أتوقّع ذلك".

"هل فقدتَ عقلك؟"

"ربما، لكنْ دعيني أكمل. كان لديّ شغفٌ كبير بقراءة القصص التي تصفُ أشنعَ ضروب القسوة، وأحببتُ على وجه الخصوص أنْ أتأمَّل الصور واللوحات التي تُصوِّر ذلك. كلُّ الطغاةِ الدمويين الذين استولوا على العروش، كلُّ المحقّقين الذين قاموا بتعذيب الهراطقة، وإحراقهم، وجزّ رقابهم في

---

٤٣ - إيزيس: ربة القمر والأمومة عند المصريين القدماء.

٤٤ - الملك غونثر: هو ملك بورغندي (مقاطعة في فرنسا)، يُقال إنه عاش في القرن الخامس، وقد رويَ عنه العديد من الحكايات البطولية (لِجَنْدات).

٤٥ - ستيراد وشاركا: الشخصيتان الرئيستان في أوبرا "موطني" (Ma Vlast) التي ألّفها الموسيقار التشيكي بيدريخ سميتانا (١٨٢٤-١٨٨٤).

محاكم التفتيش. كلُّ النساء اللواتي سُجِّلن في صفحات التاريخ كجميلاتٍ وشهوانيّاتٍ وعنيفات، نساء مثل ليبوشيا، لوكريسيا بورجيا، آنييس المجرية، الملكة مارغريت، إيزابو البافارية، السلطانة روكسلانا، وملكات روسيا في القرن الأخير[٤٦]. جميع أولئك رأيتُهم متّشحين الفراء، أو يرفلُون بأثوابٍ مزيّنة به".

"هكذا إذًا، يثيرُ الفرو تخيّلاتٍ غريبةً في ذهنك". قالتْ فاندا وهي تشدُّ الفروة على جسدها بدلالٍ مثير، فبدا صدرُها وكتفاها أكثر بياضًا وألقًا: "وبمَ تشعر الآن؟ بأنكَ نصفُ ممزّقٍ فوق المخلعة؟"

ألقتْ عينيها الخضراوين الواخزتين على عينيّ، قرأتُ فيهما علاماتِ الرضا الماكر. استسلمتُ للرغبة، فرميتُ بنفسي أمامها، وطوّقتُها بذراعيّ.

"نعم، لقد أيقظتِ في داخلي حلمي الأغلى! نعم، يكفيه نومًا".

"وما هو هذا الحلم؟"، وضعتْ يدها على عنقي.

كنتُ ممتلئًا بنشوةِ سُكْرٍ رائعة، تحت دفء يدها الناعمة وعطفها عليّ. أحسَسْتُ وكأنها تضمُّني بين أجفانها. "أنْ أكون عبدًا لامرأة، لامرأةٍ فاتنة، لامرأةٍ أعشقها وأعبدها..."

"لامرأةٍ... تعذّبكَ... أيضًا؟". قاطعتْ فاندا ضاحكةً.

---

٤٦ - آنييس المجرية (١٢٨١-١٣٦٤): ابنة ألبرت الأول ملك ألمانيا، تزوّجتْ من أندرو الثالث ملك المجر، ثم صارت ملكة على المجر بعد وفاته.

- الملكة مارغريت (١٥٥٣-١٦١٥): زوجة هنري الرابع ملك فرنسا.
- إيزابو البافارية (١٣٨٥-١٤٢٢): زوجة شارل السادس ملك فرنسا.
- السلطانة روكسلانا (١٥٠٠-١٥٥٨): زوجة السلطان العثماني سليمان القانوني ووالدة السلطان سليم الثاني. تُعرف بأصولها الأوكرانية، حيث تعرّضتْ للسبي في إحدى المعارك ثم بيعَتْ جاريةً للسلطان سليمان. تُتّهم بأنها وراء مؤامرة إعدام الصدر الأعظم ابراهيم باشا، وإعدام الابن الأكبر للسلطان سليمان وهو مصطفى، وذلك لكي تفسح المجال لتوريث ابنها سليم.

"نعم، لامرأةٍ تقيّدني وتجلِدني، تسحقني تحت قدميها، ثم تهبُ نفسها لرجلٍ آخر".

"وتكون امرأةً تملكُ من الفجور ما يأخذُها إلى الأبعد، فتجعل منكَ هديةً تقدّمها إلى خصمكَ المنتصر. وبينما أنتَ تموت من الغيرة والحسد، تجمعُكَ به وجهًا لوجه، وتضعكَ تحت رحمته كليًّا. لمَ لا؟ يبدو أن المشهد الأخير لم يعجبكَ كثيرًا؟"

نظرتُ إلى فاندا مرتعبًا: "هذا أكثرُ مما أحلمُ به!"

"نعم، نحن النساء مبدعات. احذرْ، عندما تجدُ فتاة أحلامك، فمِنَ الوارد جدًا أنْ تعاملكَ بقسوةٍ أشدّ مما تتخيّل".

"أخشى أنني قد وجدتُها فعلًا"، صرختُ وأنا أحرقُ وجهي الملتهب في حضنها.

"ليس أنا؟!". صاحتْ فاندا، ورمت الفروةَ على الأرض، ثم راحت تدورُ في الغرفة وهي تضحك. كانت ما تزال تضحك عندما غادرتُ الغرفة، وكذلك حين نزلتُ السلالم. ثم وقفتُ في الحديقة لكي أتأمّل اللا شيء، وما زلتُ أسمعُ دويَّ ضحكتها نازلًا من السماء.

# (٨)

"هل تظنُّ أنني أجسّدُ مثالكَ الأعلى؟"، سألتْني فاندا بخبث حين التقينا اليوم في الحديقة.

في البداية لم أجد جوابًا، كانت أكثرُ المشاعر تناقضًا تتصارعُ في داخلي. جلسَتْ على أحد المقاعد الحجرية، وراحتْ تلاعب إحدى الأزهار: "ماذا؟ هل أنا هي؟"

انحنيتُ أمامها وأمسكتُ يدها: "مرةً أخرى، أتوسّل إليكِ أنْ تصبحي زوجتي، زوجتي الحقيقية والشرعية. وإذا لم يكن بمقدورك ذلك، كوني تجسيدًا لمثالي الأعلى، كما هو بالضبط، من دون أيّ تحفّظ أو رأفة".

"تعرف أنني سأكون مستعدةً عند نهاية السنة، بأن أعطيكَ يدي، في حال أثبتَّ لي أنك الرجل الذي أبحث عنه". أجابتْ فاندا بجدية تامة: "لكنْ أظنُّ أنكَ ستكون ممتنًّا لي أكثر، إذا ما جسّدتُ تخيُّلاتكَ بشكلٍ واقعي. حسنًا، أيهما الأفضل؟"

"أومنُ أنّ كلّ ما تخيّلتُه وحلمتُ به يتجلّى في شخصيّتكِ".

"أنت مخطئ".

"أعتقدُ أنك سوف تستمتعين برجلٍ تضعينه تحت سلطتك المطلقة، وتُذيقينه ألوان العذاب".

"لا... لا... أو... ربما..."، ثم استغرقتْ في التفكير وقالت: "لم أعدْ أفهم نفسي. لكن يجب أنْ أعترف لكَ بشيء، لقد أفسدتَ خيالي وألهبتَ جسدي، وبدأتُ أحبُّ الأشياء التي تتحدث عنها. الحماسةُ التي تتكلّم بها عن مدام بومبادور،

كاثرين الثانية، وغيرهنّ من النساء القاسيات الأنانيّات العابثات، تحملُني إلى البعيد وتنعشُ روحي. إنها تثير رغبتي لأصبح واحدةً من تلك النسوة، اللواتي – على الرغم من لؤمهنّ- كنَّ معشوقاتٍ ومعبوداتٍ من الرجال طوال حياتهنّ، وما زلنَ يَفرِضْنَ سطوتهنّ وهنّ في قُبورهنّ حتى اليوم. سوف تجعلُني في النهاية طاغيةً مُصغَّرة، ديكتاتورةً على منزلها".

"حسنًا إذًا، إذا كانت هذه الصفات متأصّلة فيكِ، أطلقي العنانَ لنزعتكِ الفطرية. لا توجد حلولٌ وسطى، فإذا لم تقدري أن تكوني زوجةً حقيقيةً وشرعيةً لي، كوني شيطانة".

كنتُ متوترًا من قلة النوم، كما أن الاقتراب من امرأة فاتنةٍ يُصيبني بالحمّى. لا أذكر ماذا قلتُ بعد ذلك، لكنني قبّلتُ قدميها، ثم رفعتُ قدمها ووضعتها فوق رقبتي.

سحبتْ فاندا رجلها بسرعة، ووقفتْ غاضبةً: "إذا كنتَ تحبّني يا سيفرين"، أكملتْ بصوتٍ حادّ ونبرةٍ آمرة: "لا تتحدث أمامي عن هذه الأشياء مرةً أخرى. هل تفهم؟ أبدًا! وإلّا فإنني سوف..."، ابتسمتْ وجلستْ.

"أنا جادّ فيما أقول"، وأضفتُ كمَن يهذي: "إني أعشقكِ بشكلٍ لا محدود، ومستعدّ لتحمُّل أقسى العذاب منك، فقط لكي أعيش حياتي كلّها قربك".

"سيفرين، أحذّرك مرةً أخرى".

"تحذيراتكِ لن تنفع. افعلي بي ما تشائين، طالما أنك لن تطرديني بعيدًا عنك".

"سيفرين! أنا امرأة شابة ولَعُوب، ومن الخطر أنْ تضع نفسك كليًّا تحت سلطتي، سوف تصبح لعبةً بين يديّ بكلّ معنى الكلمة. مَن يضمن لك أنني لن أتلاعب برغباتك المجنونة؟"

"شخصيّتُكِ النبيلة".

"لكنّ السلطة تغيّرُ من طِباع المرء، وتجعلُه لا يُطاق".

"كوني كذلك، اسحقيني تحت قدميك".

رمتْ فاندا ذراعيها حول عنقي، نظرتْ في عينيّ، وهزّتْ رأسها: "أخشى القول إنني لا أستطيع، لكنني سأحاول، من أجلك، لأنني أحبُّك يا سيفرين، كما لم أحبَّ رجلًا من قبل".

# (٩)

اليوم ارتدتْ قبّعتها وشالَها، وذهبنا معًا للتسوّق. كانت تبحث عن نوعٍ معيّن من السياط، تريده سوطًا طويلًا ذا مقبضٍ قصير، من النوع الذي يستخدم لترويض الكلاب.

"هل هذا مناسب؟" قال البائع.

"لا، إنه رفيع". أجابتْهُ فاندا وهي ترمقُني بطرْفِ عينها: "أريد واحدًا غليظًا".

"أَ هوَ كلبٌ من سلالة "بولدوغ" كما أظنّ؟"

"نعم! وأريدُ لهُ سوطًا كالذي يستخدم في روسيا لترويع العبيد المتمرّدين".

تفحّصتْ فاندا بضاعة المتجر بدقة، ثم اختارت السوط المناسب. حين رأيتُه... دبّت القشعريرة في جسدي.

"الآن، وداعًا يا سيفرين. سوف أذهب لشراء أغراضٍ أخرى، لكن لا يمكنك مرافقتي".

تجوّلتُ في السوق قليلًا، ثم رأيتُها تخرج من متجر الفراء، فنادتْني بإشارةٍ من إصبعها: "فكّرْ بذلك جيّدًا، لا أذيعُ سرًّا حين أقول إنّ شخصيتك الحالمة والجادّة سحرتني كليًّا. إنّ فكرة أنْ أرى هذا الرجلَ الجادَّ تحت سلطتي المطلقة، خصوصًا عندما يجلسُ عند قدميّ مسرورًا؛ تثيرني بالطبع. لكن، هل سيدوم هذا السحر؟ المرأةُ تعشق رجلًا، لكنها تزدري العبد، ثم تركله بعيدًا في نهاية الأمر".

"حسنًا، اركليني بعيدًا عندما تسأمين مني، أريد أن أكون عبدك".

"ثمة نزعاتٌ خطيرة نائمة في داخلي، أنتَ مَنْ أيقظها، وهذا ليس في صالحك. أنت تُجيد تصوير اللذة والقسوة والغطرسة بألوانٍ مشرقة، ما رأيك أنْ أضيف لمساتي عليها؟ وتصبح أنت فأر تجاربي؟! سوف أكون مثل ديونيسوس عندما أحرق مخترعَ الثور الفولاذي في داخله، لكي يرى ما إذا كان نواحُهُ وأنينُه مشابهين لصوت خُوار الثور. ربما أنا ديونيسوس الأنثى"[٤٧].

"كوني كذلك، وسوف تتحقق أحلامي. أنا لكِ في السّراء والضرّاء، فاختاري. إنّ القدر المختبئ في صدي، يدفعني إلى الأمام بقسوةٍ شيطانية".

* * *

"حبيبي؛

لا أريد رؤيتكَ اليوم ولا غدًا، لنْ أراك حتى مساء بعد الغد. وعندها... ألتقيكَ كعبدٍ لي.

سيّدتك؛

فاندا".

كانتْ قد وضعتْ خطّين تحت عبارة "كعبدٍ لي". قرأتُ الرسالة حين وجدتُها تحت باب غرفتي هذا الصباح، ثم أسرجتُ حمارًا -رمزٌ حيوانيّ لأساتذة الجامعات- وذهبتُ في نزهة إلى الجبال. كنتُ أحاول تخدير رغبتي، وإطفاء لوعتي واشتياقي بالمناظر الطبيعية الخلّابة في جبال الكاربات. ثم عدتُ إلى

[٤٧] - المقصود هو ديونيسوس الأول أو ديونيسوس الثاني اللذان حكمَا دولة سَرَقُوسَة الإغريقية في القرن الرابع قبل الميلاد، وهما شخصيّتان تاريخيّتان.

البيت متعبًا وعطشًا وجائعًا، وغارقًا في العشق أكثر من ذي قبل. بدّلتُ ملابسي بسرعة، وبعد دقائق وجدتُ نفسي أقرع بابها.

"ادخلْ".

دخلتُ. كانت واقفةً في منتصف الغرفة، ترتدي ثوبًا شفّافًا من الساتان الأبيض، ينسابُ على جسدها كالنُور. وفوقه معطف مخمليّ مزيّن الحوافّ بفراء فاخر. فوق شَعرها المبرَّج بنُثارٍ كرذاذ الثلج، ثمة تاجٌ مرصَّع باللؤلؤ. كانت تقف مقاطعةً ذراعيها فوق صدرها، وعاقدةً حاجبيها.

"فاندا"... ركضتُ إليها، وكنتُ على وشكِ أنْ أضمّها وأقبّلها. لكنها رجعتْ خطوةً إلى الوراء، وراحتْ ترمقني من الأعلى إلى الأسفل: "أيها العبد"!

"سيدتي!"، نزلتُ على ركبتي وقبّلتُ حاشية ثوبها.

"هذا هو التصرّف اللائق".

"آهٍ كم تبدين جميلة!"

"هل تريد أن أمتعك؟". وقفتْ أمام المرآة، وتأمّلتْ نفسها بإعجاب وغرور.

"أكادُ أُجَنُّ!"

مطَّتْ شفتها السُفلى هازئةً، ونظرتْ إليّ بازدراءٍ من بين أجفانها المسدَلة: "أعطني السوط". أجلتُ نظري في أرجاء الغرفة. "لا، ابقَ في مكانكَ، راكعًا". ذهبتْ باتجاه الموقد، واستلَّت السوطَ من الرفّ. صارتْ ترمقني بابتسامةٍ عريضة، وهي تلوّح بالسوط في الهواء. ثم راحتْ ترفع أكمام معطفها الفرائيّ ببطء شديد.

"امرأة رائعة!"

"اخرسْ أيها العبد". عبسَتْ فجأةً، ونظرتْ إليّ بحقد، ثم ضربتْني بالسوط. بعد لحظةٍ عانقتْني برفقٍ وحنان، ثم سألتْني باستحياء: "هل أوجعتُكَ؟"

"لا. حتى لو أوجعتني، فالآلام التي تأتي منكِ هي قمة السعادة. اضربيني مرةً أخرى، إذا كان هذا يمتعك".

"لكنه لا يمتعني".

"اجلديني"، توسّلتُ إليها: "اجلديني بلا رحمة".

لوّحتْ فادا بالسوط، وضربتْني مرتين: "هل أنتَ راضٍ الآن؟"

"لا".

"حقًا لا؟"

"اجلديني، أتوسّل إليك، إنّ ذلك يفرحني".

"نعم، لأنكَ تعرف تمام المعرفة أنّ الأمر ليس جديًا. قلبي لا يقدرُ أنْ يؤذيك. هذه اللعبة القاسية تسير عكس طبيعتي، لو كنتُ المرأة التي تضربُ عبيدها، لكنتَ ارتعبتَ مني".

"لا يا فاندا. أحبّكِ أكثر مما أحبّ نفسي، موتي وحياتي كلّها تحت أمر يديكِ. بكلّ جدّيةٍ أقول؛ يمكنكِ أن تفعلي بي أي شيء، أي شيء تُمليه عليكِ نزواتُك وأهواؤك".

"سيفرين!"

"دوسيني بقدميكِ"، رميتُ نفسي على الأرض أمامها.

"أكرهُ هذه التمثيليّة"، قالتْ فاندا غاضبة.

"إذًا، عذّبيني من دون تمثيل".

عمَّ صمتٌ غريب.

"سيفرين، أحذّركَ للمرة الأخيرة".

"إنْ كنتِ تحبّينني، كوني قاسيةً معي". تضرّعتُ إليها بعينين دامعتين.

"إنْ كنتُ أحبك؟ جيّد جدًا". رجعتْ إلى الوراء ونظرتْ إليّ بابتسامةٍ كئيبة: "كُنْ عبدي إذًا، واعرَفْ تمامًا ماذا يعني أنْ تُلقَى بين يديّ امرأة". وقبل انتهاء الجملة ركلَتْني: "ما رأيكَ يا عبد؟"، ثم تناولتِ السوط: "انهضْ!". كنتُ أحاول الوقوف.

"ليس هكذا، انزِلْ على ركبتيك".

أطعتُ الأمر، فبدأتْ باستعمال السوط.

كانت الضرباتُ تنهالُ سريعةً وقويةً على ظهري وذراعيّ، كلُّ ضربةٍ تقطعُ في لحمي وتحترق فيه. لكن الأوجاع أثارتني، فقد جاءتْ منها، ممَّن أعبدها، ممَّن كنتُ مستعدًا في أي لحظةٍ أنْ أُلقي حياتي تحت قدميها.

توقّفتْ عن الجلد وقالت: "لقد بدأتُ أستمتع، لكنْ يكفي هذا اليوم. بدأتُ أشعرُ بفضولٍ شيطانيّ لأراك تنهارُ أمامي. لقد تلذّذتُ كثيرًا برؤيتك ترتجف وتتلوّى تحت ضرباتِ سوطي، وبسماعي نواحك وأنينك. أريد أنْ أواصل جلْدكَ من دون شفقة، حتى تتوسّل الرحمة مني، حتى تفقد وعيك. لقد أيقظتَ دوافع خطيرةً في كياني، لكن الآن... انهضْ".

أمسكتُ يدَها وقبّلتُها.

"يا لَها من وقاحة!"، دفعتْني بقدمها بعيدًا عنها: "اغرُبْ عن وجهي يا عبد!".

# (١٠)

بعدما أمضيتُ ليلةً محمومةً، لم أرَ فيها غير الكوابيس، استيقظتُ قُبيل بزوغ الفجر بقليل.

كَمْ من الهواجس التي حوَّمتْ في ذاكرتي كانت حقيقيةً؟ ما الذي حدث معي فعلًا؟ وما الذي رأيتُه في المنام؟ أنني تعرّضتُ للجلد... هذا أكيد، فما زلتُ أشعر بألمِ كل ضربة، ويمكنني عدُّ الخطوط الحمراء المحترقة على جسدي. وهي من ضربتْني، الآن أذكر كل شيء.

ها قد صار حلمي حقيقة، بمَ أشعرُ الآن؟ هل أحسُّ بالإحباط بعد تحقيق حلمي؟

لا، أنا متعبٌ بعض الشيء، لكن قسوتها أثارتْني. آهٍ كم أحبُّها، أعشقها! كلُّ كلماتِ اللغات لا تكفي لوصف شعوري تجاهها، استلابي الكامل لها. ما أحلى أنْ أكون عبدًا لها!

# (١١)

نادتْني من شرفتها، فركضتُ صاعدًا الدرج. وجدتُها واقفةً عند الباب، مدّتْ يدها إليّ بودّ: "أشعر بالخجل من نفسي". عانقتُها وخبّأتُ رأسي في صدرها.

"لماذا؟"

"أرجوك، حاولْ أنْ تنسى مشهدَ البارحة البشع". وأضافتْ بصوتٍ مرتجف: "لقد حققتُ لكَ أمنيتكَ المجنونة، أما الآن فدعْنا نكُنْ عقلاء وسعداء، ونحبّ بعضنا بعضًا، وبعد سنة سوف أصير زوجتك".

"بل سيّدتي! وأنا عبدكِ!"

"لا تقُلْ أيّ كلمةٍ أخرى عن العبودية أو القسوة أو الجلْد، لن أُسدي لكَ أي خدمةٍ من ذلك، أبدًا، ما عدا ارتداء معطف الفرو. تعالَ وساعدني في ارتدائه".

# (١٢)

الساعةُ البرونزيّة الصغيرة التي يقفُ عليها كيوبيد صغير، وهو على أُهْبةِ الاستعداد لإطلاق سهمه؛ دقّتْ معلنةً حلولَ منتصف الليل.

نهضتُ ونويتُ المغادرة.

لم تقلْ فاندا شيئًا، لكنها عانقتْني وسحبتني معها إلى الأريكة العثمانية. راحتْ تقبّلُني من جديد، وقد كانتْ هذه اللغةُ الصامتة بالغةَ الوضوح وشديدة الإقناع، إذ قالتْ لي أكثرَ مما أجرؤ على فهمه.

تغلغلَ استسلامٌ كسولٌ في خلايا جسدها كلّه. يا لهذي الرقّة الشهيّة اللامعة في غسَقِ عينيها نصف المغلقتين، وفي وميض شلّال شَعرها الأحمر المنسكب على بياض كتفيها، في بياض الساتان الذي يخشخشُ حول جسدها مع كل حركة، وفي الفراء الفاخر الذي تندسُّ فيه باسترخاءٍ ودلال.

"أرجوكِ"، تلعثمتُ: "أخشى أنْ تغضبي مني".

"افعلْ بي ما تشاء"، همستْ لي.

"حسنًا إذًا، اجلديني! وإلّا سوف أجنّ".

"أَلَمْ أمنعكَ من ذلك"، ردّتْ بحزم: "لكنكَ عنيد ولا دواء لك".

"أحبّكِ بشكلٍ رهيب"، نزلتُ على ركبتيّ، ودفنتُ وجهي الملتهبَ في حضنها.

"أصدّقك. إنّ جنونكَ ليس سوى رغبةٍ شيطانيةٍ غير مُشبَعة، أسلوبُ حياتنا غير الطبيعيّ ينتجُ أمراضًا كهذه. لو تستطيع كبْحَ خيالك الجامح، لصرتَ رجلًا عاقلًا حقًّا".

"حسنًا، اجعليني عاقلًا إذًا". كانت أصابعي تعبثُ بخصلات شعرها، ثم تغرقُ في الفرو الدافئ الذي ينسدلُ على جسدها مثل موجةٍ من ضياء القمر، ويُربكُ أحاسيسي كلّها.

ثم... قبّلتُها، لا... هي من قبّلتْني... بعنفٍ وشراسةٍ وكأنها تريدُ ذبحي بالقُبلات. صرتُ أهذي... فقدتُ صوابي... وجدتُ نفسي عاجزًا عن التنّفس... حاولتُ تخليص نفسي...

"ماذا بكَ؟"

"أعاني سكرات الموت".

"تعاني؟"، وانفجرتْ بضحكةٍ عابثة.

"تضحكين؟ لأنكِ لا تدرين ماذا يعتريني".

انقلبَ وجهُها إلى الجدّية والعبُوس في ثانية، حملتْ رأسي بين يديها، جذبتْني إلى صدرها وهي ترمقني بحُنق.

"فاندا..."، تمتمتُ.

"بالتأكيد، أنت تستمتع بالمعاناة". ضحكتْ مجددًا وقالت: "لكن انتظرْ، سوف أُعيدكَ إلى صوابك".

"لا أريد ذلك، لستُ آبهُ إنْ كنتِ لي على الدوام، أو لمجرّد لحظةٍ عابرةٍ من النشوة. أريدُ أنْ أعُبَّ السعادة حتى الثمالة. أنتِ الآن لي، وأفضّلُ أنْ أخسركِ على ألّا أكون قد عرفتُكِ قطّ".

"الآن... أنتَ عاقل"، قبّلتْني بشفتيها القاتلتين. قطّعتُ أزرارَ معطف الفرو، مزّقتُ الغلالةَ بأظافري، فاندَلَقَ نهدُها العاري أمامي.

ثم... فقدتُ الوعي.

أوّلُ شيء أذكُره. . . هو اللحظة التي رأيتُ فيها الدماءَ تسيلُ على يدي، حينها سألتْني بلا مبالاة: "هل خدشْتَني؟"
"لا، أظنُّ أني قد عضَضْتُكِ".

# (١٣)

غريب! كيف أنّ كلَّ علاقةٍ في الحياة، ترتدي وجهًا مختلفًا عندما يدخلُ إليها شخصٌ جديد.

أمضينا أيامًا رائعةً معًا، تنزّهنا في الجبال وحول البحيرات، قرأنا معًا، وأنهيتُ رسمَ بورتريه فاندا. آهٍ كم أحبَّ كلٌّ منا الآخر! وكم كانت ابتسامتُها ساحرة!

ثم وصلتْ واحدة من صديقاتها، وهي امرأةٌ مطلَّقة تكبُرها بقليل، أكثرُ خبرةً وأقلُّ جموحًا من فاندا، وبدأ تأثيرها يتمدّد في كل الاتجاهات.

صارتْ فاندا تقطّب حاجبيها حين تراني، وتُظهِر استياءً واضحًا تجاهي.

هل توقّفتْ عن حبّي؟

# (١٤)

لمدة أسبوعين تقريبًا، ظلّتْ هذه المصيبة التي لا تُحتمَل جاثمةً على صدرنا. كانت صديقتُها تعيش معها، ولم تعدْ لوحدها بعد اليوم، وصارت مجموعةٌ من الرجال تحومُ حول المرأتين الشابتين. كنتُ -بسبب جدّيّتي وسوداويّتي- أمثّلُ دورًا عبثيًّا كعشيق، بينما كانت فاندا تعاملُني كغريب.

اليوم، أثناء خروجنا في نزهة، تراجعتْ بضعَ خطواتٍ إلى الوراء، في اتجاهي. عرفتُ أنها فعلتْ ذلك عن قصد، فابتهجتُ. لكنْ ماذا قالت لي؟

"صديقتي لا تفهمُ كيف لي أنْ أحبّكَ، فهي لا تراكَ وسيمًا ولا جذّابًا بأيّ شكلٍ كان. تُحدّثني من الصباح إلى المساء عن الحياة الرائعة في العاصمة، وتشيرُ إلى الميزات والفوائد التي سوف أجنيها هناك، إلى الحفلات الكبيرة التي سأجدُ فيها عددًا من المعجبين الوسيمين والمميّزين، وأجذبُهم نحوي. لكنْ ما الفائدة من ذلك؟ بعد أنْ حدثَ وأحببتُك".

انقطعتْ أنفاسي لدقيقة، ثم قلتُ: "لا أرغبُ بأنْ أقف في طريق سعادتك يا فاندا، لا تُعطي أيَّ اعتبارٍ لي". رفعتُ لها قبّعتي، وتركتُها تمضي إلى الأمام. نظرتْ إليّ مستغربةً، لكنها لم تنبسْ ببنت شفة.

أثناء طريق العودة، اقتربتُ منها مصادفة، فنقرتْني بكوعها. كانت عيناها تتلألآن، تفيضان بالفرح الموعود، وهو ما أنساني كلَّ عذابات الأيام الماضية، وداوَى جراحاتي كلَّها.

الآن أدركُ من جديدٍ كم أحبُّها.

# (١٥)

"صديقتي اشتكتْ منك"، قالت فاندا اليوم.

"ربما تحسُّ بأنني أكرهها".

"ولماذا تكرهها أيها الأحمق الصغير؟"، صاحتْ فاندا وهي تشدُّ أُذنيَّ بكلتا يديها.

"لأنها منافقة! أحترم نوعين من النساء فقط؛ إما الشريفة قلبًا وقالبًا، أو مَنْ تعيش بانفتاحٍ غايتُه اللذة فحسب".

"مثلي أنا، على سبيل المثال"، أجابتْ فاندا مازحةً. "لكنْ كما ترى يا ولد، لن تجد امرأةً كهذه إلّا نادرًا. لا يمكنُ للمرأة أن تكون شهوانيّةً عابثةً كليًّا، ولا روحانيّةً طاهرةً تمامًا، لأنّ تكوينها مزيجٌ من الشهوانيّة والروحانيّة. إذ يرغبُ قلبُها بامتلاكِ الحبيب إلى الأبد، وفي الوقت ذاته، تكون خاضعةً لشهوة التغيير. والنتيجة هي الصراع الداخلي الدائم، وهكذا -بعكس رغباتها وتمنّياتها- يدخل الكذبُ والخداعُ في أقوالها وأفعالها، ويُفسدان شخصيّتها".

"بالتأكيد، هذا صحيح. إنّ الطابعَ المتسامي الذي تريد المرأةُ إضفاءَهُ على الحبّ، يقودُها إلى الخداع".

"لكنّ العالَم يتطلّب ذلك أيضًا. انظُرْ إلى هذه المرأة، لديها زوجٌ وعشيق في ليمبرغ، وها قد وجدتْ معجبًا جديدًا هنا. إنها تخون الثلاثة في الوقت ذاته، ومع ذلك تحظى باحترام العالَم كلّه".

"لا آبه. المهمّ أنْ تدعكِ وشأنكِ، إنها تنظرُ إليكِ كسلعةٍ تجارية".

"ولِمَ لا؟ كلُّ امرأةٍ لديها غريزةٌ أو رغبةٌ في أنْ تكسبَ الأفضليّة، وهي تكسبها من خلال مفاتنها. بل أكثر من ذلك، حين يُقال إنها وهبَتْ نفسَها لآخرَ من دون حبّ

أو متعة، أي فعلتْها بدمٍ بارد، فإنها سوف تبلغ قمة الأفضليّة، وفوق الأُخريات جميعهنّ".

"فاندا، ما هذا الذي تقولينه؟"

"لمَ لا؟ وسجّلْ عندكَ ما سوف أقوله أيضًا: حذارِ أنْ تشعرَ بالأمان مع امرأةٍ تحبُّها، فالخطرُ الكامن في شخص المرأة أكبرُ ممّا تتصوّر. النساءُ لسنَ طيّباتٍ إلى الدرجة التي يُصوّرهنَّ بها عشّاقهنّ والمدافعُون عنهنّ، ولسنَ شريراتٍ إلى الدرجة التي يُصوّرهنّ بها أعداؤهنّ. شخصيّةُ المرأةِ... هي انعدام الشخصية. يمكن لأفضل واحدةٍ من النساء، أنْ تنحدر في لحظةٍ إلى المستنقع، ويمكن لأسوأ واحدةٍ من النساء، أنْ ترتقي -فجأةً- إلى القيام بالمآثر الخيّرة والعظيمة، وتكلّل بالخزي والعار مَنْ كان يزدريها. لا توجدُ امرأة فاضلة بالمطلق، ولا رذيلة بالمطلق. كلُّ واحدةٍ قادرةٌ -في أيّ لحظة- على التصرّف بسموّ إلهيّ، وكذلك بانحطاط شيطانيّ. وهذا يشمل الأكثر طهرانيّة منهنّ والأكثر رِجسًا. على الرغم من التقدّم الحضاري كله، فقد بقيت المرأةُ كما هي، وكأنها خرجتْ للتوّ من رحم الطبيعة. لديها فطرةُ الإنسان البدائي وطباعه، فهو وفيٌّ وخائن، طيّب ومتوحّش، وذلك وفقًا للدافع المسيطر في كل لحظة. عبر مراحل التاريخ كلّها، كانت هنالك ثقافةٌ عميقة وجادّة، أنتجتْ المنظومة الأخلاقية. الرجلُ مهما كان أنانيًّا أو شريرًا فإنه يتبعُ مبادئ معيّنة، أما المرأة فلا تتبع شيئًا غير دوافعها. لا تنسَ هذا أبدًا؛ حذارِ أنْ تشعرَ بالأمان في أحضان امرأةٍ تحبُّها".

# (١٦)

رحلتْ صديقتُها، وأخيرًا أمسيةٌ تجمعنا أنا وفاندا وحدنا. يبدو أنّ فاندا قد احتفظتْ بكلّ الحبّ الذي أخفتْهُ أمام صديقتها لهذه السهرة المنتظَرة. لم تكنْ في أيّ يومٍ كما هي اليوم: لطيفة جدًّا، قريبة جدًّا، ومفعمة بالحنان.

يا لها من سعادةٍ! أتسلّقُ إلى شفتيها، ثم أهوي ميّتًا بين ذراعيها. كانت في حالةٍ من الاسترخاء والثمل بين ذراعيّ، تضع رأسها على صدري، وتبحث عيناها عن عينيّ في نشوةٍ سكرى.

لحدّ الآن لا أصدّق، لا أستوعب، لا أتخيّل، أنْ هذه المرأة لي، لي بكُلِّ... كلّها.

"لقد كانتْ محقّةً في أمرٍ واحد فقط"، بدأتْ فاندا الكلام، من دون أي حركة، ومن دون أن تفتح عينيها، كما لو أنها تتحدث في نومها.

"من تقصدين؟"

ظلّتْ فاندا صامتة.

"صديقتكِ؟"

أومأتْ برأسها: "نعم، إنها محقة، أنتَ لستَ رجلًا، أنتَ مجرّد حالم، فارس مسحور، وتريد أنْ تصبح عبدًا لا قيمة له. لكنْ، لا يمكنني أنْ أتخيّلك كزوج".

ارتعبتُ.

"ما الخطب؟ أراكَ ترتجف؟"

"أرتجفُ عندما أفكّرُ كم من السهل عليكِ أنْ تتركيني".

"هل صرتَ أقلَّ سعادةً الآن، بسبب هذا. هل يسلبُكَ شيئًا من سعادتك أنني ارتبطتُ مع رجل قبلك؟ وأنّ هنالك آخرين سوف يملكونني بعدك؟ هل ستنقص سعادتُكَ إذا ما أمتعتُ رجلًا آخر في نفس الوقت؟"

"فاندا...!"

"هل ترى؟ سيكون هذا حلًّا، ولن تخسرني أبدًا بعد ذلك. أنا أحبك كثيرًا، ونحن منسجمان بالأفكار ومتناغمان، سوف أهنأُ بالعيش معك على الدوام، في حال -بالإضافة إليكَ- كنتُ أملكُ..."

"يا لها من فكرة! لقد ملأتِ قلبي بالرعب".

"هل تحبُّني الآن أقلَّ من ذي قبل؟"

"على العكس تمامًا".

اتّكأتْ فاندا على جانبها الأيسر، مستندةً على كوعها: "لكي تحتفظ المرأةُ برجلٍ على الدوام، فمن الضروريّ حقًّا ألّا تكون وفيّةً له. هل توجد امرأةٌ شريفة عبر التاريخ، عشقها الرجالُ بإخلاصٍ مثلما عشقوا نساء الهيتايرا؟"[٤٨]

"ثمة باعثٌ مثير ومؤلم في خيانة المرأة المعشوقة، إنه أعلى حالات النشوة".

"بالنسبة إليكَ أيضًا؟"

"نعم، بالنسبة إليّ أيضًا".

"وماذا لو جعلتُكَ تعيش هذه النشوة؟"، سألتْ بمكر.

---

[٤٨] - نساء الهيتايرا (Hetaera): كان لنساء الهيتايرا شعبيّة واسعة في العصر الذهبي لأثينا، وهنَّ مرافقات أو محظيّات أو عشيقات لعليّة القوم، طوَّرن الاهتمام بجمالهنّ وملابسهنّ حتى تميّزنَ عن المرأة الإغريقية العادية، كما طوّرنَ من سعة ثقافتهنّ الأدبيّة والفنية والفلسفيّة حتى تفوّقن بوضوحٍ على النساء الأخريات. وعلى الرغم من كونهنّ مومسات أو بائعات هوى، فقد حظينَ بمكانة اجتماعية مرموقة، ولعبنَ أدوارًا سياسيّة واجتماعية مهمّة. ومن أشهر الهيتايرات "فيليس" عشيقة أرسطو، و"فريني" عشيقة هيبريدس.

"سوف أكابدُ أقسى سكرات الموت، لكنني سأعشقكِ وأعبدك أكثر. أنتِ لن تخدعيني، فلديكِ من العظمة الاستثنائية ما يكفي لتقولي لي: لنْ أحبَّ أحدًا سواك، لكنني سوف أُسعِدُ كلَّ مَنْ يمتعُني".

هزّتْ فاندا رأسها: "لا أحبُّ الخداع، أنا صادقة، لكنْ أيُّ رجلٍ على وجه الأرض يحتمل ثقلَ الحقيقة؟ لو قلتُ لك: هذه الحياة الشهوانية الصافية، هذه الوثنية، هي مثالي الأعلى. هل ستملك من القوة ما يكفي لتحمُّل ذلك؟!"

"في الواقع، يمكنني تحمُّل كلّ شيءٍ ما عدا خسارتك. أشعرُ أنني لا أعني لكِ سوى القليل".

"لكن يا سيفرين".

"هذه هي الحقيقة، وفقط لهذا السبب سوف..."

"فقط لهذا السبب سوف..."، ابتسمتْ بخبث: "هل حزِرْتُ؟"

"أكون عبدكِ!! أكونُ ملكيّتكِ المطلقة! من دون أيّ إرادةٍ مني، أنتِ مَنْ يُقرّر ما يشاء وما يتمنّى، وهكذا لن يكون هناك أيُّ حمْلٍ على عاتقك. وبينما تعُبّين كأسَ الحياة حتى الثمالة، مُحاطةً بالرفاه والفخامة، وتستمتعين باللذة الصافية للعشق الأولمبي؛ سأكون أنا خادمك، مَنْ يُلبسكِ حذاءك ويخلعُه من قدمك".

"خطؤكَ ليس بعيدًا عن الصواب، لأنكَ لن تحتمل حبّي للآخرين، إلّا عندما تكون عبدي فقط. وأكثر من ذلك، لا يمكن التفكير بحرية الاستمتاع في العالم القديم، بمعزل عن العبودية. فهي تُعطي للمرأة الإحساسَ بأنها ربةٌ فعلًا، خاصةً حين ترى رجلًا يركع أمامها مرتجفًا. نعم، أريدُ عبدًا لي، هل تسمع يا سيفرين؟"

"أَوَلستُ أنا عبدكِ؟"

"حسنًا. أصغِ إليّ"، قالت فاندا بسرورٍ وهي تمسك يديّ: "أريد أن أكون لكَ، طالما أنني أحبك".

"شهر؟"

"ربما شهران".

"وبعدها؟"

"وبعدها تصير عبدي".

"وأنتِ؟"

"أنا؟ ولماذا تسأل؟ أنا ربّة! وأحيانًا أنزلُ من قمة الأولمب وآتي إليك، رقيقةً حنونة، وبشكلٍ سري". وضعتْ راحتيَّ على خديها وأراحتْ وجهها بينهما، ثم شردتْ عيناها في عالم آخر: "لكن ماذا يعني كل ذلك؟ إنه وهمٌ ذهبيّ لا يمكن أن يصبح حقيقة". خيَّمتْ كآبةٌ عميقة وغريبة على مُحيّاها، لم أرها بهذا الوجه من قبل.

"لماذا ترينه وهمًا لا يمكن تحقيقه؟"

"لأنّ العبودية لم تعد موجودةً في عالمنا اليوم".

"إذًا، سوف نسافر إلى بلدٍ ما زالتْ العبودية قائمةً فيه، نسافر إلى الشرق، إلى تركيا"[٤٩].

"هل ستفعل ذلك يا سيفرين؟ بكل جدية؟"، سألتْني بعينين مشتعلتين.

"نعم، بكل جدية، أريد أن أكون عبدًا لك". وأكملتُ: "أريدُ لسلطتكِ عليّ أن تكون معزّزةً بقوة القانون، أريد لحياتي أن تكون ملكَ يديك، لا أريد لأيّ شيءٍ

[٤٩] - لم تكن جمهورية تركيا قائمة في زمن الرواية، لكنّ الأوروبيين استخدموا تسمية "تركيا" للإشارة إلى شرق الأناضول منذ أيام الدولة السلجوقيّة في العصور الوسطى. وفي العصور الحديثة استخدموا تسمية "الإمبراطورية التركية" للإشارة إلى السلطنة العثمانية.

أنْ يقيني أو يحميني منك. يا لَها من سعادةٍ شهيّة! عندما أشعرُ أنني خاضعٌ بالكامل لإرادتكِ المطلقة، لضرباتِ سوطك، رهنَ إشارةٍ أو إيماءةٍ منك. ويا لَها من نشوةٍ عندما -في بعض الأحيان- تتنازلينَ وتكونين رؤوفةً بي، وحين يُسمَحُ للعبد بتقبيل الشفتين اللتين تمثّلان الحياةَ والموتَ بالنسبة إليه". نزلتُ على ركبتيّ، ووضعتُ جبهتي المحترقة على ركبتها.

"أنتَ تهذي كالمحموم! وأنتَ فعلًا تحبني من دون حدود". رفعتْني إلى جنّةِ صدرها، وغمرتْني بالقُبَل. "هل حقًّا تريد ذلك؟"

"أقسمُ لكِ الآن، أقسم بالله وبشَرَفي، إنني أريدُ أن أكون عبدك، حيثما تشائين، وفي اللحظة التي تأمرين".

"وماذا لو أخذتُ كلامكَ على محمل الجدّ؟"

"أرجوكِ افعليْ".

"كلّ هذه التوسّلات لي؟ إنه شيءٌ مختلف عن كلّ ما أعرف. الرجلُ الذي يعبدني، والذي أحبّه من كل قلبي، سيكون لي كليًّا، خاضعًا بالكامل لإرادتي ونزواتي، ملكيّتي الخاصّة وعبدي. لكن أنا... في حال أصبحتُ متقلّبة الأهواء، وعابثةً بشكلٍ مخيف، فأنتَ المُلامُ في ذلك. ويبدو أنكَ خائفٌ منذ الآن، لكنك قد أقسمت".

"ولن أحنثَ بقسَمي".

"سوف نرى في قادم الأيام. بدأتُ أستمتعُ بذلك، فلْتساعِدْني السماء! لن نغرق في الأوهام بعد الآن، سوف تصير عبدي، وأنا... سوف أُجرّب أن أكون... فينوس ذات الفراء".

# (١٧)

حسِبتُ أنني قد عرفتُ هذه المرأة أخيرًا، فهمتُها أخيرًا، لكنني في كلّ مرةٍ أجدُ نفسي أبدأ معها من نقطة الصفر. قبل أيام معدودة كانت ردةُ فعلها تجاه أحلامي عدائيةً وعنيفة، واليوم تريد نقلَ أحلامي من عالم الخيال إلى أرض الواقع، وبكلّ جدية ورصانة.

بعد كلمة الشرف التي أعطيتُها لها، أعدَّتْ عقدًا يتضمّن موافقتي -بناءً على قسَمي- على أنْ أكون عبدًا لها، ولمدّة تحدّدها هي.

بينما كانت ذراعاها ملتفّتان حول عنقي، كنتُ أقرأ هذي الاتفاقية التي لا تصدّق، ولا مثيل لها في التاريخ. وعند نهاية كل بندٍ من بنود الاتفاقية، كانت تضع نقطةَ نهاية السطْرِ بقُبلةٍ من شفتيها على شفتيّ.

"لكنّ كلَّ الالتزامات المذكورة في العقد تقعُ على عاتقي"، قلتُ لكي أُغيظها.

"بالطبع"، أجابتْ بمطلق الجدية: "أنتَ لم تعدْ حبيبي، ونتيجةً لذلك فأنا معفيّةٌ من جميع الواجبات والالتزامات تجاهك. يجب أنْ تعتبر ما أُغدِقُهُ عليكَ من عطايا ونِعَمٍ صدقةً كريمةً مني. لم تعدْ لكَ أيُّ حقوق بعد الآن، ولن يحقّ لك أن تطالب بأيّ منها، لن تكون هناك أيُّ حدودٍ لسُلطتي عليك. تذكّرْ، لن تكون في حالٍ أفضل من أيّ كلب، أو أيّ غرضٍ أملكه. سوف تكون لي، لُعبتي التي أكسرُها وأحوّلها إلى حطام متى أشاء من أجل ساعةٍ من التسلية. أنتَ لا شيء، أنا كل شيء، هل تفهم؟"

"ألا تسمحين لي ببعض الشروط؟"

"شروط؟"، قطَّبتْ حاجبيها: "يبدو أنك خائفٌ منذ اللحظة، أو ربما بدأتَ تندم. لكنْ فات الأوان على ذلك، فقد أقسمتَ لي، وأخذتُ منكَ كلمة شرف. مع ذلك لا بأس، دعني أسمع شروطك..."

"أولًا، وأريدكِ أنْ تذكري هذا في العقد، أنكِ لن تتخلّي عني، ولن تضعيني تحت رحمة واحدٍ من عشاقكِ".

"لكن يا سيفرين"، قالت فاندا بصوتٍ مفعمٍ بالعطف، وعينين تغرورقان بالدمع: "كيف لكَ أنْ تتخيّل ذلك؟ كيف يمكن... وأنت رجلٌ يعشقني بجنونٍ رهيب، ويضع حياته كاملةً تحت سلطتي...".

"لا، لا". قلتُ وأنا أغمرُ يديها بالقبلات: "لا أتوقّعُ منكِ أيّ سوء، لا أتوقّع منك أيّ شيء يهينُني. انسَيْ هذه الفكرة البشعة".

ابتسمتْ فاندا بسرور، ألصقتْ خدّها بخدّي، واستغرقتْ في التفكير.

"لقد نسيتَ شيئًا، وهو أهمُّ شيء". همستْ بدلال.

"أَ هو شرط؟"

"نعم، وأهمُّ شرط، يجب عليّ أنْ ألبسَ الفراء دومًا. لكني أعدُكَ بأنْ أفعل ذلك في كل الأحوال، لأنّ الفراء يعطيني إحساسًا بالطغيان، وسوف أكون قاسيةً جدًّا معك، هل تفهم؟"

"هل يمكنني توقيع العقد؟"

"ليس الآن، ينبغي أولًا أنْ أضيفَ شروطك إلى العقد. أما التوقيع الفعلي فلن يتمّ إلّا في الوقت المناسب والمكان المناسب".

"في القسطنطينيّة؟"

"لا، لقد أعدتُ ترتيب أفكاري. ما القيمة المميّزة لأنْ أملك عبدًا في مكانٍ كلُّ الناس فيه يملكون عبيدًا؟ ما أريده هو أن أملك عبدًا -وحدي أنا- في عالمنا

الواقعي المتحضّر. عبدًا يستسلم عاجزًا لسلطتي الفردية، لأنه مولَعٌ بجمالي وشخصيّتي، لا بسبب قوة القانون أو حقوق الملكية أو الإكراه. هذا ما يفتنُني! لكن في كل الأحوال، سوف نسافر إلى بلادٍ لا يعرفنا فيها أحد، وهناك سوف تظهر أمام العالَم كخادمٍ لي من دون أيّ حرَج. ربما إلى إيطاليا، روما أو نابولي.

# (١٨)

كنا في غرفة فاندا، جالسين على الأريكة العثمانية. كانت تلتفُّ بوشاحٍ من فرو القاقم، وشَعرها مُسدَلٌ على كتفيها مثل لِبْدة الأسد. ألصقتْ شفتيها على شفتيّ، وراحتْ تستلُّ روحي من جسدي. صارت الدنيا تدور في رأسي، ودمي يغلي، وقلبي ينبضُ بقوةٍ ملامسًا صدرها، أو لعلَّه قفزَ من صدري إلى صدرها.

"أريدُ أن أكون تحت سلطتك المطلقة، فاندا". قلتُ محترقًا بلهيب الشغف، عاجزًا عن التفكير بصفاءٍ أو اتخاذ قرارٍ بحريّة: "أريد أن أضع نفسي كليًّا تحت رحمتك في السرّاء والضرّاء، من دون أي قيد أو شرط، من دون أيّ تحديدٍ لمدى سلطتكِ عليّ".

انزلقتُ من الأريكة إلى الأرض، عانقتُ ساقيها الملساوين، ونظرتُ إليها بعينين سكرانتين.

"كم تبدو جميلًا. عيناكَ نصفُ مغلقتين، في قمة النشوة، تطفحان بالفرح. احملني بعيدًا، ما أجمل رؤيتك وأنتَ تتعرّض للضرب حتى الموت، وأنت تقاسي سكرات الموت، لديك عينا شهيد بالفعل".

# (١٩)

في بعض الأحيان، وعلى الرغم من كل شيء، أشعر بخوفٍ عندما أفكّر بوضع نفسي، من دون قيد أو شرط، بين يدي امرأة. أتوقّع أنها سوف تتلاعب بمشاعري، وتتسلّى بحبّي.

حسنًا، في هذه الحال، سوف أختبرُ ما شغلَ تخيُّلاتي مُذْ كنتُ طفلًا، وما أعطاني دائمًا الإحساسَ بالرعب المثير. يا لَهُ من تخوّفٍ أخرق! إنها مجرّد لعبةٍ ماجنةٍ سوف تلعبها معي، ولا شيء أكثر، فهي تحبّني، وهي امرأة طيبة، نبيلة النفس، وتعجز عن خيانة الثقة. لكنّ الأمر بين يدها في حال أرادتْ ذلك. يا لسحرِ هذا الشكّ وإغرائه! يا لَخوفي منه!

الآن أفهم رواية "مانون ليسكو"، والفارس المسكين الذي أوصلتْه عشيقتُه إلى مخلعة التعذيب، وذهبتْ إلى رجلٍ آخر، وظلَّ يعبدُها.

الحب لا يعرف الفضيلة، لا يعرف المصلحة، إنه العشق والغفران والعذاب. في الحبّ... ليس العقلُ ما يقودُنا، ولا دورَ للمآثر أو الخطايا، فهو يجعلُنا نهجر أنفسنا أو ننفر منها.

إنه حلوٌ ورقيق، قوة غامضة تدفعنا إلى الأمام. نتوقّف عن التفكير، عن الإحساس، عن الإرادة. نتركُ ذواتنا تحلّقُ فوقَ جناحيه إلى البعيد، ولا تسأل: إلى أين؟

(٢٠)

جاء أميرٌ روسيّ إلى المنتجع اليوم، لفتَ انتباهَ الجميع وأثارَ إعجابهم، نظرًا لقَوَامه الرشيق ووجهه الجذّاب ومِشْيته المهيبة. كانت النسوة يَفْغَرْنَ أفواههنّ عند رؤيته وكأنه حيوان مفترس، لكنه يتابعُ سيره بغرورٍ غير آبهٍ بأحد. كان برفقته خادمان؛ الأول زنجيّ يتسربلُ ثوبًا أحمر، والثاني شركسيٌّ تعرفه من لباسه الفروسيّ البديع. بالصدفة رأى فاندا، فثبَّتَ نظرته الزرقاء الثاقبة عليها، حتى إنه أدارَ رأسه مع مشيتها. وبعدما عبرتْ من أمامه، وقفَ في مكانه جامدًا، مُرسِلًا عينيه وراءَها حتى أبعد مدى.

وهي، هي أيضًا، التهمتْهُ بشعاع عينيها الأخضر، وفعلَتْ كلَّ ما بوسعها لكي تلتقيه في "مصادفة" أخرى.

صارتْ فاندا تسيرُ وتتصرّف بنوعٍ من الدلال الماكر، فكِدْتُ أختنق. وحين لمَّحتُ لها حول الموضوع، عقدتْ حاجبيها وقالت: "ماذا تريد؟ الأمير رجلٌ قد أُعجبُ به، إنه يبهرُني، وأنا حرّة، أفعلُ ما أشتهي".

"ما عُدْتِ تحبّينني أبدًا؟"، تمتمتُ مذعورًا.

"لا أحبُّ أحدًا سواك، لكنْ يجبُ أنْ أجذب الأمير إليّ".

"فاندا".

"أَلَستَ عبدي؟ ألستُ أنا فينوس؟ فينوس الشمالية القاسية ذات الفراء".

بقيتُ صامتًا، شعرتُ أنّ كلماتها قد دمّرتْني تمامًا، بينما وقعتْ نظراتُها الباردةُ على قلبي مثل الخناجر.

"عليكَ أنْ تعرفَ وبأقصى سرعة: اسم الأمير، مكان إقامته، أحواله... هل تفهم؟"

"لكنْ!"

"لا تناقشْ! أطِعْ!"، قالتْ فاندا بحزمٍ أكثر مما كنتُ أتخيّل: "وإيّاكَ أنْ أرى وجهك قبل أن تأتي بهذه المعلومات".

لم أستطع الحصول على المعلومات التي طلبتْها فاندا حتى المساء، تركتْني واقفًا أمامها مثل أيّ خادم، بينما ظلّتْ مسترخيةً على كرسيّها الهزّاز، تستمع إليّ وتبتسم، ثم هزّتْ رأسها كتعبيرٍ عن الرضا.

"أحضِرْ لي مسندَ القدمين"، أمرَتْ باختصار.

أطعتُها، وضعتُ المسندَ أمامها، ثم وضعتُ قدميها عليه، وبقيتُ جاثيًا على ركبتيّ. سألتُها بعد صمتٍ وثير: "كيف ستنتهي هذه الحالة؟"

أطلقتْ ضحكةً هازئة: "لماذا؟ لم يبدأْ شيءٌ بعد".

"أنتِ متحجّرةُ القلب أكثر مما تصوّرتُ".

"سيفرين، لم أفعلْ شيئًا بعد، ولا أصغر شيء، وبدأتَ منذ الآن بوصفي بـ "متحجّرة القلب". فماذا سوف يحدث عندما أبدأ بتحويل أحلامك إلى واقع؟ عندما أعيش حياةً حرةً مرحة، وأجمع حولي جوقةً من المعجبين؟ عندما أحقّقُ لكَ مثالك الأعلى حرفيًّا، أدوسُكَ تحت قدميّ، وأجلدُكَ بالسوط؟"

"لقد أخذتِ أحلامي على محمل الجدّ أكثر من اللازم".

"على محمل الجدّ؟ عندما أبدأُ في أمرٍ ما، فإنني لا أستطيع الاكتفاء بالمظاهر والادّعاء. تعرف أنني أكرهُ التمثيليّات الهزلية، وأنتَ من تمنّى ذلك. هل كانت هذه فكرتي أم فكرتك؟ هل أنا من أقنعكَ بها أم أنتَ من ألهبْتَ مخيّلتي؟ صرتُ أنا الآن... مَنْ يأخذ الأمور على محمل الجد؟"

"فاندا... أصغي إليّ جيدًا، نحن نحبُّ بعضًا حبًّا لا حدود له، ونحن سعيدان جدًّا. هل تريدين التضحية بمستقبلنا كلّه من أجل نزوة؟"

"إنها ليستْ مجرّد نزوة".

"ما هي إذًا؟"

"شيءٌ ما كان كامنًا في أعماقي، لم يكنْ له أن يرى النور، لولا أنكَ قد بعثتَ الحياةَ فيه، وجعلتَه ينمو. لقد صار دافعًا قويًّا يملأ كياني، وبدأتُ أستمتع به، ولا يمكنني ولا أريد أن أفعل سواه. والآن تريد التراجع والهروب... أنت؟ ... هل أنت رجل؟!"

"عزيزتي فاندا، يا حلوتي". رحتُ أعانقها وأقبّلها.

"دعكَ من ذلك، أنت لست رجلًا".

"وماذا أنتِ؟"، انفجرتُ غضبًا.

"أنا عنيدة، وأنت تعرف ذلك. صحيحٌ أنني لا أملكُ خيالًا واسعًا، وأنني -مثلُكَ- أضعُفُ عند التنفيذ. لكنْ عندما أقرر أن أفعل شيئًا، فإنني أفعله، ويزداد إصراري بقدْرِ ما أواجه من صعوبات. الآن دعني لوحدي".

دفعتْني بعيدًا عنها، ووقفتْ.

"فاندا"، نهضتُ قبالتها، ووقفنا وجهًا لوجه.

"الآن تعرف من أنا. أحذّركَ للمرة الأخيرة، ما زال الخيار بين يديك، وأنا لا أجبركَ على أن تكون عبدًا لي".

"فاندا"، أجبتُها والشغفُ يملأ عينيّ بالدموع: "ألا تعرفين كم أحبّكِ؟"

مطَّتْ شفتيها بازدراء.

"أنتِ على خطأ، تصنعينَ من نفسكِ امرأةً أسوأ من حقيقتك، فأنتِ طيّبةٌ ونبيلة بالفطرة".

"وماذا تعرف عن فطرتي؟ سوف تعرف حقيقتي عمّا قريب. والآن قرّرْ؛ هل تستسلم لي من دون قيدٍ أو شرط؟"

"ماذا لو قلتُ لا؟"

"عندها..."

اقتربتْ مني خطوةً واحدة، ببرودٍ وخيلاء. وقفتْ أمامي وذراعاها متقاطعتان فوق صدرها، وابتسامةٌ شريرة ترتسم على شفتيها. كانت فتاة أحلامي المستبدّة بعينها، وجهٌ يُظهِر أَمَاراتِ القسوة، وعينان لا تعرفان العطف أو الرحمة.

"حسنًا"، نطقتْ وأخيرًا.

"أنتِ غاضبة... سوف تعاقبينني..."

"لا... لا، سوف أدعك تتركني، أنتَ الآن حرّ، وأنا غير متمسّكةٍ بك".

"فاندا، هذا أنا، من يعشقكِ إلى حدّ الجنون".

"نعم... نعم يا سيّد، أنتَ مَنْ يعشقني. لكنْ أضفْ فوق ذلك؛ مَنْ هو جبانٌ وكذّاب وخائنٌ للعهود. ارحلْ فورًا".

"فاندا... أنا..."

"صعلوك!"

احتقنَ قلبي بالدماء، رميتُ نفسي عند قدميها، وشرعتُ بالبكاء.

"دموع... أيضًا؟"، راحتْ تضحك، وكانت ضحكتها مرعبة. "اتركني، لا أريد رؤيتك بعد اليوم".

"يا إلهي! سوف أفعل كلَّ ما تأمرين به، سأكون عبدك، مجرّد شيءٍ تفعلينَ به ما تشائين. لكن لا تطرديني بعيدًا عنك، لا يمكنني تحمُّل ذلك، لا أستطيع العيش من دونك". عانقتُ ركبتيها، وغمرتُ يديها بالقُبُلات.

"نعم، يجب أنْ تكون عبدًا، وتذوقَ طعمَ السوط، لأنك لستَ رجلًا". قالتْها بهدوء، باتزانٍ رصين، من دون أيّ غضبٍ أو انفعال، وهذا ما يؤلم أكثر. "الآنَ

عرفتُكَ على حقيقتك، أنتَ كلبيُّ الطِبَاع، كلبٌ يعشق من يركلُه، ويزداد عشقًا كلّما تعرّض للإهانة أكثر. الآن عرفتُك، والآن عليك أنْ تعرفني".

راحتْ تتمشّى في الغرفة جيئةً وذهابًا، بينما بقيتُ منكسِرًا على ركبتيّ، رأسي مطأطأٌ إلى الأسفل، مُكلَّلٌ بالعار، والدموع تفيضُ من عينيّ.

"تعالَ إلى هنا"، أمرتْني فاندا بحزم، وهي تضطجع على الأريكة. أطعتُ أمرها، وجلستُ قربها. نظرتْ إليّ بإشفاق، ثم سطعَ ضوءٌ أنارَ وجهها كاملًا. ابتسمتْ وجذبتْني إلى صدرها، وراحتْ تقبّلُ الدموعَ المتساقطةَ من عينيّ.

# (٢١)

الشيء الغريب في حالتي هذه، هو أنني مثلُ الدبّ في حديقة الزنبق، أستطيعُ الهروب ولكنني لا أريد. فأصيرُ مستعدًّا لتحمُّل كلّ شيء منها، حالما تهدّدُ بإطلاق سراحي.

# (٢٢)

أتمنّى لو تستخدم السوطَ مرةً أخرى، فهنالك شيءٌ غريب في اللطافة التي تعاملُني بها. أحسُّ أنني مثلُ فأرٍ صغيرٍ محبوسٍ في قفص، ومعهُ قطّةٌ جميلة تداعبُهُ بلطف، لكنها قادرةٌ في أي لحظةٍ على أنْ تمزّقه إربًا إربًا، وقلبي –قلب الفأر- يكادُ ينفجر.

ما هي نواياها؟ ما الذي تخطّطُ لفعله بي؟

# (٢٣)

يبدو أنها قد نسيت العقد تمامًا، عقد عبوديّتي. أم أنه ضربٌ من العناد فحسب؟ هل تخلّتْ عن خطّتها حين رأتْني ما عدتُ أخضعُ لها، وأسلّمُ رأسي لنزواتها السلطانية؟

كم هي لطيفةٌ معي! وحنونة ومحبّة. إننا نقضي أيامًا بالغة السعادة.

اليوم قرأتُ لها المشهد الذي يجمع "فاوست" مع "مفيستوفيليس"، حين يظهر الأخيرُ كعالِمٍ متجوّل. وكانت عيناها تتشبّثانِ بي باستمتاعٍ لذيذ.

"لا أفهم!"، قالتْ لي عندما أنهيتُ القراءة: "كيف لرجلٍ يقرأُ هذه الأفكار الرائعة العظيمة بأسلوبٍ أخّاذ، ويحلِّلُها بوضوحٍ وعمقٍ وذكاء، أنْ يكون في الوقت ذاته موهومًا وأبله، مرهفَ الأحاسيس! مثلك أنت".

"أنتِ سعيدةٌ إذًا"، قبّلتُ جبينها.

"أحبك يا سيفرين، أعتقد أنني لن أحبُّ أحدًا أكثرَ ممّا أحببتُك. دعنا نصبحْ عاقلَين، ما رأيك؟"

بدلًا من الإجابة، رميتُ ذراعيّ حولها، عانقتُها بقوة، وجذبتُها إلى صدري عميقًا. على الرغم من ذلك، ملأتْ سعادةٌ حزينةٌ وغامضة صدري، فاغرورقتْ عيناي بالدموع، ثم سقطتْ دمعةٌ من عيني على يدها.

"كيف لكَ أنْ تبكي؟ ... أنتَ مجرّد طفل!"

# (٢٤)

أثناء رحلة ممتعة بالعربة، لَمَحْنا الأميرَ الروسيّ عابرًا في عربته أيضًا. يبدو أنه قد تفاجأ وانزعجَ حين رآني جالسًا إلى جانب فاندا، فنظرَ إليها وكأنه يحاول طعنَها بشعاعِ عينيه الرماديتين. أما هي فتصرّفتْ وكأنها لا تراه! كم تمنّيتُ في تلك الحظة أنْ أركع أمامها وأقبّل قدمها! إذ تركتْ نظرةَ عينيها تمرُّ فوقَ الأمير بلا مبالاة، وكأنه شيءٌ من الأشياء الموجودة في الطريق، شجرة على سبيل المثال. ثم التفتتْ إليَّ وابتسمتْ.

# (٢٥)

عندما قلتُ لها "تصبحين على خير" هذه الليلة، بدتْ شاردةَ الذهن ومزاجيّة بشكلٍ لم أفهمه. ما الذي يشغل بالَها يا تُرى؟

"أعتذر، لكنْ عليكَ الرحيل"، قالتْ عند باب غرفتها.

"الأمر برمّته بين يديك، يمكنكِ أن تختصري فترة محاكمتي القاسية، يمكنك أنْ تتوقفي عن تعذيبي".

"هل تتصوّر أنّ هذا الاتفاق لا يعذّبني أيضًا؟"

"إذًا، دعيه ينتهي"، عانقتُها وقلت: " كوني زوجتي".

"أبدًا يا سيفرين"، قالتها بلطف، لكن بحزمٍ شديد.

"ما الذي تقصدينه؟"، كان الرعبُ يزلزل أعماق روحي.

"أنتَ لست الرجلَ المناسب لي".

حدّقتُ في عينيها، سحبتُ ذراعي التي ما زالتْ ملتفّةً حول خصرها ببطء، وغادرتُ الغرفة. أما هي؛ فلم تنادني لكي أعود.

# (٢٦)

لم أعرف النوم هذه الليلة، اتخذتُ قراراتٍ لا حصرَ لها، ثم تراجعتُ عنها جميعًا. في الصباح كتبتُ لها رسالةً، أصرّح فيها أنّ علاقتنا قد انتهت. ارتجفتْ يداي وأنا أختمُ المغلَّف بالشمع، فاحترقتْ أصابعي.

وأنا أصعدُ الدرجَ لكي أسلّم الرسالة إلى الخادمة، خانتْني رجلاي وخارتْ ركبتاي.

فُتحَ البابُ، ومدّتْ فاندا رأسَها المجلَّلَ بلفّافات الشَعر إلى الخارج: "لم أُمشّطْ شعري بعد، ماذا معك؟"

"رسالة".

"لي؟"

أومأتُ برأسي.

"آه... تريد أنْ تُنهي ما بيننا؟"، سألتْ باستهزاء.

"أَلَم تقولي البارحة إنني لستُ الرجل المناسب لك؟"

"نعم، وأكرّرها الآن".

"حسنًا، إذًا"، ارتجف جسدي بأكمله، وجفَّ صوتي. ثم سلّمتُها الرسالة.

"احتفظْ بها"، قالتْ وهي ترمقني من الأعلى إلى الأسفل وبالعكس: "لقد نسيتَ أنّ المسألة لم تعدْ إذا ما كنتَ ترضيني كرجل أم لا، لكنكَ ستكون عبدًا طيّبًا من دون شكّ".

"سيّدتي!"، صرختُ مصعوقًا.

"هكذا يجب أن تناديني من الآن فصاعدًا"، ثم رفعتْ أنفها إلى الأعلى بازدراءٍ لا يوصَف: "رتّبْ أمورك خلال أربعٍ وعشرين ساعة، لأنني سأسافر إلى إيطاليا بعد غدٍ، وسوف ترافقني بوصفك خادمي".

"فاندا!".

"لا أسمح أبدًا بأنْ ترفع الكلفةَ بيننا. وكذلك؛ إيّاكَ أنْ تأتي إليّ من دون أنْ أناديكَ أو أدقّ لك الجرس، وإياكَ أنْ تتكلّم معي إلا عندما أكلّمك. من الآن فصاعدًا لم يعُد اسمُكَ سيفرين، صار اسمُك غريغور"[٥٠].

ارتجفتُ غضبًا، ومع ذلك، لا أنكرُ أنني شعرتُ بلذة غريبة وانتشاءٍ مثير.

"لكنْ يا سيدتي... تعرفين ظروفي"، بدأتُ الكلام مرتبكًا: "أنا أعتمدُ على والدي، وأشكُّ إذا ما كان سوف يعطيني مبلغًا كبيرًا من المال يكفي لهذه الرحلة".

"هذا يعني أنك لا تملك أي نقودٍ يا غريغور؟"، ابتسمتْ وأضافتْ: "هذا أفضل بكثير، هذا يعني أنك معتمدٌ عليّ بالكامل، وبالتالي ستصبح عبدي بكل معنى الكلمة".

"أنتِ لا تأخذين بعين الاعتبار، أنّ أمرًا كهذا مستحيلٌ بالنسبة إلى رجلٍ نبيل مثلي".

---

٥٠ - سيفرين: اسم علم مشتقّ من الكلمة اللاتينية (Severus) ويعني الشخص الجادّ الحازم. أما غريغور فهو مشتقّ من الكلمة اللاتينية (Gregorius) ويعني الشخص اليَقِظ المحترس. وهو كذلك اسم نمطي للخادم في روسيا وأوكرانيا، فقد يُنادى الخادم بـ غريغور بغضّ النظر عن اسمه الأصلي.

"لقد أخذتُ كلّ الأمور بعين الاعتبار. بالنسبة إلى رجلٍ نبيل مثلك؛ يجب عليك أنْ تصون عهدك وتفي بوعدك، أيْ أنْ تتبعني كعبدٍ حيثُما أريد، وأنْ تطيع كلَّ ما آمرك به. والآن انصرفْ، غريغور".

اتجهتُ نحو الباب.

"ليس بعد، يجبُ أنْ تقبّل يدي". مدّتْ يدها إليّ بغرورٍ شديد وبُرودٍ صَلْد. وأنا الهاوي، أنا الحمار، أنا العبد البائس، قبّلتُ يدها بشفتين تتلظّيانِ شغفًا.

بعد ذلك، كانت هنالك ابتسامةٌ لطيفة منها.

بعدها، كنتُ مطرودًا.

# (٢٧)

كنتُ في ساعةٍ متأخرةٍ بعد منتصف الليل، مصباحُ غرفتي مُضَاء، والنارُ مشتعلة في الموقد الأخضر الكبير. عندي الكثير من العمل بخصوص أوراقي ومستنداتي، فهي تحتاج إلى فرزٍ وتصنيف. أما الخريف –كعادته- فقد هبطَ علينا بكل قوته وثقله.

فجأةً، نقرَتْ على زجاج النافذة بمقبض السوط.

فتحتُ النافذة، فرأيتُها واقفةً في الخارج، ترتدي معطفًا موشّىً بالفراء، وفوقه القبّعة القوزاقيّة المستديرة المصنوعة من فرو القاقم، تلك المفضّلة لدى كاثرين العظيمة.

"هل أنت جاهز يا غريغور؟"

"ليس بعد يا سيدتي".

"أحبّ هذه الكلمة، يجب عليك دائمًا أنْ تناديني: سيدتي. هل تفهم؟ سوف نغادر في الساعة التاسعة من صباح الغد، سوف ترافقني من هنا وحتى عاصمة المقاطعة بوصفكَ صديقًا لي، أما بعدَ أنْ ندخل عربة القطار، فسوف تصبح عبدًا لي، خادمًا لي. الآن أغلِق النافذة وافتح الباب.

بعدما نفّذتُ أوامرها، وبعد أنْ دخلتْ، سألتني وهي تقطّب حاجبيها: "كيف تراني؟"

"فاندا... أنتِ..."

"من سمح لك؟"، ناولتْني ضربةً بالسوط.

"أنت جميلة جدًا، يا سيدتي".

ابتسمتْ، ثم جلستْ على الكرسيّ: "اجلسْ هنا، جانب الكرسيّ".

أطعتُها.

"قبِّلْ يدي".

أمسكتُ يدها الصغيرة الملساء وقبّلتها.

"وفمي".

رفعتْني موجةُ عشق، ورميتُ ذراعيّ حول الفاتنة القاسية. رحتُ أغمرُ وجهها وذراعيها ونهديها بالقُبلات الحارقة. وهي أيضًا، ردَّت القُبلاتِ إليّ بأخرى أشدَّ حرارة. كانت عيناها منطفئتين، وكأنها غارقةٌ في حلم بعيد.

# (٢٨)

في تمام الساعة التاسعة صباحًا، كانت كلُّ الأمور جاهزةً للرحيل. غادرنا المنتجع الصحي في جبال الكاربات، في عربةٍ خفيفة ومريحة. الحبكةُ الدراميّة لأكثر المسرحيّات إثارةً وتشويقًا في حياتي، تبلغُ ذروتها الآن. لكنّ أحدًا لن يستطيع التنبّؤ أو التكهّن؛ كيف سوف تُحلُّ هذي الحبكة؟!

سارت الأمور على ما يرام، جالسًا قرب فاندا، تتحدث معي بلطفٍ وظرافة، وكأنني صديقها الحميم. حدثتْني عن إيطاليا، وراوية بيسِمْسكي[٥١] الجديدة، وموسيقى فاغنر[٥٢]. كانت ترتدي للسفر ملابسَ أشبَهَ بالأمازونيّات[٥٣]؛ بنطالًا من الجلد الأسود، وفوقه معطفٌ قصير مسوَّر بفروٍ غامق، يضيقُ على خصرها كثيرًا، ويُبْرِزُ صدرَها بشُموخٍ جليل. كان شَعرها مربوطًا ربطةً تقليدية، فتنسابُ خصلاته من تحت قبعة الفرو السوداء، وللقبّعة طَرْحةٌ مُنقَّبةٌ تنسدلُ أمام الوجه. كانت فاندا حاضرة النكتة هذا اليوم، تداعب شعري قليلًا، وتطعمني بعض السكاكر، ثم مدّتْ وشاحًا فوق حضني وحضنها، وأمسكتْ يدي من تحته. وبينما كان الحوذيُّ اليهوديّ مشغولًا بقيادة العربة، كانت تقبّلني خلسةً، وكان لشفتيها شذىً بارد مُنعِش، وكأنهما وردةٌ

---

٥١ - أَلِكْسي بيسِمْسكي (١٨٢١-١٨٨١): روائي ومسرحي روسي، من رواياته: "ألفُ روح" و "المغفّل"، ومن مسرحياته: "قدَرٌ مرير" و "رجال فوق القانون".

٥٢ - ريتشارد فاغنر (١٨١٣-١٨٨٣): موسيقار ألماني، صبغ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بموسيقاه، بالإضافة إلى كونه شاعرًا ومؤلفًا مسرحيًّا وأوبراليًّا.

٥٣ - وردت النساء الأمازونيّات في الأسطورة الإغريقية بوصفهنّ شعبًا من النساء المحاربات، يتميّزن بكَيّ الثدي الأيمن لكي يسمح بزيادة قوة الذراع اليمنى. وبينما نسبَهُنَّ هيرودوت إلى الأناضول وغرب فارس، فإنّ المكتشَفات الحديثة تُرجّح أنّ موطنهنّ الأصلي كان في شمال البحر الأسود، أي القِرم وأوكرانيا.

خريفية يانعة، أزهرتْ وحدَها بين سُويقات النباتاتِ الجرداء والأوراق الصُفر.
وفوق تُوَيج هذي الوردة، أودعَ الصقيعُ أوّلَ لؤلؤةٍ من الجليد.

# (٢٩)

نحن الآن في عاصمة المقاطعة، وها قد وصلنا إلى محطة القطار. خلعتْ فاندا المعطف القصير وعلّقته على كتفي، ثم ذهبت لشراء التذاكر.

عندما رجعتْ، كانتْ شخصًا آخر كليًّا.

"هذه هي تذكرتك يا غريغور"، قالتْها بنبرة صوت السيدات المتغطرسات.

"تذكرة من الدرجة الثالثة؟"، أجبتُ بضحكةٍ مرتعبة.

"بالطبع. ويجب أنْ تكون حذرًا، فلا تصعد إلى القطار إلّا بعد أنْ أجلس في مقصورتي، وبعد أنْ تتأكّد من أنني لا أريد منك أي شيء. وعند كلّ محطة يتوقف فيها القطار، سوف تركض فورًا لعندي وتسألني عن طلباتي. لا تنسَ! والآن ناولني معطف الفرو".

بعدما ساعدتُها في ارتدائه، خجولًا كعبد، ذهبتْ لتبحثَ في عربات الدرجة الأولى عن مقصورة فارغة، ثم صعدتْ مستندةً على كتفي وجلستْ في مقصورتها الخاصة. لففتُ قدميها بفروة دبّ، وأسندتُهما على كيس الماء الساخن.

بإشارةٍ من عينيها، صرفتْني. صعدتُ إلى عربة الدرجة الثالثة ببطء وتوجّس، وكانت تعجُّ بدُخانِ التبغ الرخيص الذي بدا مثل ضباب نهر أخيرون[٥٤] عند

[٥٤] - أخيرون: في الأسطورة الإغريقية، أحد الأنهار الخمسة في العالم السفلي (هاديس)، وفيه ينقل خارون أرواحَ الموتى بقاربه إلى العالم الآخر.

البوابة المؤدية إلى العالم السفلي. لديّ الآن وقتُ الفراغ الكافي لأستغرق في التفكير، وأفسّرَ لغز الوجود البشري، وأتأمّل أعظم ألغازه قاطبةً: النساء.

# (٣٠)

كلما توقف القطار، أقفزُ وأركض إلى عربتها، وبقبّعةٍ نازلةٍ إلى جبيني أنتظرُ أوامرها. تريدُ قهوة، ثم كأس ماء، وفي مرةٍ أخرى وعاءً من الماء الدافئ لكي تغسل يديها، وهكذا سارت الأمور. لقد دخل بعض الرجال إلى مقصورتها، وراحوا يتودّدون إليها. بينما كنتُ أموتُ غيظًا، وأقفزُ مثل الظبيّ من عربتي إلى مقصورتها، لكي أؤمّن لها ما تريد، وأقدر على اللحاق بالقطار.

حلّ الليل، ولم أستطع أنْ آكل لقمةً واحدةً طوال النهار، أو أغفو لدقيقة. كنتُ مُجبرًا على استنشاق الهواء المشبَع برائحة البصل، مع الفلاحين البولنديين، والبائعين المتجوّلين اليهود، وعساكر الخدمة الإلزامية.

عندما كنتُ أعتلي درجاتِ مقصورتها الخاصة، كنتُ أجدها مستلقيةً بين الوسائد، متّشحةً بالفراء الوثير، ومغطّاةً بجلود الحيوانات. كانت تبدو مثل سلطانةٍ شرقيّة، بينما يتحلّقُ الرجالُ حولَها مثل آلهة الهنود، واقفينَ باستقامة، مستندين إلى الجدران، وبالكاد يجرؤون على التنفُّس.

# (٣١)

قرّرتِ التوقّف في فيينا ليومٍ واحد من أجل التسوّق، وتحديدًا لكي تشتري تشكيلةً من الفساتين الفاخرة. ما زالت تعاملني كخادمٍ لها، أسيرُ خلفها مراعيًا مسافة الاحترام المطلوبة؛ عشرَ خطوات. تحمّلني الأكياس من دون أن تتنازل وتتفضّل عليّ بنظرة ودٍّ واحدة، بينما أتابع المشي خلفها مُنهكًا بالأحمال، مطأطأً الرأس والكتفين، لاهثًا مثل الحمار.

قبل أن نغادر، أخذتْ كلَّ ثيابي ووهبتْها إلى عمّال الفندق، وأمرتْني بأنْ ألبسَ ثياب الخدم التي اشترتْها لي. وهو زيٌّ كراكوفيّ[٥٥] أزرق فاتح، له صدريّة حمراء، وقبّعة حمراء مربّعة الشكل ومزيّنة بريشة طاووس. وفي الحقيقة كان الزيُّ لائقًا عليّ.

أحسُّ أنني أُباعُ في سوق النخاسة، أو أرهنُ نفسي للشيطان، وها هي الشيطانة الجميلة تقودني من فيينا إلى فلورنسا. بدلًا من المازوفيين[٥٦] ذوي الثياب المخطّطة، ومن اليهود ذوي الشَعر المُزيّت، فإنّ رفاقي في الرحلة الآن هم الفلاحون الإيطاليّون ذوو الشعر الأجعد، ونقيبٌ وسيمٌ من قوات النخبة الإيطالية، ورسّام ألمانيّ فقير. لم يعُدْ لدُخانِ التبغ رائحة البصل، بل رائحة الجبنة والسلامي.

حلَّ الليلُ مجدّدًا، استلقيتُ على السرير الخشبيّ الأشبه بمِخْلَعة التعذيب، شعرتُ أنّ ذراعيّ وساقيّ مكسّرةٌ من التعب. لكن على الرغم من ذلك،

---

٥٥ - نسبةً إلى مدينة كراكوف في بولندا.

٥٦ - نسبةً إلى منطقة مازوفيا الواقعة في وسط بولندا.

أحسستُ بشاعرية المكان؛ فالنجوم تتلألأ من حولنا، وللنقيب الإيطالي وجهٌ يشبه "أبوللو بلفدير"[٥٧]، والرسّام الألماني يشدو بأغنيةٍ ألمانية حلوة:

"تحتشدُ الظلالُ كثيفةً
والنجومُ الخالدةُ تبثُّ الضياء،
يملؤني شوقٌ عميقٌ
ويفيضُ في أنحاء الليل.
عبرَ بحرٍ من الأحلام
مُبْحرٌ دون توقّفٍ
مُبْحرةٌ روحي صوبَ روحكِ
لعلَّها تجدُ الخلاص".

أسمعُها، وأفكّرُ بالفاتنة النائمة بهناءٍ ملوكيّ وسطَ فرائها الوثير.

٥٧ - أبوللو بلفدير: تمثال رخامي نحته الفنان الإغريقي "ليوخارس" في القرن الرابع قبل الميلاد.

# (٣٢)

فلورنسا! الزُحام، الصُراخ، الحمّالون اللجُوجون، وسائقو عرباتِ الأُجرة. انتقتْ فاندا عربة أجرة، لكنها صرفتِ الحمّالين. ثم قالتْ: "لماذا لديّ خادمٌ إذًا؟ غريغور هذه هي التذكرة، أحضِرِ الأمتعة".

جلستْ في العربة بارتخاء، ملتفّةً بالفراء. بينما كنتُ أنقل الحقائب الثقيلة من القطار إلى العربة، واحدةً تلو الأخرى. وأثناء حمل الحقيبة الأخيرة، خارَتْ قِواي، فنزلتُ على ركبتيّ ألهث. رآني شرطيٌّ إيطاليّ وسيم، فأسرع إلى مساعدتي.

ضحكتْ فاندا: "لا بُدّ أنّ هذه الحقيبة ثقيلة، ففيها معاطف الفرو كلها".

صعدتُ إلى مقعد الحوذيّ والعرقُ يتصبّبُ من جبيني. أعطتْهُ فاندا اسم الفندق، فضربَ الأحصنة بقوة، وخلال دقائق كنّا أمام مدخل الفندق الفخم المضيء.

"هل لديكُم غرف؟"، سألتِ البوّاب.

"نعم سيدتي".

"اثنتان لي، وواحدة لخادمي، وجميعها مزوّدة بالمدافئ".

"لدينا غرفتانِ من الدرجة الأولى مزوّدتانِ بالمدافئ من أجلك سيدتي. وهنالك غرفة غير مدفّأة... لخادمك".

"هذا جيّد. أوقدِ النارَ في إحدى غرفتيّ، أما خادمي فيمكنه النوم في غرفةٍ باردة".

لم أجرؤْ على النظر في عينيها.

"أنزِل الحقائب يا غريغور"، أمرتْني غير مهتمةٍ بما يرتسم على وجهي. "سوف أبدّلُ ملابسي، وبعدها ننزل إلى قاعة الطعام، ويمكنكَ تناول شيءٍ على العشاء".

بينما دخلتْ إلى الغرفة المجاورة، كنتُ أجرُّ الحقائبَ إلى الطابق العلويّ، وأساعدُ النادل بإشعال النار في غرفة نومها. شبّتِ النارُ وظهرَ الموقدُ الأنيق بوضوح، والسريرُ الأبيض ذو الأعمدة العالية، والسجاجيد التي تكسو الأرض. ثم نزلتُ السلالم جائعًا ومتعبًا، وطلبتُ شيئًا للأكل. كان النادلُ طلْقَ المُحيّا، وجنديًّا سابقًا في الجيش النمساوي، بذلَ كلَّ جهوده لتسليتي بما يعرفه من اللغة الألمانية، فأخذني في جولةٍ في القاعة، ثم قدّم لي الطعام. كان أوّل شرابٍ عذبٍ أشربه بعد ستّ ساعاتٍ من العطش، وأوّل لقمةٍ أتذوّقها من الطعام الساخن، ثم دخلتْ فاندا فجأة.

تركتُ الشوكة ووقفت.

"ما الذي تقصده بأنْ تأخذني إلى قاعة الطعام حيث يتناول خادمي عشاءَه؟!"، زجرتِ النادلَ بعنفٍ وهي تستشيطُ غضبًا، ثم أدارتْ ظهرها وانصرفت.

شكرتُ السماء! لأنها قد سمحتْ لي بمواصلة الأكل. بعد ذلك، صعدتُ أربعة طوابق حتى وصلتُ إلى غرفتي. كانت حقيبتي الصغيرة تنتظرني، وثمة مصباحٌ زيتيّ تعيس يضيءُ الغرفة بشحوب. كانت غرفةً ضيّقة لا موقد فيها ولا نافذة، لكن فيها فتحةٌ صغيرة للتهوية. لو لم تكنْ باردةً إلى هذه الدرجة، لحسِبْتُها واحدةً من حجرات الاعتقال الواقعة تحت قصر دوق فينيسيا. رغمًا عني، أطلقتُ ضحكةً صاخبة، فارتدَّ صداها إليَّ وفزعتُ من ضحكتي.

فجأةً فُتح الباب، وقف النادلُ بطريقةٍ متكلّفة وقال: "يجب أنْ تنزل إلى غرفة السيّدة فورًا". وضعتُ القبعة على رأسي، ترنّحتُ في خطواتي الأولى، لكنني وصلتُ أخيرًا إلى غرفتها في الطابق الأول، وقرعتُ الباب.

"ادخُلْ". دخلتُ وأغلقتُ الباب خلفي، ووقفتُ باستعداد.

كانتْ فاندا مضطجعةً على ديوانٍ أحمر صغير، ترتدي ثوبًا شفافًا من الموصلين الأبيض، ممدِّدةً رجليها على مسنَد القدمين. على كتفيها معطفُ فرو، هو المعطفُ ذاته الذي رأيتُها فيه لأول مرة، حين رأيتُ ربّة الحبّ لأول مرة. كانتْ ألسنةُ اللهبِ الصفراء الصاعدة من الشمعدان الضخم، تنعكسُ بأخيلَتها فوق المرايا الكبيرة. بينما تتراقصُ النيرانُ الحمراء المتوهّجةُ في الموقد، وتنعكسُ بألوانها الجميلة على السجادة الخضراء، على فرو السَّمُّور الأسود، على الجسد الأبيض البَضّ، وعلى الشعر الأحمر الملتهب لهذه السيدة الفاتنة. استدار وجهُها البارد نحوي، واستقرّتْ عيناها الخضراوان الباردتان عليّ. "أنا راضيةٌ عنكَ يا غريغور"، انحنيتُ. "تعالَ واقتربْ"، أطعتُ، "أقرب".

نظرتْ إلى الأسفل وداعبتِ الفرو بيدها: "فينوس ذات الفراء تستقبلُ عبدَها. أرى أنكَ أكثرُ من حالمٍ عاديّ، أنتَ من فصيلة الرجال القادرين على تحقيق أحلامهم، مهما كانت أحلامًا مجنونة. أعترفُ لك، هذا الأمرُ يعجبني ويدهشني. ثمة قوّةٌ في ذلك، والقوّة هي الشيءُ الوحيد الذي يستحقُّ الاحترام. في حالة الظروف الاستثنائية، ولو كنّا نعيشُ في عصر المآثر البطوليّة العظيمة، فإنّ ما يظهرُ على أنه ضعفٌ منك، سوف يكشِفُ عن قوّته الخارقة. لو كنّا في زمن الأباطرة الأوائل، لكنتَ شهيدًا. وفي عصر الإصلاح الديني، لكنتَ من معارضي تعميد الأطفال. أما لو كنّا أثناء الثورة الفرنسية، لكنتَ واحدًا من أعضاء

الحزب الجمهوري المعتدل، تعتلي المقصلة بشجاعةٍ وأنتَ تردّدُ النشيد الوطني. لكنكَ عبدي، عـ...".

نهضتْ فجأةً، انزلقَ معطفُ الفرو عن كتفيها، ولفّتْ ذراعيها بعنفٍ لطيفٍ حول عنقي: "عبدي الحبيب، سيفرين، آهٍ كم أحبّك، كم أعشقك، كم تبدو وسيمًا في زيّكَ الكراكوفيّ! سوف تبرد هذه الليلة في غرفتك التعيسة من دون مدفأة، هل أعطيكَ واحدًا من معاطف الفرو يا حبيبي؟ ذاك الكبير هناك؟".

التقطتْه بسرعة، وألقتْه على كتفي، وقبل أنْ أدركَ ما يجري كنتُ ملتفًّا بالفراء بالكامل. "كم يليقُ الفراءُ بوجهكَ الرائع! فهو يُظهر ملامحك النبيلة. حين تكفُّ عن كونكَ عبدي، يجب عليك أنْ ترتدي معطفًا مخمليًّا مزيّنًا بفرو السَّمُّور. هل تفهم؟ وإلّا فإنني لن أرتدي الفراء بعد اليوم".

راحتْ تعانقني وتقبّلني، ثم سحبتْني معها إلى الديوان: "يبدو أنكَ مسرورٌ بارتداء الفراء. بسرعة، بسرعة أعِدْهُ إليّ، وإلّا سوف أفقدُ هيبتي كلّها". وضعتُ الفرو حولها، فأدخلتْ ذراعها اليمنى في الكمّ وقالتْ: "هذه وضعيّةُ فينوس في لوحة تيتيان. لكنْ يكفي مزاحًا الآن، لا تكنْ مكتئبًا على الدوام، فهذا يشعرني بالحزن. الآن، وطالما أنّ الحياة باقيةٌ على وجه الأرض، فأنت مجرّدُ خادم لي، لم تصبحْ عبدي بعد، لأنك لم توقّع العقدَ حتى اللحظة. ما زلتَ حرًّا، ويمكنكَ تركي متى تشاء. لقد أدّيتَ دوركَ بشكلٍ رائع، وأنا استمتعتُ أيضًا، لكنْ أَلَمْ تتعبْ من ذلك؟ ألا تفكّر بأنني امرأةٌ مُريعة؟ حسنًا، قُلْ شيئًا، آمرُكَ أنْ تقول".

"فاندا، هل يمكنني أنْ أعترف لكِ بشيء؟"

"بل يجبُ عليك".

"حتى لو أغضبكِ ذلك؟ حسنًا، سوف أحبكِ أكثر وأعبدكِ بجنونٍ أكبر، كلما عاملتني بشكلٍ أسوأ. ما فعلتِهِ معي لحدّ الآن، ألهبَ جسدي وأسكرَ حواسّي".

جذبتُها إليَّ وصعدتُ بأنفاسي نحو شفتيها المُخضَلَّتين: "آهٍ كم أنتِ جميلة!". اشتعلتْ رغبتي أكثر، فنزعتُ الفرو عن كتفيها، ورحتُ أقبّل عنقها بشراهة.

"إذًا أنتَ تحبّني، حتى عندما أكون قاسية؟ ... اذهبْ، أنتَ تضجرني، ألا تسمع؟". صفعتْني على أذني بقوةٍ، حتى أنني رأيتُ نجومًا تدور في عيني، وسمعتُ أجراسًا تُقرَع في أُذني. "ساعِدْني على ارتداء الفراء يا عبد"، ساعدتُها. "كم أنتَ أحمق"، وما أن انتهتْ من لبس الفراء حتى صفعتْني على وجهي من جديد، فشعرتُ بوجهي قد اصفرَّ. "هل أوجعتُكَ؟"، سألتْني وهي تلمس خدّي برفق.

"لا، لا أبدًا".

"في كل حال، لا يحقُّ لكَ أنْ تتذمّر، فأنتَ من طلبَ ذلك. والآن قبّلْني". رميتُ ذراعيّ حولها، والتهمتُ شفتيها. كان جسدها ملتصقًا بجسدي، ومن كتفيها يتدلّى معطفُ الفرو السميك. فجأةً تملّكني إحساسٌ غريب لا يُطاق، شعرتُ كما لو أنّ حيوانًا مفترسًا، كما لو أنها دُبّة... تعانقني. أحسَسْتُ أنني سأذوق - بعد قليلٍ- طعمَ مخالبها وهي تنغرزُ في لحمي، لكنّ الدُّبّة هذه المرة تركتْني وشأني.

بقلبٍ مفعمٍ بالآمال المبتسمة، صعدتُ إلى غرفتي –غرفة الخادم- البائسة، ورميتُ نفسي فوق الأريكة الصلبة. الحياةُ مهزلةٌ مذهلة حقًّا، فقبلَ دقائق كانتْ أجملُ نساء الأرض، فينوس ذاتها، تستلقي على صدري. والآن لديّ الفرصةُ لتجريب الجحيم الصينيّ، فهُمْ على عكسنا، لا يُلقون الملعونين في النار، بل في أراضٍ مغطّاةٍ بالثلج، تطاردُهم فيها الشياطينُ إلى الأبد. على الأرجح، فإنّ مؤسّسي ديانتهم تلك، قد سبقَ لهم أنْ ناموا في غرفٍ متجمّدة مثل غرفتي هذه.

# (٣٣)

أثناء الليل، استيقظتُ من نومي وأنا أصرخ. حلمتُ أنني ضائعٌ وسط أرضٍ مغطّاة بالجليد، أحاولُ عبثًا إيجاد مخرج. فجأةً عبَرَ واحدٌ من الإسكيمو وهو يقود عربةً تجرُّها الأيائل، وجهُه هو وجهُ النادل الذي دلَّني على غرفتي الباردة لأول مرة.

"ما الذي تبحثُ عنه يا سيدي؟ إنه القطب الشمالي".

اختفى بعد لحظة، ثم ظهرتْ فاندا وهي تنطلقُ على زلّاجةٍ صغيرة. كانت تنّورتُها الساتان القصيرة ترفرفُ في الهواء، وتصدرُ صوتًا غريبًا. فوق التنوّرة معطفٌ وقبّعةٌ من الفرو. أما وجهُها فكان يشعُّ بياضًا، كان أكثر بياضًا من الثلج ذاته. اتّجهتْ نحوي وعانقتْني، ثم بدأتْ بتقبيلي. فجأةً أحسَسْتُ بدمٍ حارّ ينزف من خاصرتي. "ماذا تفعلين؟"، سألتُها مطعونًا بالرعب. ضحكتْ. لكنها لم تعُدْ فاندا، بل دُبّة بيضاء ضخمة، تنشبُ مخالبها في لحمي.

صرختُ بأعلى صوتي، ثم استيقظتُ، وما زلتُ أسمع ضحكتها الشيطانية حتى بعد استيقاظي. أجَلْتُ عينيّ في أرجاء الغرفة مذهولًا.

في الصباح الباكر كنتُ واقفًا عند بابها، جاء النادل حاملًا فنجان القهوة، فأخذتُه منه وقدّمتُه إلى سيدتي الجميلة. كانت قد ارتدتْ ملابسها، وازدادتْ جمالًا، كلُّ ما فيها مُشرقٌ ووورديّ. ابتسمتْ حين رأتْني، وطلبتْ مني أن أرجع حينما كنتُ أهُمُّ بالخروج.

"تعالَ يا غريغور، تناولْ فطورك أيضًا، ثم نذهب معًا للبحث عن بيت. لا أريد البقاء في الفندق أكثر من ذلك، الوضعُ مُحرِجٌ للغاية هنا، لو تحدثتُ إليك

لأكثر من دقيقة، سيقول الناس فورًا: الروسيّة الجميلة تقيمُ علاقةً مع خادمها! وكما ترى، فإنّ نسلَ الكاثرينات لم ينقرضْ بعدُ".

خرجنا بعد نصف ساعة، كانت ترتدي فستانًا طويلًا وقبّعةً روسية، بينما بقيتُ مرتديًا زيّي الكراكوفيّ. كنا نسير بهدوءٍ تامّ، أمشي خلفها بعشر خطوات، وعلى وشكِ الانفجار ضاحكًا في أيّ لحظة. كانت معظم البيوت الجذّابة في المدينة تضعُ إشارة "غرف مفروشة". وكانت فاندا ترسلُني في كل مرةٍ إلى الأعلى، لكي أُعاينَ الشقة وفقًا للشروط التي وضعتْها. وحين تكون الشقةُ مطابقةً للمواصفات المطلوبة، تقرّر الصعود لرؤيتها بنفسها. كنتُ منهكًا مثل ظبيٍ طريدٍ أردتْهُ السهام.

دخلنا بيتًا آخر، وغادرناه مجدّدًا، ولم نجد المسكن المناسب. كانتْ فاندا اليوم صريحةً وجادّة، قالت لي: "سيفرين، الطريقةُ التي تؤدي بها دورك ساحرة، والقيود التي وضعها كلٌّ منّا على الآخر تزعجني حقًّا، لم أعد أستطيع تحمُّلها. أنا أحبّك بالفعل، ويجب أنْ أقبّلكَ حالًا. دعنا ندخل إلى أحد البيوت".

"لكنْ يا سيدتي..."

"غريغور!"، سحبتْني من يدي، وأخذتْني معها إلى المدخل المجاور. صعدنا بضعَ خطواتٍ على الدرج المعتم، ثم رمتْ ذراعيها حولي، شدّتْني إليها بشوقٍ وحرارة، وقبّلتني بشَبَق. "آهٍ يا سيفرين، أنتَ حكيمٌ جدًّا، أنتَ أكثر خطورةً في دور العبد ممّا تصوّرتُ. أنتَ نارٌ لا تُقاوَم، وأنا خائفةٌ من الوقوع في حبّك مرةً أخرى".

"هذا يعني أنكِ ما عُدتِ تحبّينني؟"، سألتُها، أنا المحاصَر بخوفٍ مُحْدِق.

هزّتْ رأسَها بوقار، ثم قبّلتْني بشفتيها المُكتنزتين القاتلتين.

رجعنا إلى الفندق، تناولتْ فاندا طعام الغداء، ثم طلبتْ لي شيئًا لآكله. بالطبع لم تصلْ وجبتي بالسرعة التي وصلتْ بها وجبتُها، وحدثَ أنني أثناء التهامي

للُّقمة الثانية من شريحة اللحم، دخل النادلُ وناداني بأسلوبه المتكلّف: "السيدة تريدك، وفي الحال".

تركتُ طعامي بسرعةٍ وألم، وفي أشدّ حالاتِ الجوع والتعب، وركضتُ مسرعًا إلى فاندا التي كانت تنتظرني في الشارع.

"لم أتخيّلْ أنْ تكوني قاسيةً إلى هذه الدرجة"، قلتُ مُوبّخًا: "مع كلّ هذه الواجبات المنهكة، لم تتركي لي وقتًا لآكلَ بسلام".

ضحكتْ فاندا: "حسِبْتُ أنكَ قد أكلت. لكنْ لا يهمّ، لقد خُلِقَ الإنسانُ لكي يعاني، وأنت بالذات. الشهداء لم يذوقوا شرائح اللحم أيضًا".

سرتُ وراءها غاضبًا، ألتهمُ غضبي جوعًا.

قالتْ فاندا: "فقدتُ الأملَ في أنْ أجد مسكنًا في هذه المدينة، من الصعب جدًّا أنْ تجد طابقًا كاملًا ومنعزلًا، بحيث يمكنك أنْ تفعل فيه ما تشاء. في علاقةٍ غريبة ومجنونةٍ مثل علاقتنا، يجب إخفاءُ كلّ إشارةٍ أو دليل قد يفضحُها. ينبغي أنْ أستأجر فيلّا كاملة. أسمحُ لك الآن بأنْ تشبعَ جوعك، وأنْ تبحث عن شيء تأكله في فلورنسا. لن أعود إلى الفندق حتى المساء، وعندما أريد منك شيئًا فسوف أناديك".

ذهبتُ لمشاهدةِ كاتدرائية فلورنسا، وقصر فيكو، والمتحف. ثم وقفتُ لساعاتٍ على ضفاف نهر أرنو. أطلقتُ عينيّ لتسرَحَا وتبتهجا بمرأى فلورنسا العريقة، حيث ترتفع قبابُها العملاقة وأبراجُها السامقة في قلب السماء الزرقاء الصافية. شاهدتُ الجسور الرائعة ذات القناطر الضخمة المهيبة، حيث تجري من تحتها الأمواجُ العذبة للنهر الأصفر الجميل. والتلالَ الخضراء التي تحيط بالمدينة، أشجارَ السرو الممشوقة السامقة، الأبنيةَ الممتدة جوار بعضها بعضًا، القصورَ والأديرة. إنه عالمٌ آخر، عالم مرحٌ وشهيّ ومبتسم.

ليس في هذه المناظر الطبيعية أيُّ جمودٍ أو تجهُّم كالتي في عالمنا، وهنالك طرقٌ فرعيّة طويلة تُوصِل إلى الفيلّات المنتشرة على سفوح التلال الخضراء النّضِرة. وفوق ذلك، لا توجدُ بقعةُ أرضٍ إلّا ومضاءةٌ بأشعة الشمس. الناسُ هنا أقلُّ جدّيةً من الناس في بلادنا، ربما لأنهم يفكّرون أقلّ، لكنهم في النهاية سُعداء. وقد قيلَ سابقًا: الموتُ أسهلُ في الجنوب.

وجدتْ فاندا فيلّا صغيرة رائقة، فاستأجرتْها لفصل الشتاء. تقع الفيلا على تلّةٍ مشرقةٍ غربَ نهر أرنو، في الجهة المقابلة لحديقة "كاشيني" العامة. تحيطُ بالفيلا حديقةٌ صغيرة رائقة، تتخلّلُها ممراتٌ أنيقة، ورُبىً خضراء، ومروجٌ من أزهار الكاميليا. تتألف الفيلّا من طابقين، وهي مكعّبةُ الشكل على الطراز الإيطالي. ثمة رِوَاقٌ يمتدُّ من إحدى جوانب الفيلا، وهو أشبَهُ بشرفةٍ مفتوحة فيها تماثيلُ جصّيّة قديمة، ويخرج من الرِوَاق ممرٌّ مرصوفٌ بالحجارة ينزلُ بك إلى الحديقة. وفي الطرف الآخر من الرِوَاق ثمة حمّامٌ فيه حوضٌ رخاميّ، يصعدُ من الحمّام درجٌ دائريّ يأخذُك إلى غرفة نوم سيدتي. أخذتْ فاندا الطابق العلويّ بأكمله لها.

وقد خصَّصتْ لي إحدى غرف الطابق الأرضي، وهي غرفة جميلة حقًّا، وفيها موقد نارٍ أيضًا. رحتُ أتمشّى في حديقة الفيلا، وعلى رابيةٍ مستديرةٍ في الجوار، وجدتُ معبدًا صغيرًا. حاولتُ فتح الباب، لكنه كان موصَدًا. ثم لمحتُ شِقًّا في الباب، ألصقتُ عينيْ عليه، فرأيتُ ربّة الحبّ واقفةً على قاعدة رخاميّة.

سَرَتْ قشعريرةٌ رقيقة في جسدي، إذ أحسَسْتُ أنها تبتسمُ وتقول: "أنتَ هنا؟ أنتظرُ قدومكَ منذ زمن".

# (٣٤)

عندما حلَّ المساء، جاءتْ خادمةٌ جميلة وبلّغتني أمرًا من سيدتي، بأنْ أمثُل أمامها حالًا. صعدتُ الدرجَ الرخاميّ العريض، عبرَتُ في رُدهة الانتظار، وهي صالة واسعة مفروشة بفخامةٍ مُسرِفة، وقرعتُ باب غرفة النوم. قرعتُ الباب بلطفٍ بالغ، إذ كان لفخامة المكان أثرٌ مهيبٌ في قلبي. نتيجة ذلك لم يسمعني أحد، وبقيتُ واقفًا أمام الباب. انتابني شعورٌ أنني واقفٌ أمام غرفة نوم كاثرين العظيمة، وأنها قد تفتحُ الباب في أي لحظةٍ، وهي ترفُلُ بفراء النوم الأخضر، والنياشينُ تُزيّنُ صدرَها نصفَ العاري، وخصلاتُ شعرها تنسابُ على كتفيها.

طرقتُ الباب مرةً أخرى، فتحتْ فاندا بسرعة: "لماذا تأخّرتَ كثيرًا؟"

"كنتُ واقفًا أمام الباب، لكنكِ لم تسمعي طرقاتي". أغلقتِ البابَ، ثم سحبتْني إلى الأريكة الدمشقيّة التي كانت ترتاحُ عليها. كانت كِسْوةُ الغرفة بأكملها من البروكار الدمشقيّ؛ ورق الجدران، ستائر النوافذ، ستائر السرير العالي ذي الأعمدة. بينما تغطّي السقفَ رسوماتٌ ضخمة لشمشون ودليلة.

استقبلتْني فاندا بثوب نومٍ فاتن، ثوب من الساتان الأبيض الشفاف، ينسابُ حول قوامها الممشوقِ بشكلٍ ساحرٍ ومثير، تاركًا نهديها مكشوفين... يحاولان عبثًا الاختباء داخلَ الفروة السوداء المنسدلة من كتفيها. كان شَعرها الأحمرُ ينسكبُ مثل شلّال على ظهرها، حتى إنه يلامسُ ردفيها. وعلى رأسها شرائط مزيّنة بالجُمان.

"فينوس ذات الفراء"، همستُ.

جذبتْني إلى صدرها بقوة، وراحتْ تهدّدُ حياتي بالخنْقِ تقبيلًا. لم أعدْ أقوى على الكلام، ولا حتى على التفكير، كان كلُّ شيءٍ يغرق في محيطٍ من الهناء الخياليّ، والنعيم الذي لا يتصوّره عقل.

"أما زلتَ تحبّني؟"، سألتْ بعينينِ ناعِسَتينِ شغفًا وحنانًا.

"أما زلتِ تسألين؟"

"هل تذكرُ العهدَ الذي قطعتَه؟ الآن صار كلُّ شيءٍ جاهزًا، كل شيءٍ على أُهبة الاستعداد. أسألكَ مرةً أخرى؛ أما زالتْ أمنيتُكَ العميقةُ أنْ تصبح عبدي؟"

"أَوَلَسْتُ عبدكِ؟"

"لم توقّعْ على الأوراق بعد".

"أوراق؟ أيةُ أوراق؟!"

"آه... فهمتُ، تريد أن تتخلّى عن ذلك. حسنًا، سوف نُنهي كلّ شيء بيننا".

"لكنْ يا فاندا! تعلمين أنه ما مِنْ شيءٍ يمنحني السعادة العظمى أكثر من خدمتك، من أنْ أكون عبدك. مستعدٌّ لتقديم كلّ شيءٍ من أجل أنْ أضع نفسي تحت سلطتك، مستعدٌّ للموتِ حتى..."

"ما أجملكَ عندما تتكلّمُ بحماسٍ شديد وبشغفٍ كبير. أحبُّكَ الآن أكثر من أي يومٍ مضى. تريدني أنْ أكون متسلّطةً وحازمةً وقاسية، لكنني أخشى أنه من المستحيل أنْ أكون كذلك".

"أنا لا أخشى شيئًا، أين هي الأوراق؟"

"حسنًا، أنتَ تعرف ماذا يعنيه أنْ تكون تحت سلطتي كليًّا، لكنني كتبتُ اتفاقيةً ثانية... تُصرّحُ فيها... أنكَ قرّرتَ الانتحار. في هذه الحالة، يمكنني قتلُكَ أيضًا، إذا ما رغبتُ في ذلك".

"أعطيني الأوراق!"

بينما كنتُ أفردُ الأوراق وأقرؤها، جلبتْ فاندا القلم والمحبرة. ثم جلستْ جانبي وهي تلفُّ ذراعها حول عنقي، وتنظرُ إلى الأوراق من فوق كتفي.

قرأتُ الورقة الأولى:

((اتفاقية بين السيدة فاندا فون دوناييف وسيفرين فون كوشيمسكي))

• "لم يعُدْ سيفرين فون كوشيمسكي منذ تاريخ اليوم خطيبًا للسيدة فاندا فون دوناييف، وبالتالي يُجرَّد من كافة الحقوق المتعلّقة بذلك. وفي المقابل يُلزِمُ نفسَه بكلمة الشرف التي قطعَها كرجُل من النبلاء، بأنْ يكون من الآن فصاعدًا عبدًا لها، إلى أنْ يجيء يومٌ تقومُ فيه هيَ بإعطائه حرّيته مجدّدًا.

• بوصفه عبدًا للسيدة فون دوناييف، يحمل سيفرين اسمَ غريغور، ويلتزمُ بالخضوع لجميع رغباتها من دون شرط، وبإطاعة كافة أوامرها. وأنْ يكون خاضعًا وتابعًا لسيّدته دومًا، وأنْ يعتبرَ أيّ إحسانٍ تتفضّلُ به عليه صدَقةً ورحمةً استثنائية.

• يحقّ للسيدة فون دوناييف معاقبةُ عبدها بالطريقة التي تراها مناسبة، حتى على أصغر هفوةٍ أو خطأ غير مقصود. وفوق ذلك، يكون لها الحقُّ بتعذيبه كيفما تشاء، ولمجرّد التسلية وتمضية الوقت. وفي حال رغبتْ في قتله، فلها الحقُّ في ذلك. باختصار؛ إنه ملكيّتُها الخاصّة.

• في حال قرّرت السيدة فون دوناييف إعطاءَ عبدها حريته، يعِدُ سيفرين فون كوشيمسكي بنسيان كلّ ما شهِدَهُ وعاناهُ في فترة عبوديّته، ويتعهّد بألّا يفكّر يومًا بالنقمة أو الانتقام.

• بوصفها سيّدته، توافق السيدة فون دوناييف على الظهور –كلَّ ما أمكنها ذلك- مرتديةً الفراء. خصوصًا عندما تنوي ممارسة قسوتها تجاه عبدها".

كانت الاتفاقية مذيّلةً بتاريخ هذا اليوم.

أما الوثيقة الثانية فكانتْ تتضمّن كلماتٍ معدودة:

"بعد سنواتٍ طويلةٍ سئمتُ فيها من الوجود وأوهامه، قرّرتُ بكامل إرادتي الحرّة؛ وضعَ نهايةٍ لحياتي التافهة".

شعرتُ بخوفٍ رهيبٍ بعد القراءة. ما زال الوقت أمامي، وكان بإمكاني الانسحاب. لكنّ جنون الهوى، ورؤية الفاتنة وهي تسترخي بدلالٍ على كتفي، أثارا حمّيتي.

"هذه الورقة... عليكَ نسخُها من جديد يا سيفرين"، قالتْ وهي تشيرُ إلى الوثيقة الثانية. "يجبُ أنْ تكون مكتوبةً بخطّ يدك. وهذا الأمرُ ليس ضروريًّا بخصوص الاتفاقية الأولى".

بسرعةٍ، بدأتُ أنسخُ السطرين على ورقة جديدة، السطرين اللذين أختارُ فيهما الانتحار، وسلَّمتُ الورقة إلى فاندا. قرأتها الجميلةُ، ثم وضعتْها على الطاولة مبتسمةً.

"الآن... هل تملكُ الشجاعة للتوقيع عليها؟"، سألتْني بابتسامةٍ ماكرة، وهي تحنو برأسها على كتفي.

أخذتُ القلم.

"دعني أوقّع أولًا، يدُكَ ترتجف... هل أنتَ خائف من السعادة التي تنتظركَ؟".

أخذتْ فاندا الاتفاقية والقلم.

أثناء انشغالي في صراعي الداخليّ، نظرتُ إلى الأعلى لمدة دقيقة. لاحظتُ أنّ الرسوماتِ التي تملأ السقف، مثلها مثل كثيرٍ من رسومات المدرسة الإيطالية والهولندية، لا تتوافقُ مع الحقائق التاريخية كثيرًا. وهذه الحقيقة الجوهرية تمنحُها طابعاً غريبًا، كان لهُ أثرٌ عميق فيَّ. دليلة المرأة الثريّة ذاتُ الشعر الأحمر الملتهب، تضطجعُ مستلقيةً نصفَ عارية، ملتفة بعباءةٍ من الفرو الأسود،

فوقَ أريكةٍ عثمانيّة حمراء، تنحني فوق شمشون وهي تبتسم. أما شمشون، فقد كان مصروعًا ومقيّدًا من قبل الفلسطيّين. كانت ابتسامتُها -بدلالها الماكر- مفعمةً بالقسوة الشيطانية، بينما تحدّقُ عيناها -نصف مغلقتين- في عينيّ شمشون. كانت عينا شمشون تسترقان آخِر مشهدٍ من الحياة، آخرَ مشهدٍ من العشق المجنون، معلَّقتينِ حتى آخِر لحظةٍ بعينيها. ففي اللحظة ذاتها، يجثمُ واحدٌ من أعدائه على صدره، وهو يمسكُ بالكاوي الفولاذيّ المُحْمَرّ، لكي يفقأ به عينيه.

"الآن وقّعْ! أراكَ غارقًا في التفكير، ما هي مشكلتك؟ كلُّ شيء سوف يظلُّ كما هو، حتى بعد التوقيع. أَلَم تعرفني بعد؟ يا حبيب قلبي".

نظرتُ إلى الاتفاقية، كان اسمُها مكتوبًا بخطّ عريض. استرقتُ النظرَ مرةً أخرى إلى عينيها ذات السحر الجبّار، ثم أخذتُ القلم ووقّعتُ بسرعة.

"أنتَ ترتجف؟ هل أساعدك؟"، أمسكتْ يدي برفقٍ، وكتبنا معًا اسمي في ذيل الورقة الثانية. نظرتْ فاندا إلى الوثيقتين لآخر مرة، ثم وضعتْهما في دُرْج الأريكة الخشبي، وأقفلته.

"والآن، أعطِني جواز سفرك، وكل ما تملكه من مال".

أخرجتُ محفظتي، وأعطيتها لها. قام بتفتيشها وهي تهزُّ رأسها، ثم وضعتْها في الدرج ذاته أثناء ذلك، دفعَني الوَلَهُ المُسْكِرُ لأنزل على ركبتيّ، وأدفن رأسي بين نهديها.

فجأةً، ركلتْني بقدمها بعيدًا عنها. ثم نهضتْ، وسحبتْ حبْلَ الجرس. استجابةً لصوته، دخلتْ ثلاثُ خادماتٍ زنجيّاتٍ يافعات، تبدو أجسادهنّ وكأنها مقدودةٌ من خشب الأبنوس، يرتدين الساتان الأحمر من رؤوسهنّ حتى أقدامهنّ. كانت كلُّ واحدةٍ منهنّ تحملُ حبْلًا بيدها.

على وجه السرعة، عرفتُ ماذا سيحلُّ بي. كانت فاندا تقف بشموخٍ وعنفوان، ووجهُها الجميل البارد بحاجبيه المقطّبين وعينيه الراشحتين بالازدراء، ملتفِتٌ نحوي. كانتْ تقفُ أمامي بوصفها السيّدة الآمرة، وبمجرّد إشارةٍ من إصبعها، وقبل أنْ أدركَ ما الذي يجري، كانت الزنجيّاتُ قد صرعنَني أرضًا، وكبّلنَ يديّ وقدميّ بالحبال. كانت يداي مقيّدتين خلف ظهري، وكأنني ذاهبٌ إلى الإعدام. وهكذا صرتُ عاجزًا عن الحركة.

"أعطيني السوطَ يا هايدي"، أمرتْ فاندا بهدوءٍ غير طبيعي، وبُرودةٍ غير بشرية.

أعطت الزنجيّةُ السوطَ لسيّدتها وهي تنحني.

"والآن خُذي الفروة الثقيلة عن كتفيّ، إنها تعيقُ حركتي".

أطاعت الزنجيّةُ الأمر.

"أحضريْ ذاك المعطف".

أسرعتْ هايدي وجلَبَت المعطفَ القصير ذا الحواشي الفرائيّة، فانزلقتْ فاندا في داخله بحركتين رشيقتين، لا يمكن لغيرها فعلُهما.

"الآن، اربُطْنَهُ على عمود السرير، هنا".

رفعتْني الزنجيّاتُ، ولفَفَنَ حبلًا غليظًا حول جسدي، ثم ربطنَني واقفًا على إحدى الأعمدة الضخمة التي يستند عليها سقفُ السرير الكبير.

فجأةً اختفت الزنجيّات، وكأنّ الأرض قد ابتلعتْهُنّ.

اقتربتْ فاندا بسرعة إليّ. كان ثوبُ الساتان الأبيض ينسابُ خلفها مثل قطارٍ أبيض، مثل نهرٍ من الفضّة، مثل شلّالٍ من ضوء القمر. وكان شَعرها يتوّهجُ مثل ألسنةِ النار حول ياقة المعطف الفرائية البيضاء. الآن تقفُ أمامي، تضع

يدها اليسرى على خصرها بثبات، وتمسك السوط بيدها اليمنى. أطلقتْ ضحكةً مُزلزِلة.

"الآن، انتهى زمنُ اللعبِ بيننا"، قالت ببرودٍ متحجّر القلب. "الآن، سوف نبدأ زمن الجدّية المميتة. أيها الأحمق، أنا أضحكُ عليكَ وأحتقرك، أنتَ يا مَنْ بغرامك المجنون جعلتَ من نفسك لعبةً بيديّ. أنا المرأة العابثة اللعوب، المتقلّبة المزاج دومًا. أنتَ لم تعدْ بعد اليوم الرجل الذي أحبّه، بل عبدي. حياتك وموتك تحت رحمتي.

يجبُ أن تعرفني!

عليكَ أولًا أنْ تذوق طعمَ السوط بكل جدية، ومن دون أن ترتكبَ أيَّ خطأٍ يستوجب العقاب. وهكذا سوف تعرف ما الذي ينتظرك في حال كنتَ أخرقَ أو غيرَ مطيعٍ أو عنيدًا".

بجلالٍ مهيب، رفعتْ أكمامَ المعطف الفرائية عن ساعديها، وضربتْني منتصفَ ظهري.

جفِلتُ تحت ضربة السوط التي تغلغلَتْ كالسكّينِ في لحمي.

"حسنًا، هل أعجبكَ هذا؟"

بقيتُ صامتًا.

"انتظرْ فقط، وسوف أجعلُكَ تُوَلْوِلُ مثل الكلب تحت سياطي".

كانتْ الضرباتُ تنهالُ سريعةً، بتتابُعٍ خاطفٍ وقوّةٍ مرعبة، فوق ظهري وذراعيّ ورقبتي. كنتُ أصرُّ على أسناني لكيلا أصرخ بصوتٍ عالٍ. الآن ضربتْني على وجهي، فسالَ دمٌ حارّ، لكنها ضحكتْ وتابعتْ ضرباتها.

"الآنَ فهمتُكَ تمامًا، إنه لَمِن المُمْتع فعلًا أنْ تملكَ شخصًا تحت سلطتك المطلقة، خاصةً إذا كان رجلًا... رجلًا يحبّك... هل تحبُّني؟ ... لا؟ إذًا سأمزّقكَ

إربًا إربًا، ومع كلّ جلْدةٍ سوف تزداد لذّتي. الآن... تَلَوَّ كالدودةِ، اصرخْ، انتحبْ! لن تجد ذرّة رحمةٍ في قلبي".

وأخيرًا، يبدو أنها قد تعبتْ.

رمتِ السوط جانبًا، استلقتْ على الأريكة، وسحبتْ حبل الجرس.

دخلت الزنجيّات.

"افكُكْنَ وثاقه".

ما إنْ قُمْنَ بفكّ الحبل، حتى سقطتُ أرضًا مثل قطعة خشب. كشَّرَتِ النسوةُ السوداواتُ كاشفاتٍ عن أسنانٍ بيضاء.

"اقطَعْنَ الحبلَ الذي حول قدميه".

فعلْنَ ذلك، لكنني ما زلتُ عاجزًا عن الوقوف.

"تعالَ إلى هنا يا غريغور".

اقتربتُ بشقّ الأنفُس من الحسناء الفاتنة. لم تكنْ في يومٍ من الأيام شديدة الإغراء كما هي اليوم، رغمًا عن كلّ قسوتها واحتقارها.

"ارجِعْ خطوةً إلى الوراء... والآن اركعْ على ركبتيك، وقبّلْ قدمي".

مدَّتْ قدمَها من تحت ثوب الساتان الأبيض، وأنا... أنا الأبلهُ المرهفُ الأحاسيس... وضعتُ شفتيّ عليها.

"الآن، لا تدعني أرى وجهكَ لمدة شهرٍ، يا غريغور. أريدُ أنْ أصبحَ غريبةً عنك، وهكذا يمكنكَ أنْ تتكيَّف بسهولةٍ أكثر مع علاقتنا الجديدة. خلال هذه المدة، سوف تعمل في الحديقة، وتنتظر الأوامر مني. الآنَ انصرفْ فورًا، أيها العبد".

# (٣٥)

مرّ الشهرُ بانتظامٍ رتيب، عملٌ شاقّ، وجوعٌ بائس... جوعٌ لتلك التي أبلتْني بكلّ هذا العذاب.

أصبحتُ الآن تحت أوامر البستانيّ، أساعدُه بتقليم الأشجار، قصقصة شجيرات السياج، تطعيم الأزهار، تقليبِ التربة في حوض الورود، وكنْسِ الممشى الحصويّ. وكذلك كنتُ أقاسمُه طعامَهُ الرديء وكوخه التعيس. أستيقظُ حين تفيقُ الدجاجات، وأنام حين تنام. بين الفينة والأخرى، تتواردُ أخبارٌ أنّ سيّدتنا تمتّع نفسها بشكلٍ جيّد، وأنها محاطةٌ بالمعجبين. وأحيانًا كنتُ أسمع ضحكتها الجذلى واصلةً حتى آخر الحديقة.

أبدو شديد الغباء في عين نفسي، هل ما يحدثُ لي ناجمٌ عن ظروف حياتي الحالية؟ أم أنني كنتُ كذلك من قبل؟! ها قد أوشكَ الشهرُ على الانتهاء، ما الذي سوف تفعلُه بي الآن؟ أم أنها قد نسيتْني نهائيًّا، وسوف تتركني أقصُّ العشبَ وأجمعُ باقاتِ الورد حتى آخر يومٍ في حياتي؟!

قرارٌ مكتوب:

"بموجبِ هذا الكتاب، يُخصَّصُ العبدُ غريغور لخدمتي الشخصيّة.

فاندا دوناييف".

بقلبٍ تتسارعُ نبضاته، عبرتُ خلال ستائر البروكار الدمشقي في الصباح التالي، ودخلتُ غرفة نومِ ربّتي. كانت الغرفة تحتفظُ بشيءٍ من ظُلمة الليلة السابقة.

"هذا أنت يا غريغور؟"، سألتْني حين كنتُ جاثيًا قرب الموقد لأشعل النار فيه. ارتجفتُ عند سماعي الصوت الذي أعشقه، لم أكن أستطيع رؤيتها، إذ كانت مختفيةً خلف ستائر السرير العالي.

"نعم، يا سيدتي".

"كم الساعة الآن؟"

"بعد التاسعة".

"الفطور".

هرعتُ لإحضار الفطور، ثم جثوتُ قربَ سريرها حاملًا الصينيّة بيديّ.

"هذا هو الفطور يا سيدتي".

أزاحتْ فاندا الستارة. نظرتُ إليها بفضُول شديد، كانت غارقةً بين الوسائد، وشعرها الأحمر مفرود. بدتْ غريبةً عني، إنها امرأةٌ جميلة حقًّا، لكنّ تعابير الوجه التي أعشقها... قد اختفتْ. فهذا الوجه قاسٍ، تبدو عليه علاماتُ الضجر والتُّخمة. أم أنّ الأمر ببساطةٍ هو أنَّ عينيّ لم تلحظا ذلك من قبل؟

ألقتْ عينيها الخضراوين عليّ، كانت نظرتُها تُضمِرُ الوعيدَ والتهديد أكثر من الفضول. وبكسلٍ ودلال... سحبتْ الفروة السوداء وغطّتْ بها كتفيها العاريين. في هذه اللحظة، عادتِ امرأةً فاتنة تثيرُ الجنون، وأحسَسْتُ بالدم يتصاعدُ نحو قلبي ورأسي. بدأت الصينيةُ تتأرجحُ بين يدي، وقد لاحظتْ ذلك، فالتقطتِ السوطَ من فوق الطاولة الصغيرة المجاورة للسرير.

"كم أنتَ أخرق، يا عبد!".

كسرتُ نظري إلى الأرض، وأمسكتُ بالصينيَة بأشدّ ما أستطيع. راحتْ تتناول فطورها، تتثاءب، وتمطُّ ذراعيها المترفتين وسْطَ الفروة الفاخرة.

بعد ساعةٍ، سحبتْ حبلَ الجرس، فدخلتُ.

"أوصِلْ هذه الرسالة إلى الأمير كورسيني".

ركضتُ في شوارع المدينة، وسلّمتُ الرسالة للأمير. كان شابًّا وسيمًا، ولهُ عينان سوداوانِ برّاقتان. أخذتُ منه رسالة الردِّ والغيرةُ تأكلني من الداخل.

"ما هي مشكلتك؟"، سألتْني فاندا باستياءٍ متوعّد: "وجهُكَ شاحبٌ جدًّا".

"لا شيء، سيدتي، ربما لأنني ركضتُ بسرعة".

عند الغداء، كان الأميرُ جالسًا بجوارها، وكنتُ مأمورًا بأنْ أخدُمَ كليهما. كانا يتبادلانِ النُكات وكأنني غير موجودٍ أبدًا.

في لحظةٍ خاطفةٍ، أعمى السوادُ عينيّ. كنتُ أسكبُ بعضَ النبيذ في كأسه، فأرَقْتُهُ فوقَ غطاء الطاولة وعلى ثوبها الأبيض.

"كم أنتَ أبله!"، صاحتْ فاندا وصفعتْني على وجهي.

ضحكَ الأمير، وهي كذلك، لكنني أحسَسْتُ كلَّ دماء الأرض تتجمّعُ في وجهي.

بعد الغداء، أخذتْني معها إلى حديقة "كاشيني". كانت لديها عربةٌ صغيرة يجرُّها حصانٌ إنكليزيّ بنيّ رائع، أمسكَتِ العِنَان بيديها، وانطلقتْ. بينما كنتُ جالسًا في الخلف، أراقبُ تصرّفاتها المُلفِتة، وكيف تُومئُ برأسها وتبتسمُ بغُنْجٍ حين يُحيّيها واحدٌ من النبلاء.

بينما كنتُ أساعدها على الترجُّل من العربة، ارتختْ قليلًا على ذراعي. هذا التَّمَاسُّ الناجمُ عن ملامسة جسدها لجسدي... صعقَني كالكهرباء. يا لها من امرأةٍ رائعة! أحبُّها أكثر من أيّ يومٍ مضى.

# (٣٦)

حان موعد العشاء في السادسة مساءً، كانت قد دعتْ مجموعةً من الرجال والنساء إلى البيت، وكنتُ أنا خادم العشاء. لكنني في هذه المرة، لم أسكبْ ولا نقطة نبيذٍ واحدة على غطاء الطاولة.

صفعةٌ على الوجه تعلّمُ الإنسانَ أكثر من عشر محاضرات، تجعلُكَ تستوعبُ بسرعة كبيرة، خاصةً عندما يكون الدرسُ بيَدِ امرأةٍ جميلة.

# (٣٧)

بعد العشاء، قرّرتِ الذهابَ إلى مسرح "بيرغولا". كانت تنزلُ درجَ البيت بثوبها المخمليّ الأسود ذي الياقة الفرائيّة، وبإكليلٍ من الزهور البيضاء فوق رأسها. يا لها من امرأةٍ مذهلةٍ وصاعقة! فتحتُ باب العربة، وساعدتُها في الصعود. وعند مدخل المسرح، قفزتُ من مقعد الحوذيّ لأساعدها على النزول. أسندتْ يدَها على كتفي، فصرتُ أرتجفُ من اقترابها الجليل. ثم فتحتُ لها بابَ مقصورة الجلوس، وبقيتُ أنتظرها في الردهة. استمرَّ العرضُ لمدة أربع ساعات، وكان النبلاءُ يتردّدون إلى مقصورتها أثناء العرض، بينما كنتُ أصرُّ على أسناني لأكظم غيظي. في البيت، وبعد منتصف الليل بساعات، سحبتْ سيدتي حبلَ الجرس للمرة الأخيرة.

"النار"، أمرتْني. وما إنْ أشعلتُ النار في الموقد: "الشاي".

حينما عدتُ حاملًا سَمَاوَر الشاي، كانت قد خلعتْ ملابسها، وشرعتْ بلُبس ثوب النوم الأبيض بمساعدة الزنجية. ثم غادرتْ هايدي.

"أعطِني فروة النوم"، قالتْ وهي تتمطّى بذراعين غلبهما النعاس. جلبْتُ الفروة وأعطيتُها لها. ارتدتْها بكسلٍ مُغرٍ، ثم رمتْ نفسها بين وسائد الأريكة.

"انزَعْ حذائي عن قدميّ، وألبِسْني خُفَّ النوم المخمل".

نزلتُ على ركبتيّ، وتعذبّتُ بنزع الحذاء الصغير الذي استهلكَ قواي. "أسرِعْ، أسرِعْ... آخ! أنتَ توجعُني! انتظرْ لحظة، سوف أُربّيك".

ضربتْني بالسوط، لكنني استطعتُ نزع الحذاء الثاني بسرعة.

"والآن، انصرفْ من هنا"، أتبعتْها بركلة. وهكذا صار بإمكاني النوم بسلام.

# (٣٨)

هذه الليلة، رافقتُها إلى حفل السهرة. عند مدخل القاعة، أمرتْني بأنْ أساعدها في خلع الفراء، ثم بابتسامةِ المغرور وثقةِ المنتصر، دخلتِ القاعةَ المضاءة بشكلٍ مبهر. مرةً أخرى، أقفُ وأنتظرُ وسط بحرٍ من الأفكار الكئيبة والرتيبة، أعُدُّ الثوانيَ والدقائق.

بين الفينة والأخرى، كان صوتُ الموسيقى يصلُ إليّ، عندما يُفتحُ بابُ القاعة لبضع لحظات. حاول العديدُ من الخدم فتحَ حديثٍ معي، ثم صرفوا النظرَ عن ذلك سريعًا، بما أنني لا أعرفُ سوى بضع كلماتٍ بالإيطالية.

في النهاية، سقطتُ نائمًا، وحلمتُ أنني قتلتُ فاندا إثرَ نوبةِ غيرةٍ عنيفة. بعد ذلك حكموا عليّ بالإعدام، ولقد رأيتُ نفسي مثبّتًا على خشب المقصلة، ثم هَوَتِ الشفرةُ، أحسَسْتُ بها وهي تقصُّ رقبتي، لكنني بقيتُ حيًّا.

بعدها، صفعني السيّافُ على وجهي.

لا، لم يكن السياف. كانت فاندا تقفُ أمامي غاضبة، تطلبُ معطف الفرو. نهضتُ فورًا، وساعدتُها على ارتدائه.

ثمة متعةٌ عظيمةٌ في مساعدةِ امرأةٍ جميلةٍ على ارتداء فرائها، وعند رؤيةِ وملامسةِ عنقها وأطرافها وهي تأوي داخلَ الفراء الناعم الفاخر، وحين ترفع شَعرها وتُرخيه فوق الياقة. وحتى عندما تخلعُه، يبقى منها دفءٌ مُسكِرٌ وعطرٌ مدوّخٌ عالَقينِ على وبر الفراء، وهذا ما يكفي أيّ رجلٍ ليُصاب بالجنون.

# (٣٩)

وأخيراً، مرّ علينا يومٌ ليس فيه ضيوف أو مسرحيّات أو رفاق، فتنفّستُ الصعداء. كانت فاندا جالسةً في الرواق، تقرأ كتابًا، ويبدو أنها لا تريد أنْ تأمرني بشيء. عندما انسكبَ الشفقُ الأحمرُ في أرجاء السماء، دخلتْ فاندا. كنتُ أقدّم لها طعام العشاء، أكلتْ بنفسها، لكنها لم تنظرْ إليّ، ولم تنبسْ بحرف، ولا حتى بصفعةٍ على الوجه. في الحقيقة، اشتقتُ إلى صفعةٍ من يدها. عينايَ تغرورقان بالدموع، وأشعرُ أنها تُهينُني كثيرًا، إذ لم تعُدْ ترى في تعذيبي واضطهادي شيئًا يستحقُّ العناء. قبل أنْ تخلد إلى النوم، نادتْني من خلال الجرس. "سوف تنام هنا هذه الليلة، لقد شاهدتُ أحلامًا مريعةً ليلة أمس، وأخاف من البقاء لوحدي. خُذْ إحدى الوسائد من الأريكة، ونمْ هنا على فروة الدبّ، هنا تحت قدميّ".

أطفأتْ فاندا الشموع، كان النورُ الوحيد في الغرفة قادمًا من المصباح الصغير المتدلّي من السقف. دخلتْ إلى سريرها وقالت: "لا تتقلَّبْ في الليل، لكيلا توقظني". فعلتُ مثلما أمرتْ، لكنني لم أستطع النوم حتى وقتٍ طويل. كنتُ أتأمّلُ المرأة الجميلة، الفاتنة مثل ربّة، مستلقيةً على ظهرها، متّشحةً بفروة النوم السوداء. ذراعاها تحت رقبتها، وفوقهما شلّالٌ من الشعر الأحمر. كنتُ أسترقُ السمعَ إلى صدرها العظيم، وهو يصعدُ ويهبطُ مع أنفاسها العميقة المنتظمة. أستيقظُ... أُصغي... أنتظرُ إذا ما كانت تريد مني أي شيء.

لكنها لم تكن تريد شيئًا.

لم تطلبْ مني أي مَهمّة، لم أكنْ أعني لها أيّ شيء، كنتُ بمثابة المصباح الليليّ، أو المسدّس الذي يُوضَعُ تحت الوسادة.

# (٤٠)

هل أنا المجنون أم هي؟ هل يولدُ كلُّ ما أشهدُهُ من عقلِ امرأةٍ شهوانيّةٍ مبدعة، تريد تجاوُزَ خيالاتي المرهفة الأحاسيس؟ أم أنّ هذه المرأة هي فعلًا واحدةٌ من تلك الشخصيّات النيرونيّة التي تجدُ متعةً شيطانيّةً في سحقِ البشر تحت قدميها مثل الديدان، وتسحقُ معهم أفكارهم ومشاعرهم ورغباتهم؟!

ما هذا الذي أعيشه؟

حين جثوتُ قربها وأنا أحملُ صينيّة القهوة، وضعتْ يدها على كتفي، وغاصتْ عيناها عميقًا في عينيّ.

"لديكَ عينانِ رائعتان، خاصّةً وأنتَ تتعذّب. هل أنتَ مستاءٌ جدًّا؟"

حنيتُ رأسي، وبقيتُ صامتًا.

"سيفرين، أما زلتَ تحبّني؟ أما زال بإمكانك أنْ تحبّني؟"

جذبتْني إليها بقوة، فانقلبت الصينيّة وسقطت الركوةُ والفناجين على الأرض، وسالتْ القهوة على السجادة.

"فاندا... فاندا..."، ضممتُها بشوقٍ إلى صدري، ورحتُ أغمرُ فمَها ووجهها وصدرها بالقُبُلات. "هذه مأساتي! إنني أعشقكِ أكثر وبجنونٍ أكبرَ كلّما ازدادت معاملتُكِ لي سوءًا، وكلّما خُنْتي مرارًا وتكرارا. آهٍ... أكادُ أموتُ من شدة العشق والغيرة والألم".

"لكنني لم أخُنْكَ حتى الآن، يا سيفرين".

"لم تفعلي؟! فاندا، لا تضحكي عليّ من دون رحمةٍ أو شفقة. أَلَمْ أقُمْ أنا بنفسي بإيصال الرسالة إلى الأمير؟"

"بالطبع، لقد كانت دعوةً إلى الغداء".

"لكنك ستفعلين، بما أننا في فلورنسا".

"كنتُ مخلصةً لكَ على الإطلاق، أقسمُ بكلّ مقدّساتي. وكلُّ ما فعلتُه كان بهدف تحقيق حلمك، وفعلتُه من أجلك وحدك. على كل حال، يجبُ أن أجد عشيقًا لي، وإلّا فإنّ المهمة ستبقى نصفَ مُنجَزة. وفي النهاية سوف تعاتبني لأنني لم أعاملكَ بقسوةٍ بما فيه الكافية، يا عبدي العزيز الجميل! لكنكَ اليوم ستعودُ سيفرين من جديد، الشخص الوحيد الذي أحبّ. أنا لم أرمِ ثيابك، إنها هنا في الصندوق. اذهبْ والبسْ مثلما اعتدتَ أن تلبسَ في ذلك المنتجع الصغير في جبال الكاربات، حين كان حبُّنا لطيفًا جدًّا. انسَ كلَّ ما حدث بعد ذلك، آه... سوف تنسى بسهولةٍ بين ذراعيّ، سوف أمحو أحزانك بالقبلات".

صارتْ تعاملني برفقٍ وكأنني طفل، تعانقني وتقبّلني. بعد ذلك قالت وهي تبتسم: "اذهب الآن وبدِّلْ ملابسك، وأنا سأفعل كذلك. هل تريدني أن أرتدي معطف الفرو؟ أعرف الإجابة، الآن اذهبْ، هيّا".

حين عدتُ كانت واقفةً في منتصف الغرفة بثوبها الساتان الأبيض الشفاف، والمعطف الأحمر ذي الحواشي الفرائية. كان شعرها مغطّىً بالبُهرُج الأبيض، وعلى جبهتها يلتفُّ شريطٌ مرصّع بالجُمان. أمسكتْ يدي وأخذتْني إلى الأريكة لنقضي عليها ساعتين من النعيم. لم تعدْ بعد الآن تلك السيّدة الحازمة المتقلّبة الأهواء، كانت امرأةً رائعةً جدًّا، ذات قلبٍ مفعمٍ بالحنان. كانت تُريني بعضَ الصور الفوتوغرافية، وتحدّثني عن بعض الكتب بذكاءٍ لامع. وبين الدقيقة والأخرى، أمسك يدها وأقبّلها بشغف. بعد ذلك، طلبتْ مني أنْ أقرأ

لها بعضًا من قصائد ليرمنتوف[٥٨]. كانت النيرانُ تضطرمُ في جسدي، وكانتْ تعابيرُ وجهها رقيقةً سمْحَة، وعيناها تمتلئان باللذةِ الحارقة.

"هل أنتَ مسرور؟"

"ليس بعد".

استلقتْ على ظهرها فوق الوسائد، وفتحتْ معطفَ الفرو ببطء.

أمسكتُ طرفي المعطف فورًا، وغطّيتُ نهديها المكشوفين: "هل تريدينني أنْ أُجَنّ؟!"

"تعال!"

كنتُ فوقها، ذراعايَ تثبّتانِ ذراعيها، ومثلَ أفعى الفردوس... راحتْ تقبّلُني بلسانها. ثم فحَّتْ: "هل أنتَ سعيد؟"

"سعادة لا حدود لها".

ضحكتْ بصخب، ضحكةً شريرةً مُجلْجِلة، جعلتْ فرائصي ترتعد.

"كنتَ تحلمُ بأن تكون عبدًا، دميةً بين يديّ امرأة جميلة، والآن تحسبُ أنكَ إنسانٌ حرّ، رجُل، عشيقي، أيها الأحمق! بمجرّد إشارةٍ مني تعود عبدًا. انزِلْ عند قدميّ!".

انزلقتُ من الأريكة إلى الأرض، لكنّ عينيّ ظلّتا عالقتين بعينيها.

قاطعتْ ذراعيها فوق صدرها، نظرتْ إليّ بطرف عينها، وقالت: "أشعر بالضجر، وأنتَ موجودٌ هنا لكي أقطّع معكَ بعض الوقت فقط. لا تنظرْ إليّ بهذه الطريقة".

ركلتْني بقدمها.

---

٥٨ - ميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤-١٨٤١): أديب روسيّ، من أعماله قصيدة "أسير القوقاز"، ومسرحيّة "حفلة تنكّرية"، ورواية "بطل من زماننا".

"أنتَ عبارةٌ عمّا أريدُ لكَ أنْ تكون: إنسانًا، حيوانًا، شيئًا...".
سحبت الجرس، ودخلت الزنجيّاتُ الثلاث.
"اربُطْنَ يديه خلف ظهره".
بقيتُ جاثيًا على ركبتيّ، ومن دون أيّ مقاومةٍ سمحتُ لهنّ بفعل ذلك. ثم اقتدنني إلى الجهة الجنوبية من الحديقة، حيث عرائش العنب. كانت عرانيسُ الذرة مزروعةً بين العرائش، وما زال في المكان القليلُ من سُوق الذرة الميّتة. وهناك في الزاوية يوجد محراثٌ متروك.
أوثقتْني الزنجيّاتُ إلى إحدى أعمدة العرائش، ورُحْنَ يتسلّينَ بوَخْزي ببُكْلاتِ شعرهنّ. لكنّ هذا لم يستمرّ طويلًا، إذ جاءتْ فاندا وهي تعتمرُ قبّعةً من فرو القاقم، وتضع يديها في جيبي معطفها. فكَّتْ وثاقي، لكنها أبقتْ يديَّ مقيّدتين خلف ظهري. بعد ذلك، وضعتْ نيْرَ المحراث حول رقبتي، وشدّتْني إليه.
بعدها، راحتْ شيطاناتُها السوداوات تجرُّني في الحقل، واحدةٌ منهنّ تمسكُ بالمحراث، والثانية تسيرُ أمامي لكي أتبعها في خطٍّ مستقيم، والثالثة تضربني بالسوط. بينما كانتْ فينوس ذات الفراء تقف جانبًا، وتتابع المشهد.

# (٤١)

عندما كنتُ أقدّمُ طعام العشاء في اليوم التالي، قالتْ لي: "أحضِرْ منديلًا آخر، أريدكَ أن تتعشّى معي اليوم". وحينما كنتُ على وشكِ الجلوس قبالتها، أضافتْ: "لا، تعال إلى هنا، اجلسْ بجانبي".

كم هي بارعةٌ في السخرية! كانتْ تسقيني الحساء بملعقتها، وتطعمني بشوكتها، تسندُ رأسها على الطاولة مثل قطةٍ كسلى وتداعبني. كانت هايدي تخدمُ بدلًا مني هذا المساء، وللمرة الأولى ألحظُ ملامح وجهها الجميلة، وكأنها نبيلةٌ أوروبية، وجسدَها الرائع مثل تمثالٍ بديعٍ منحوتٍ في الرخام الأسود. انتبهت الشيطانةُ السوداء أنها تعجبُني، فابتسمتْ كاشفةً عن أسنانها البيض. بالكاد استطاعتْ فاندا إخراجها من الغرفة، ثم وقفتْ غاضبةً:

"ماذا؟ تتجرّأُ على النظر إلى امرأة أخرى وأنتَ معي! ربما أنتَ معجبٌ بها أكثر مما أنتَ معجبٌ بي، فهي تشبه الشيطان أكثر مني!".

أصبتُ بالذعر، فلم أرها غاضبةً إلى هذه الدرجة من قبل. كان وجهُها كالحًا، حتى شفتاها فقدتا لونهما الأحمر، وصار جسدُها يرتجف بأكمله. فينوس ذات الفراء... تغارُ من عبدتها...!!! استلَّتِ السوط من علّاقته، وضربتني على وجهي. ثم نادتْ خادماتها السوداوات، فقيّدنني وحملْنني إلى القبو، ثم ألقينني في حُجرةٍ مظلمةٍ ورطبةٍ تحت الأرض. إنها زنزانةٌ منفردة بكل معنى الكلمة.

بعدها، سمعتُ البابَ يُغلَق، ولسانَ القفلِ يُسحَب، والمفتاحَ يعربدُ في القفل. أنا الآن محبوس، بل مدفون.

لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا مرميٌّ هنا، مُكبَّلٌ مثل عجْلٍ يجَرُّ إلى المسلخ، فوق كومةٍ من القشّ الرطب، من دون أيّ ضوء، من دون لقمة طعام، من دون رشفة ماء، من دون إغفاءة عين. يبدو أنها سوف تتركني أتضوّرُ جوعًا حتى الموت. ها إني أرتجفُ من البرد، أم إنها الحُمّى؟ ... أعتقد أنني بدأتُ أكرهُ هذه المرأة.

# (٤٢)

خطٌّ أحمرُ مثل الدم، امتدَّ على طول الحُجرة. كان ضوءًا قادمًا من الباب الذي فُتح فجأة.

ظهرتْ فاندا عند العتبة، ملتفّةً بفرو السَّمُّور، تحمل بيدها مشعلَ نار.

"أما زلتَ حيًّا؟"

"هل أتيتِ لقتلي؟"، أجبتُ بصوتٍ مبحوح.

بخطوتين سريعتين وصلتْ إليّ، نزلتْ على ركبتيها أمامي، ووضعتْ رأسي في حضنها.

"هل أنت مريض؟ عيناكَ محمرّتان كثيرًا. هل تحبّني؟ أريدك أن تحبني".

بعد قليل، سحبتْ خنجرًا قصيرًا، صرتُ أهذي عندما التَمَعَ نصلُه أمام عيني. أيقنتُ تمامًا أنها سوف تقتلني. لكنها ضحكتْ، وقطّعت الحبال التي تكبّلني.

# (٤٣)

صارتْ تناديني كلَّ مساءٍ بعد العشاء. كنتُ أقرأ لها، ونتبادل النقاش في عدة موضوعات إشكاليّة ومثيرة للاهتمام. يبدو أنها قد تغيَّرتْ كليًّا، وكأنها تشعرُ بالعارِ بعد الوحشيّة التي أظهرتْها تجاهي، والقسوة التي عاملتْني بها.
في وجهها، رقّةٌ بالغةٌ غيّرتْ ملامحها. وفي عينيها، قوةٌ خارقة من الطيبة والحبّ. من النوع الذي يُغري أعيننا بالبكاء، ويجعلُنا ننسى كلَّ مآسي الوجود، وكلَّ مخاوف الموت.

# (٤٤)

عندما كنتُ أقرأ لها رواية "مانون ليسكو"، كانت مندمجةً في القصة والأحداث بشكل كامل، لم تقلْ أيّ كلمة، كانت تبتسم فقط بين فترةٍ وأخرى. وفي النهاية، أخذتِ الكتابَ مني وأطبقتْه.

"ألا تريدين أنْ أتابع القراءة؟"

"ليس اليوم، فاليوم سوف نمثّل حكاية "مانون ليسكو" بأنفسنا. لديّ موعد في حديقة "كاشيني"، وأنتَ يا فارسي العزيز، سوف ترافقني. أعرف أنك سوف تذهب، أليس كذلك؟"

"كما تأمرين".

"أنا لا آمركَ، أنا أتوسّل إليك"، قالتْها بسحرٍ لا يقاوَم. ثم وقفتْ، وضعتْ يديها على كتفي، ونظرتْ في عيني: "عيناك... أحبّكَ يا سيفرين، أنتَ لا تعرف كم أحبك".

"بلى، أعرف. تحبّينني كثيرًا، إلى درجة أنكِ قد رتّبتِ موعدًا لكِ مع شخصٍ آخر".

"أفعلُ هذا لكي أُغويكَ أكثر فحسب، ينبغي أنْ يكون لديّ عشّاق لكيلا أخسرك. لا أريد أنْ أخسرك أبدًا، إطلاقًا، هل تسمع؟ لأنني أحبُّكَ أنت فقط، أنت لوحدك".

قبّلتْني بحرارة.

"آهٍ كم أتمنّى، لو أستطيعُ فقط، أنْ أهبكَ روحي كلَّها في قُبلة واحدة، والآن هيّا... تعال".

ارتدتْ فاندا معطفًا مخمليًّا أسود، ووضعت القَلْبَقَ على رأسها. ثم خرجتْ عبر الرواق مسرعة، وركبتْ العربة. "غريغور سوف يقود العربة"، قالت للحوذيّ الذي تراجع مندهشًا. صعدتُ إلى مقعد الحوذي، وزجرتُ الأحصنة غاضبًا.

في "كاشيني" حيث يغدو الطريق الرئيسي مفروشًا بأوراق الشجر، نزلتْ فاندا. كان الوقتُ ليلًا، والغيوم الرمادية تغطي السماء. على ضفة نهر أرنو، وقفَ رجلٌ يرتدي معطفًا رماديًّا، ويضعُ قبّعةً أشبَه بقبّعاتِ اللصوص وقطّاع الطرق. سارتْ فاندا بسرعةٍ بين الشجيرات، وربَّتتْ على كتفه. رأيتُه وهو يلتفتُ إليها ويمسكُ يدها، ثم اختفيا معًا وراء الحُجُب الخضراء.

مرّتْ ساعةٌ من العذاب المرير، إلى أنْ سمعتُ حفيفًا بين الأغصان، حينما خرجا من إحدى الجهات. رافقها الرجلُ إلى العربة، وحين وقفَ تحت مصباح الشارع رأيتُ وجهه، كان وسيمًا دائم الشباب، رقيقًا وحالمًا. لم أرَ مثلَ جماله، وجمال خصلاتِ شعره الشقراء المسترسلة. مدّتْ يدَها له، فقبّلها باحترامٍ كبير. ثم أعطتني إشارة الانطلاق، وسارت العربةُ فوق الطريق المُورِق الممتدّ بمحاذاة النهر، وكأنه بساطٌ أخضر طويل.

# (٤٥)

قُرعَ جرسُ بوابة الفيلّا. إنه وجهٌ مألوف، إنه الرجلُ ذاته الذي رأيتُه في "كاشيني".

"مَنْ أقولُ لها؟"، سألتُه بالفرنسية، فهزَّ رأسه خجلًا.

"هل تعرف بعض الألمانية؟"، سألني باستحياء.

"نعم، اسمُكَ لو سمحت".

"آه... ليس لديّ اسمٌ لحدّ الآن"، أجاب مُحرَجًا. "قُلْ لسيّدتكَ إنّ الرسّام الألماني من كاشيني قد وصل، وهو يرغب بـ... لكنْ، ها هي هناك...".

كانت فاندا قد خرجتْ من الشرفة، وأشارتْ باتجاه الغريب: "غريغور، أرشِدْ السيّد إلى طريق الدخول".

أرشدتُ الرسّامَ إلى السلّم.

"شكرًا، سوف أجدُها الآن. شكرًا، شكرًا جزيلًا لك".

صعد السلالم راكضًا، وبقيتُ واقفًا في الأسفل، أرنو بشفقةٍ عميقةٍ إلى الألمانيّ المسكين.

إنها فينوس ذات الفراء!... اصطادتْ روحَهُ بشِرَاكِ شَعرها الأحمر. سوف يرسمُها، ثم يفقدُ عقله.

# (٤٦)

كان نهارًا شتويًّا مشمسًا. ثمة ارتعاشاتٌ ذهبيةٌ تبرقُ على أوراق الشجر، وتجعلُ لونه الأخضرَ مضيئًا. وكانت أزهار الكاميليا تحتفل ببراعمها الوافرة.
كانت فاندا جالسةً في الشرفة، وكان الرسّام يقف أمامها بيدين متشابكتين، وكأنه يصلّي. ينظر إلى وجهها، يحدّق فيه، ويغرقُ فيه مسحورًا.
لكنها لم تكن تراه، وكذلك لم تكن تراني... أنا مَنْ يمسكُ الرفشَ بيديه، ويقلّبُ التربة في حوض الأزهار. كنتُ وحيدًا جدًّا، أتخيّلُها قربي، وأسافرُ معها في الخيال، وكأننا أبطالُ قصيدةٍ أو أغنية.

# (٤٧)

ها قد رحل الرسّام. كان من الخطورة أنْ أفعل ذلك، لكنني قبِلتُ بالمجازفة، فذهبتُ إلى الرواق واقتربتُ منها، ثم سألتُها: "هل تحبّين الرسّام؟ يا سيدتي".

نظرتْ إليّ من دون غضب، هزّتْ رأسها، ثم ابتسمتْ: "أحزنُ عليه، لكنني لا أحبّه. أنا لا أحبُّ أحدًا، كنتُ أحبّكَ بحرارةٍ وشغفٍ وعمق، وبأقصى ما يمكنني أنْ أحبّ. لكنني الآن لا أحبّك حتى أنت، قلبي خاوٍ تمامًا، قلبي ميّت. وهذا ما يجعلني حزينة".

"فاندا...".

"قريبًا، أنتَ أيضًا سوف تتوقّف عن حبّي. أخبرني عندما تصل إلى هذه النقطة، وسوف أعيدُ لك حريّتك".

"إذا كان الأمر كذلك، فسوف أظلّ عبدًا لكِ طوال حياتي، لأنني أعشقك، وسوف أظلُّ أعشقك دومًا".

"فكّرْ مليًّا قبل أنْ تقرّر. لقد أحببتُكَ من دون حدود، وكنتُ مستبدّةً معكَ لكي أحقّق حلمك. وثمة شيءٌ من شعوري القديم تجاهك، نوعٌ من التعاطف الحقيقيّ معك، ما زال يرتعشُ في صدري. وعندما يختفي هذا الشعور أيضًا، مَنْ يعرفُ إذا ما كنتُ سوف أعيدُ لك حريتك؟ أو ربما سأصبح قاسيةً جدًّا، متوحّشةً وعديمة الرحمة. ماذا لو وجدتُ متعةً شيطانيّةً في تعذيب الرجل الذي يعبدني عبادةً عمياء؟! وعندما أغدو لا مبالية، وأحبُّ رجلًا آخر، قد أتلذّذُ برؤيتكَ تموت عشقًا لي. فكّرْ بكلّ هذا جيّدًا".

"فكّرتُ... ومنذ وقتٍ طويل"، أجبتُ وكأنني في نوبة حُمّى. "لا يمكنني أنْ أوجَد، ولا أستطيعُ أنْ أعيش من دونك. سوف أموتُ إذا ما أعدتِ لي حريّتي. دعيني أبقَ عبدكِ، اقتلُيني... ولكنْ لا تبعديني عنك".

"حسنًا إذًا، فلْتكُنْ عبدي. لكنْ لا تنسَ أنني ما عدتُ أحبّك، وأنّ حبُّكَ لي لا يعني أكثرَ من حبِّ كلب لي، والكلابُ تُركَلُ بالأرجل...".

# (٤٨)

هذا اليوم، زرتُ تمثال "فينوس ميديشي" الرخامي.
كان ذلك في الصباح الباكر، وكانت غرفة المتحف المثمّنة الشكل نصفَ مضاءة وكأنها معبد. وقفتُ أمامها رافعًا ساعديّ ومُطبِقًا راحتي يديّ على بعضهما في وضعيّة الصلاة.
لكنني لم أمكثْ لوقتٍ طويل.
لم يكن هنالك أيُّ إنسانٍ في المتحف. جثوتُ على ركبتيّ، وأمعنتُ النظرَ في القوام الأهيف الممشوق، في النهدين المُفتِّحين وردًا، في الوجه البتولِ/الشهوانيّ في آنٍ معًا، في الضفائر الشذيّة التي -ربما- تُخفي قَرْني شيطانٍ صغيرين على جانبيّ رأسها.

# (٤٩)

دقَّ جرسُ سيّدتي.

كان الوقت منتصفَ النهار، وكانت طريحة الفراش، تشبكُ يديها خلف رقبتها:

"أريد أنْ أستحمّ، وأنت من سوف يخدمني. أقفل الباب".

أطعتُ.

"الآن انزِل الدرجَ وتأكّدْ أنّ البابَ الذي في الأسفل مقفلٌ أيضًا".

نزلتُ على الدرج الدائريّ الذي يمتدُّ من غرفة نومها إلى الحمّام، كانت ساقايّ تعجزان عن حملي، فاستندتُ على الدرابزين الحديدي. عندما تأكدتُ أن الباب المؤدّي إلى الرواق والحديقة مقفل، عدتُ إليها. كانت جالسةً على السرير وشعرها مفرود، ملتفّةً بفروتها الخضراء. حين نهضتْ بسرعة، لاحظتُ أنها لا ترتدي شيئًا تحت الفروة. أحسستُ بالفزع، لا أعرف لماذا، وكأنني مثلُ المحكوم بالإعدام، يعرفُ أنه في طريقه إلى حبْل المشنقة، لكنه – على الرغم من ذلك- يرتجف حين يراه.

"تعالَ يا غريغور، احملْني بيديك".

"هل أنتِ جادّة؟ سيدتي".

"تعال واحملني، ألا تفهم؟"

رفعتُها إلى الأعلى، فاستراحتْ بين ذراعيّ، ولفّتْ ذراعيها حول عنقي. نزلتُ بها الدرجَ ببطءٍ شديد، بخُطىً متلاصقة. كان شَعرها يلامسُ خدّي بين الخطوة والأخرى، وقدمُها تستندُ على ركبتي. كنتُ أرتجفُ تحت هذا الحِمْل الجميل، وأحسُّ في كل لحظةٍ بأنني على وشك الانهيار.

يتألّفُ الحمّامُ من غرفةٍ مستديرة واسعة وعالية الجدران، يدخل الضوء إليها من القبّة الزجاجية الحمراء التي تشكّل السقف. في داخل الغرفة، شُجيرتا نخيلٍ تمدّان سعفَهُما فوق أريكة عثمانية عليها وسائدُ مخمليّة. وهناك سجّادةٌ تركيّة تمتدُّ من مدخل الغرفة حتى منتصفها، حيثُ يقعُ حوضُ الاستحمام الرخاميّ.

جلستْ فاندا على الأريكة: "هنالك شريطةٌ خضراء تركتُها قرب السرير، اذهبْ وأحضِرْها، واجلِب السوطَ كذلك".

طرتُ إلى الأعلى وعدتُ سريعًا، انحنيتُ وأعطيتُها ما طلبتْ. بعد ذلك أمرتْني بأنْ أصنعَ جديلةً واحدةً من شعرها الأحمر الغزير، فعلتُ وربطتُ الجديلة بالشريطة الخضراء. ثمّ حضّرتُ حوض الاستحمام، وأنا أختلسُ النظرَ إلى الجميلة المضطجعة بين الوسائد المخمليّة الحمراء، وبين الفينة والأخرى، يبرقُ جسدُها المثيرُ من تحت الفروة. ثمة جاذبيّةٌ مغناطيسيّة أقوى مني، أجبرتْني على النظر إليها. أحسستُ أنّ كلَّ الشهوات الحارقة، كلَّ الشبَق المتفجِّر، يكمن في هذا الجسد نصفِ المستور أو نصفِ المكشوف. قطعتُ الشكّ باليقين عندما امتلأ الحوضُ بالماء، إذ تركتْ فاندا الفروةَ تنزلقُ إلى الأرض، من دون أنْ تُحرّك ذراعيها، ووقفتْ أمامي مثل الربّة التي رأيتها في المتحف.

في اللحظة التي كشفتْ فيها عن جمالها الجليلِ الطاهرِ المقدّس، مثلما كانت الربّاتُ يفعلنَ في العصور الغابرة، ركعتُ أمامها، وقبّلتُ قدمها بخشوع.

وكأنّ روحي قد ضربتْها صاعقةٌ، شلّتْها وأفقدتها الإحساس، فما عادتْ ترى في فاندا غير النقاء السامي.

نزلَتْ إلى حوض الماء مثل النسمة، وأنا أرمقُها بسكونٍ لا تشوبُهُ ذرّةُ عذابٍ أو شهوة. كنتُ أراها تغوصُ وتطفو بين قطراتِ الماء الكريستاليّة، وكانت تموّجاتُ الماء التي تُحدِثُها حركتُها، أشبَهَ بعشّاقٍ يطوفون حولها.

لقد أصابَ عالمُ الجمال العدميّ حين قال: التفاحةُ الحقيقية أجملُ من التفاحة المرسومة، والمرأةُ الجميلةُ الحيّة أجملُ من فينوس الحجرية.

خرجتْ من حوض الاستحمام، وقطراتُ الماء الفضيّة والأنوارُ الورديّة تترقرقُ على جسمها. لفَفْتُ المناشف حولها، ورحتُ أجفّفُ الجسد المجيد. يا لهُ من نعيم! قدماها ترتاحان فوقي وكأنني مسنَدٌ لهما، بينما هي تسترخي على الأريكة بمعطفها المخمل الكبير، والفرو الناعم يحضنُ جسدَها الرخاميّ البارد بشوقٍ وحنان. كانت ذراعها اليُسرى التي تضطجع عليها، تختبئُ مثل بجعةٍ بيضاء في الفرو الأسود، بينما تلوّح يدُها اليمنى بالسوط.

بالصدفة، وقعتْ عيناي على المرآة الضخمة المثبّتة على الجدار المقابل، وصرختُ إذ رأيتُ كلينا داخلَ إطار اللوحة الذهبيّ. كانت لوحةً رائعة الجمال، شديدة الغرابة، وجامحة الخيال. ثم انتابني حزنٌ عميقٌ حين تذكّرتُ أنّ هذه الخطوط والألوان؛ سوف تتلاشى مثل السراب.

"ما الأمر؟"، سألتْ فاندا.

أشرتُ إلى المرآة.

"آهٍ... إنها حقًّا جميلة! من المؤسف أنّ الإنسان لا يستطيع أنْ يقبضَ لحظةً كهذه، ويجعلها خالدة".

"كيف لا؟ أليسَ كلُّ رسّامٍ على وجه الأرض، حتى أكثرهم شهرة، سيكون فخورًا إذا ما أعطيتِه الفرصة لكي يرسُمَكِ ويجعلكِ خالدة؟ ... أكثرُ الأفكار خطورةً؛ هي أنّ هذا الجمال الاستثنائي سوف يغادر العالم. إنه لأمرٌ مرعب! حين أفكّرُ

بتعابير وجهكِ الجليلة، بعينيكِ الغامضتين وضوئهما الأخضر، بشَعركِ الشيطانيّ المجنون، بهذا الجسد العظيم!... أمتلئُ رعبًا من الموت، من فكرة الفناء. لكنّ يدَ الرسّام تستطيعُ انتشالكِ من ذلك. أنتِ لستِ مثل الأُخريات، ممّن يختفون كليًّا وإلى الأبد، من دون أنْ يتركوا أثرًا يدلُّ على وجودهم. أنتِ... يجبُ أنْ تعيش صورتكِ إلى الأبد! وحتى بعد أنْ يتحوّل جسدكِ إلى تراب، سوف ينتصرُ جمالُكِ على الموت".

ابتسمتْ فاندا، وقالت: "من سوء الحظّ أنّ إيطاليا اليوم لا تملكُ تيتيان أو رافائيل. لكنْ، قد يعوّضُ الحبُّ عن العبقرية، مَنْ يعرف؟ ربما يستطيعُ الألماني الصغير فعلها...".

"نعم، يجبُ عليه أنْ يرسمك، وسوف يكون مسرورًا عندما تَهبُ ربّةُ الحبّ الحياةَ لألوانه".

# (٥٠)

أثّثَ الرسّامُ الشابُّ مرسمَهُ في إحدى غرف الفيلّا، ويبدو أنه قد وقعَ في شِرَاكها نهائيًّا.

بدأ برسمِ لوحةٍ للسيدة العذراء، لكنها عذراءُ ذات شَعرٍ أحمر وعينين خضراوين! لا يمكنُ لغير المثاليّة الألمانيّة أنْ توظّفَ امرأةً أرستقراطية كرمزٍ للعُذرية!

يبدو أنّ صاحبنا المسكين... حمارٌ أكبرُ مني!

# (٥١)

إنها الآن تضحكُ على كلينا باستهزاء شديد، ويا لَها من ضحكة!
أسمعُ ضحكتها المتغطرسة الرنّانة آتيةً من المرسم، عبْرَ الشبّاك المفتوح الذي أقفُ تحته، لأسترق السمع إليهما، والغيرةُ تأكلُني.

# (٥٢)

"هل أنتَ مجنون؟ هذا لا يصدَّق! رسمتَني أنا على شكل والدة الله!"، صاحتْ فاندا، ثم ضحكتْ. "انتظرْ لحظة، سوف أُريكَ صورةً فوتوغرافيّة لي، وعليكَ أنْ تقوم بنسخها".

مدّتْ رأسَها من النافذة، متوهّجًا مثلَ شعلة نار تحت الشمس: "غريغور".

ركضتُ عبر الرواق مُتّجهًا إلى المرسم.

"أرشِدْهُ إلى الحمّام"، أمرتْ فاندا، وانصرفتْ.

عادتْ بعد دقائق، كانتْ لا ترتدي شيئًا سوى فروة السَّمُّور، وكان السُّوط بيدها. مشَتْ باتجاه الأريكة المخمليّة واضطجعتْ عليها. استلقيتُ عند قدميها، فوضعتْ إحدى قدميها فوقي، ويدُها اليُمنى تلوّح بالسوط. "انظُرْ إليّ، أريدُ نظرتكَ العميقة الحالمة، نعم هذا هو المطلوب".

اصفرَّ وجهُ الرسّام وهو يلتهمُ المشهدَ بعينه الزرقاوين الجميلتين، وفتح فمه كالأبله.

"حسنًا، ما رأيكَ أنْ تكون اللوحة هكذا؟"

"نعم، هكذا أريد أنْ أرسمكِ"، تكلّم الألمانيّ. لكنها -في الحقيقة- لم تكنْ لغةً منطوقة، بل نواحٌ بليغ، ونحيبُ روحٍ عليلةٍ إلى درجة الموت.

# (٥٣)

انتهت الخطوطُ الرئيسيّة للوحة، تلك المرسومةُ بقلم الفحم، بما فيها الرؤوس وأجزاء الجسم. كان وجهُها الشيطانيُّ واضحَ الملامح، يكادُ أنْ ينطُق، ويكاد البرقُ أن يسطع من عينيها الخضراوين.

وقفتْ فاندا أمام اللوحة مقاطعةً ذراعيها فوق صدرها.

"هذه اللوحة، مثل كثيرٍ من لوحات المدرسة الفينيسيّة، تتضمّنُ بورتريهًا وتحكي قصّةً في الوقت ذاته". شرحَ الرسّامُ بوجهٍ شاحب، وكأنه على وشك الموت.

"وماذا سوف تُسمّي اللوحة؟ ... لحظة، ماذا دهاك؟ هل أنتَ مريض؟"

"أنا خائف"، أجاب بنظرةٍ منهكةٍ ضاعتْ في فراءِ الفاتنة. "لكنْ، دعينا نتحدّث عن اللوحة".

"نعم، فلْنتحدّثْ عن اللوحة".

"أتصوّرُ أنّ ربّة الحبّ قد نزلتْ من جبل الأولمب من أجلِ رجُلٍ فانٍ، وبما أنّ الطقسَ باردٌ دومًا في العالم الحديث الذي نعيشُ فيه، حاولتْ إبقاءَ جسدِها الجليل دافئًا داخلَ فروةٍ ضخمة وسميكة، وهي أيضًا تدفّئُ قدمَها في حضن عاشقها. أستطيعُ تخيُّل الأشياء المفضّلة لدى المستبدّة الجميلة، فهي تجلدُ عبدَها حين تسأمُ من تقبيله. وكلّما داستْ عليه تحت قدميها، ازداد عشقُه المجنونُ لها. ولذلك فإنني سأُسمّي اللوحة: فينوس ذات الفراء".

# (٥٤)

كان الرسّامُ يعملُ ببطءٍ شديد، لكنّ غرامه يكبُرُ بسرعةٍ فائقة. أخشى عليه أنْ ينتحر في نهاية الأمر، إذ كانت تعبثُ به، وتعرضُ عليه ألغازًا لا يستطيعُ حلّها. كانت تراهُ مشدوهًا أمامها، وكأنّ دمهُ يتخثّر في شراييِنه، وكان ذلك يسلّيها.

أثناء عمله على اللوحة، كانت تجلس قُبالته، تأكلُ بعضَ السكاكر بقضماتٍ صغيرة، ثم تلفُّ قشرة السُكَّرة التي أكلتْها على شكل كُريّة، وترشقُه بها.

"يسعدني ما لديك من حسّ الفكاهة"، قال الرسّام. "لكنّ وجهكِ فقدَ التعابير التي أحتاجُها لرسم لوحتي".

"التعابيرُ التي تحتاجها لرسم لوحتك؟ ... انتظرْ لحظة".

نهضتْ فاندا وناولتْني ضربةً بالسُوط. نظر الرسام إليها مذهولًا، وبدَتْ دهشةُ الأطفال على وجهه، ممزوجةً بالإعجاب والاشمئزاز.

أثناء قيامها بجلْدي، اكتسبَ وجهُها ملامحَ القسوة شيئًا فشيئًا، وتعابيرَ الازدراء والاستهزاء التي خطفتْني وأسكرتْني عشقًا بها.

"هل هذه هي التعابيرُ التي تحتاجها لرسم لوحتك؟"، سألتِ الرسام، فأخفضَ نظره إلى الأرض، مرتبكًا أمام وميضِ عينيها الأخضر.

"هذا ما أحتاجه بالضبط... لكنني.... لا أستطيع الرسمَ الآن..."

"ماذا؟"، قالتْ فاندا بغضب: "ربما أستطيعُ مساعدتكَ؟".

"نعم"، صاحَ الألماني وكأنه فقدَ عقله: "اجلديني أنا أيضًا".

"آهِ... يا لَها من متعة! لكنْ إذا ما أردتُ أنْ أجلدك، فإنني سأفعلُها بجدّية مطلقة".

"اجلديني حتى الموت"، صرخ الألماني.

"هل تسمحُ لي أنْ أقيّدك؟"، قالتْها مع ابتسامة.

"نعم"، تأوَّه المسكين.

غادرت فاندا الغرفة، ثم عادتْ بعد دقائق ومعها الحِبَال.

"حسنًا، أما زلتَ تملكُ الشجاعة الكافية لتضعَ نفسَك تحت سُلطة فينوس ذات الفراء، المستبدّة الفاتنة، في السرّاء والضرّاء؟"

"نعم، اربطيني"، أجابَ الألمانيّ مُصفَرّ الوجه.

ربطتْ فاندا يديه خلف ظهره، ولفّت الحبلَ حول ذراعيه وساقيه. ثم جرّتْه خلفها، وأوثقتْهُ إلى قضبان النافذة. بعدها ألقتِ الفروة على الأرض، واستلَّت السوط، وسارتْ ببطءٍ إليه.

كان للمشهد جاذبيةٌ كبيرة عليّ، لا يمكنني وصفها. أحسستُ بقلبي يقفز من مكانه حين ابتسمتْ ومدَّتْ ذراعها إلى الأعلى استعدادًا للضربة الأولى، فأحدثَ السوطُ صفيرًا في الهواء. لقد فزعَ المسكينُ من الضربة الأولى، ثم أتبعتْها بعدّة ضرباتٍ تساقطتْ كالمطر على ظهره. كان فمُها نصفَ مفتوح، وأسنانُها البيضاء تلمع بين شفتيها الحمراوين. هكذا... إلى أنْ بدا على عينيه الزرقاوين المثيرتين للشفقة أنه يتوسّلُ الرحمة منها. كان مشهدًا يفوق الوصف.

# (٥٥)

إنها تجلس معه الآن، وحيدَين، وهو يرسمُ وجهها. بينما وضعتْني في الغرفة المجاورة مختبئًا خلف ستارة سميكة، بحيث لا يمكن رؤيتي، لكنني أستطيع رؤية كل شيء. ما الذي تنوي فعله الآن؟!

هل هي خائفة منه؟ لقد أوصلتْه إلى درجةٍ من الجنون تكفي لكيلا تخشى منه أي شيء. أم تُراها تدبّرُ مكيدةً جديدة لتعذيبي؟ ... ركبتاي تصطكّان.

إنهما يتحدّثان. كان صوته منخفضًا جدًّا حتى إنني أكاد لا أفهمُ أيّ كلمة، وهي أيضًا تجيبه بمستوى الصوت نفسه. ما معنى هذا؟ هل هنالك اتفاقٌ بينهما؟!

تجرّعتُ ألوانَ العذاب، وكاد قلبي أنْ يفقع.

ها هو ينزل على ركبتيه أمامها، يعانقها، ويدفنُ رأسه أسفل نهديها. أما هي فتضحكُ بقلبٍ متحجّر، ثم قالتْ بصوتٍ جهُور: "آه... تريد أنْ أستعمل السوطَ مرةً أخرى؟"

"يا امرأة! يا ربّة! هل أنتِ بلا قلب... ألا تستطيعين أنْ تحبّي؟"، صاح الألماني.

"هل تعرفين معنى أنْ يحبّ المرء؟ أن يكون مسكونًا بالرغبة والشغف؟ ألا تقدرين على تصوّر ما أُعانيه؟ ألا تملكين ذرّة شفقة تجاهي؟!"

"لا"، أجابتْ بفخرٍ وازدراء. "لكنني أملكُ السوط".

استلّتِ السوط بسرعةٍ من جيب معطف الفرو، وضربتْه على وجهه بالمقبض.

قفزَ المسكينُ... وتراجع إلى الخلف بضع خطوات.

"والآن، هل صرتَ جاهزًا للعودة إلى الرسم؟"، سألتْ لا مبالية. لكنه لم يُجبْها، مشى باتجاه لوحته، وأمسك بالفرشاة ومزّاجة الألوان.

كانت اللوحةُ ناجحةً ورائعة، إنها بورتريه لن يُرسَمَ مثلُه مهما استمرَّ رسمُ البورتريهات على وجه الأرض. وهي متقنةٌ إتقانًا مثاليًّا، إذ تتوهّجُ الألوانُ فيها وكأنها قادمةٌ من عالمٍ آخر، دعني أقُلْ إنها ألوانٌ شيطانية.

لقد سكبَ الرسّامُ كلّ ما فيه من عشقٍ وعذاب، وصبَّ لعناته كلَّها، في هذه اللوحة.

# (٥٦)

هو الآن يرسمُني، ونبقى لوحدنا عدّة ساعاتٍ كل يوم.
لكنه اليومَ التفتَ إليّ فجأةً، وقال بصوتٍ مرتجف: "أنتَ تحبُّ هذه المرأة؟"
"نعم".
"وأنا أحبُّها أيضًا". كانتْ عيناه غارقتين بالدموع، فصمتَ لبرهةٍ من الزمن، ثم عاود الرسم.
بعد قليلٍ، سمعتُه يتمتمُ كمَنْ يحدّثُ نفسه: "لدينا جبلٌ في ألمانيا، لقد جاءتْ منه هذه المرأة. إنها حتمًا من نسل الشياطين".

# (٥٧)

ها قد انتهتْ اللوحة، وقد أصرَّتْ فاندا على أنْ تدفع لهُ أجرةً سخيّة على عادة الملكات.

"آه... لقد أخذتُ أُجرتي سلفًا"، قال مع ابتسامةٍ عذبة، رافضًا عرضَها.

قبل أنْ يرحل، فتحَ ألبوم الصور الفوتوغرافية الذي معه، ودعاني للمشاهدة.

صُعِقتُ حين رأيتُ وجهَها ينظرُ إليّ وكأنه منعكِسٌ على مرآة صافية، لقد بدتْ صورتُها نابضةً بالحياة.

"سوف آخذُ هذه الصورة معي، إنها لي، ولا يمكنها أنْ تأخذها مني. لقد كسبتُها بدمِ قلبي".

# (٥٨)

"أشعر بالحزن الشديد على الرسام المسكين"، قالتْ لي اليوم. "من غير المعقول أنْ يكون المرءُ شريفًا إلى الدرجة التي أنا عليها، ألا تعتقد ذلك؟"
لم أملك الجرأة على الإجابة.
"آه، نسيتُ أنني أتحدّث إلى عبد. أحتاجُ إلى بعض الهواء النقيّ، أريد أنْ أسلو وأنسى. جهّز العربة بسرعة!".
كان زيُّها الجديد فاخرًا؛ جزمة روسيّة قصيرة لونها بنفسجيّ، مصنوعةٌ من الجلد ومبطّنة بالفراء الذي يظهر خارجًا من حوافها العليا. وقميصٌ من المخمل الأزرق مزيّنٌ بخطوطٍ رفيعة من الفراء الزهريّ، فوقه معطفٌ قصير يضيقُ على الجسد. وقد وضعتْ على رأسَها قبّعةً طويلة من فرو القاقم، كتلك التي كانتْ تضعها كاثرين الثانية، ولها ريشةٌ مثبّتة بدبّوس عليه لؤلؤة. وكان شعرها الأحمر ينسابُ طليقًا على طول ظهرها. صعدتْ إلى مقعد الحوذيّ، وأمسكتِ اللِّجام بيديها، بينما جلستُ خلفها. كانت تجلدُ الجيادَ بقوةٍ، فتكادُ العربة أن تطير فوق الأرض. من الواضح أنّ هذه هي طريقتها الجديدة للَفتِ الانتباه، للقيام بغزوةٍ ظافرة، وهي غالبًا ما تنتصر في غزواتها. إنها لبوةُ حديقة "كاشيني"، يُحيّيها الناسُ من عرباتهم، ويحتشدُون حول ممشى الحديقة لكي يتحدثوا عنها. لم تكنْ تُعيرُ انتباهًا لأحد، لكنها أحيانًا تردُّ التحيّة لبعض كبار السنّ من النبلاء، بإيماءة رأسٍ طفيفة. فجأةً، ظهر شابٌّ يمتطي حصانًا رشيقًا أسود، مُنطلقًا بسرعةٍ قصوى. لكنّه كبحَ حصانَهُ عندما رأى فاندا، وتركَهُ يُهرولِ. وحين صار قريبًا منها، أوقفَ حصانه تمامًا، وتركَها تمرُّ من

أمامه. وهي رأتْهُ أيضًا (اللبوةُ رأتِ الأسد) والتقَتْ عيونُهما معًا. لقد تجاوزتْ عربتُها حصانَه على مضَض، لكنها لم تستطع انتزاعَ نفسها من شَرَكِ نظرته الساحرة، فأدارتْ رأسَها إلى الوراء، في اتجاهه.

توقّفَ قلبي عن الخفقان، حين رأيتُ النظرة نصفَ المتفاجئة/نصفَ المسرورة التي التَهَمتْهُ بها. لكنه يستحقّها بالفعل.

إنه نموذجٌ خارق من الرجال، لا شكَّ أنني لم أرَ رجلًا مثله بين الرجال الأحياء. لكنني رأيتُ مثله في قصر "بلفيدر"، رأيتُه منحوتًا في الرخام، بالقَوَام الرشيق والعضلات الفولاذية ذاتها، والوجه الجميل وخصلات الشعر المتموّجة نفسها. لو كانتْ أردافه أعرَضَ بقليلٍ، لكان المرءُ حسِبَهُ امرأةً وانخدَع به. التعابيرُ المثيرة حول فمه، الشفةُ الأسديّةُ التي تكشفُ قليلًا عن أسنانه البيضاء، تُضفي مسحةً من القسوة الطفيفة على الوجه الجميل.

إنه أبولو يسلخُ جلدَ مارسياس[٥٩].

كان يلبسُ جزمةً طويلةً سوداء، وبنطالًا من الجِلْد الأبيض يلتصقُ على الجسم، ومعطفًا قصيرًا أسودَ كالذي يرتديه الضبّاطُ الفرسان، مزيّنَ الأطراف بفراءِ أستراخان والعديد من الشناشيل الحريرية. وفوق خصلات شعره السوداء، ثمة طربوشٌ أحمر.

الآن عرفتُ ربَّ الحبّ المُذكَّر!

أتعجّبُ من سقراط، كيف ظلَّ عفيفًا حين رأى ألكيبادس الرائع الجمال مثله؟![٦٠]

---

[٥٩] - في الأسطورة الإغريقية، يأتي عازفُ الناي مارسياس ليتحدّى أبوللو –إله الشعر والموسيقى والفنون- في مسابقةٍ للعزف، لكنه يخسر التحدي، وعقابًا له، يقوم أبوللو بسلْخ جلده حيًّا.

[٦٠] - ألكيبادس (٤٥٠-٤٠٤ ق.م): خطيب ورجل سياسة وقائد عسكري بارز، كان تلميذًا للفيلسوف سقراط، واشتُهر بوسامته الفائقة.

# (٥٩)

لم يسبقْ لي أنْ رأيتُ لبوةً سعيدة. عندما نزلتْ من العربة أمام مدخل الفيلّا، لاحظتُ وجنتيها الملتهبتين. ثم ركضتْ على الدرج بسرعة، وبنظرةٍ إمبراطوريةٍ منها، أمرتْني بأنْ أتبعها.

كانتْ تجوبُ الغرفة جيئةً وذهابًا، بخُطىً واسعة. ثم بدأتِ الكلام بسرعةٍ كبيرة، بشكلٍ صرتُ فيه مذعورًا.

"يجبُ عليكَ أنْ تعرفَ مَنْ ذاك الرجل الذي رأيناه في كاشيني، وفورًا. آهٍ... يا لَهُ من رجل! ما رأيكَ به؟ أخبرني".

"إنه... وسيم"، أجبتُ ببلاهة.

"بل وسيمٌ جدًّا...! لقد أبهرني بجماله".

"يمكنني فهمُ الانطباع الذي تركَهُ فيك". حملَني خيالي بعيدًا، ورماني في دوّامةٍ مجنونة: "أنا، أنا بنفسي، غرقتُ إعجابًا به، ويمكنني أنْ أتصوّر..."

"يمكنكَ أنْ تتصوّر..."، ضحكتْ بصخب. "أنّ هذا الرجل هو حبيبي، وأنه سوف يجرّبُ السوط عليك، وأنكَ سوف تستمتع بالعقاب على يده. لكن الآن، اذهبْ من هنا..."

# (٦٠)

قبل حلول المساء، كانت المعلومات المطلوبة بين يديّ.

كانت فاندا ما تزال ترتدي ثياب الخروج، جالسةً على الأريكة ووجهُها يتحرّقُ بين يديها، وشَعرها متشابكٌ بشكلٍ همجيّ، وكأنه لِبْدةُ أسدٍ حمراء.

"ما اسمُه؟"، سألتْ ببرودٍ غريب.

"ألِكْسِيس بابادوبوليس".

"إنه يونانيٌّ إذًا".

أومأتُ برأسي.

"هل هو شابّ يافع؟"

"أكبرُ منكِ بقليل. يقولون إنه درس في باريس، وإنه ملحد. لقد حارب ضدّ الأتراك في كريت، ويُقال إنه برزَ في الحرب بشكلٍ مميّز واكتسبَ شهرةً واسعة. لا بسبب كراهيّته العنصريّة لهم فحسب، بل بفضل قوّته وشجاعته فوق ذلك".

"كلُّ هذا في شخصٍ واحد؟ يا لَهُ من رجل!"، قالتْ بعينين تتلألآن.

"في الوقت الحاضر، يعيش في فلورنسا، ويُقال إنه فاحش الثراء".

"لم أسألكَ عن هذا"، قاطعتْني بحدّة. "إنه رجلٌ خطير، أَلستَ خائفًا منه؟ أنا خائفة منه. هل لديه زوجة؟"

"لا".

"عشيقة؟"

"لا".

"ما هي المسارح التي يرتادها؟"

"هذه الليلة، سوف يذهب إلى مسرح "نيكوليني"، فهنالك مسرحية لـ سالفيني وفرجينيا ماريني، وهما أعظم ممثلَين في إيطاليا، وربما في أوروبا كلها".

"اذهبْ واشترِ تذكرةً بالسرعة القصوى".

"لكنْ، يا سيدتي".

"هل اشتقتَ لطعمِ السوط؟!"

# (٦١)

"يمكنكَ الانتظارُ في البهو"، قالتْ بعدما أعطيتُها منظارَ المسرح، وجدولَ العُروض، وركّزتُ لها مسندَ القدمين.

كنتُ في البهو الخارجي، أستندُ إلى الجدار قليلًا، لكيلا أسقطُ مُضرّجًا بالحسَد والغضب. لا ليس الغضبُ كلمةً مناسبة، إنه خوفٌ قاتل.

رأيتُها جالسةً في مقصورتها، ترتدي ثوبًا مموَّجًا أزرق، وتضعُ فروةً كبيرة فوق كتفيها العاريين. كان جالسًا قبالتها، رأيتُهما... وكلٌّ منهما يلتهمُ الآخر بنظراتِ عينيه. بالنسبة إلى كليهما، لم تكن خشبةُ العرض، وسالفيني وماريني، والجمهور، وحتى العالم بأكمله؛ موجودين في هذه الليلة. أما أنا... فماذا كنتُ أنا بحقّ الجحيم؟!

# (٦٢)

عرفتُ اليوم أنها ذاهبةٌ لحضور حفلة راقصة في بيت السفير اليونانيّ. هل تعرفُ أنها ستلتقي به هناك؟

في كل الأحوال، ارتدتْ ملابسَ تُوحي بأنها سوف تراه. فستانٌ حريريّ فيروزيُّ اللون، يلتصقُ على جسمها المقدّس بشكلٍ ساحر، تاركًا ذراعيها وصدرها مكشوفين. وقد ربطتْ شَعرها على شكلِ سُنبلةٍ عريضةٍ تتدلّى على ظهرها، ووضعتْ على رأسها إكليلًا من زهر النيلوفر. كانت بعضُ خصلاتِ شعرها ملتفّةً على عيدان الإكليل، بينما تنسابُ خصلاتٌ أخرى حول عنقها. لم يعدْ هناك أيُّ أثرٍ للانفعال أو الارتجاف في كيانها، لقد كانت هادئة جدًّا، وباردةً جدًّا. حتى إنني أحسستُ دمي يتجمّد، وقلبي يتثلّج، تحت نظرتها الباردة.

ببطءٍ وعظمةٍ ملوكيّةٍ، صعدتْ أدراجَ البيت الرخاميّ، تاركةً أذيالَ ثوبها تنداحُ وراءها، ودخلتِ القاعة غير مباليةٍ بأحد. كان في القاعة مئات الشموع، وكان دخانُها يطفو مثل سحابةٍ فضّيةٍ فوق الرؤوس.

لبضع دقائق، ظلّتْ عيناي تلاحقانها مبهورتين. ثم انزلقتْ فروتُها من بين يديّ من دون أنْ أشعر، فالتقطتُها بسرعة. ما زالت الفروةُ تحتفظُ بدفء كتفيها، رحتُ أقبّلُها وعيناياَ تفيضان دمعًا.

# (٦٣)

ها قد وصل.

كان يرتدي معطفًا طويلًا من الجوخ الأسود، ولهُ ياقةٌ من الفرو. كم هو جميل! كم هو مستبدٌّ جبّارٌ يلعبُ بأرواحِ البشر وحَيَواتهم. وقفَ في ردهة الانتظار، ينظرُ من فوق كتفيه بشُمُوخٍ وكِبَر، ثم وقعتْ عيناهُ عليَّ لمدة طويلة ومُرْبكة. تحت نظرتهِ الجليديّة، وجدتُ نفسي مرةً أخرى مسكونًا بخوفٍ قاتل. لديَّ شعورٌ مسبَقٌ أنّ هذا الرجل قادرٌ على أسْرِها، وسلْبِ قلبها، وإخضاعها. أحسُّ بوضاعتي أمام رجُولتهِ العنيفة، والحسدُ والغيرةُ يملآن قلبي.

أشعرُ أنني مخلوقٌ ضعيفٌ تافه. وما يزيدُ من ذُلّي وهَوَاني، هو أنني أريد أنْ أكرهه، لكنني لا أستطيع!

من بين حشدِ الخدَمِ كلّه، اختارني أنا...!

بإيماءةٍ أرستقراطيّة رائعة من رأسه، ناداني لكي آتي إليه. وأنا... أطعْتُ نداءَهُ... رغمًا عن أنفِ إرادتي.

"خُذْ معطفي"، أمرَني بسرعة.

كان جسدي يرتجف غيظًا، لكنني أطعتُهُ صاغرًا وخانعًا كالعبد.

# (٦٤)

مرَّ الليلُ وأنا واقفٌ في الردهة، أهذي كالمحموم. بدأتْ صورٌ غريبة تحومُ في عينِ قلبي، كنتُ أرى لقاءَهُما وتبادُلَهما للنظرات المُمْعِنة. أراها تطيرُ في أرجاء القاعة محمولةً على ذراعيه، سَكْرى، مسترخيةً بعينين نصف مغلقتين على صدره. وأراهُ في قُدسِ أقداس العشق، مُضطجعًا على الأريكة، لا كعبدٍ، بل كسيّد، وهي مَنْ تجلسُ عند قدميه. ثم أراني ماشيًا على ركبتيّ، أقدّمُ لهما الشاي، لكنني أوقعتُ الصينية أرضًا، فمدَّ يدَهُ إلى السوط...

لكنني الآن أسمع الخدم يتحدثون عنه:

إنه رجلٌ يشبهُ النساء، فهو يعرفُ كم هو جميل، ويتصرّف بناءً على ذلك. يبدّلُ ملابسَهُ أربعَ أو خمسَ مرّاتٍ في اليوم مثل مومسٍ مغرورة بنفسها.

في باريس، كان يرتدي فستانًا نسائيًّا، وكان الرجالُ يتحرّشون به، ويرسلُون إليه رسائل غرامية. وهناك مغنٍّ إيطاليّ مشهورٌ بعذوبة صوتهِ وحُسنِ أدائه، اقتحمَ بيته ذات يومٍ، وجثا على ركبتيه أمامه، وهدّدَ أنه سوف ينتحرُ إذا لم يقبلْ أنْ يكون له. فأجابه: "أنا آسف، كنتُ أودُّ أنْ أُسدي لكَ هذه الخدمة، لكنْ يجبُ عليكَ أنْ تنفّذ تهديدكَ وتنتحر، وذلك لأنني رجل!".

# (٦٥)

كانت قاعةُ الرقص على وشك أنْ تفرغ من الضيوف، لكنْ يبدو أنها لم تفكّرْ بالمغادرة بعدُ.

بدأ الفجر يبزغُ من بين سُتُور الظُّلُمات.

وأخيرًا سمعتُ خشخشةَ فستانها الطويل، وهو ينسحبُ على الأرض خلفها مثل أمواجٍ فيروزية. كانتْ تسير بخُطىً بطيئة، مشغولةً بالكلام معه.

بالنسبة إليها، ما عدتُ أنا موجودًا في هذا العالم، فهي لا تكلّفُ نفسَها عناءَ إصدارِ أيّ أمرٍ لي.

"فروةُ السيّدة"، هو مَن أمرَني.

بينما كنتُ ألفُّ الفروة حول كتفيها، كان يقفُ جانبًا مقاطعًا ذراعيه فوق صدره، فهو غيرُ مستعدٍّ لمساعدتها أو الاهتمام بها قطعًا. ثم جثوتُ على ركبتيّ لكي أساعدها في لبس الجزمة ذات الحواف الفرائية، فوضعتْ يدَها على كتفه واستندتْ عليه، وسألتْهُ: "وماذا عن اللّبوة؟"

"عندما يتعرّضُ الأسدُ الذي اختارتْهُ والذي تعيشُ معه؛ لهجومٍ من قِبَل أسدٍ آخر". تابع اليونانيُّ السرد: "تجلسُ اللبوةُ جانبًا وتشاهد المعركة، وحتى لو انهزمَ شريكُها، فإنها لا تهبُّ لنجدته. إنما تنظرُ لا مباليةً إليهِ وهو ينزفُ حتى الموت تحت مخالبِ غريمه، ثم تتبعُ الغريبَ المُنتصِر. هذه هي طبيعة الأنثى".

في هذه اللحظة، نظرتْ لَبْوتي إليّ.

فارتجفتُ!

وكان الفجرُ الأحمرُ يغمرُنا نحن الثلاثة بالدماء.

# (٦٦)

لم تخلدْ إلى النوم. رمتْ فستانَ الرقص جانبًا، وحلَّتْ غدائرها فحسب. ثم أمرتْني بأنْ أشعل النار في الموقد، وجلستْ أمامه، ترنو إلى ألسنة اللهب بسكون.

"هل تريدين مني شيئًا آخر؟ ... سيدتي"، سألتُها، لكنْ صوتي خانني عند آخر كلمة.

رفعتْ حاجبيها إلى الأعلى.

غادرتُ الغرفة، وذهبتُ إلى الرواق، وجلستُ على إحدى الدرجات المؤدية إلى الحديقة. هبَّتْ نسمةٌ شماليّة عليلة، حاملةً معها بُرودةً نديّة من نهر أرنو. كانت التلالُ الخضراء البعيدة مغطّاةً بضبابٍ ورديّ، وثمة سحابٌ ذهبيّ يحوّم فوق المدينة، وفوق القبّة الضخمة للكاتدرائية.

فتحتُ معطفي، واستلقيتُ على وجهي وصدري فوق الرخام. كلُّ الأمور التي حدثتْ في السابق، تبدو الآن مجرّد لعبةٍ طفولية. فالآن فقط بدأتِ الأمورُ تصبح جدّيةً، جدّية بشكلٍ مرعب.

أتوقّعُ الكارثة، أتصوّرُها، أكادُ أمسكُها بيديّ. لكنني لا أملكُ الجرأة على مواجهتها، وقِواي منهارة بالكامل.

ولكي أكون صادقًا مع نفسي، لستُ خائفًا من الألمِ والعذاب، ولا مرتعبًا من الإهانة والوعيد. إنني خائفٌ من أنْ أخسرها، تلك التي أحببتُها بصدقٍ وإخلاص خياليّين. لكنه خوفٌ مُفْحِم، مُحطِّم، مُدمّر... رحتُ أبكي وأشهق مثل طفل.

# (٦٧)

لم تخرجْ من غرفتها طوال النهار، وكانت الزنجيّة تتولّى خدمتها.
عندما صعدَ نجمُ المساء متوهّجًا في زرقة السماء، رأيتُها تسير في الحديقة، فتبعتُها بحذر، تاركًا مسافةً جيّدة بيننا. رأيتُها تدخلُ مزارَ فينوس، فلحقتُها خِلسةً، واسترقتُ النظرَ من شِقّ الباب.
وقفتْ أمامَ الربّة المقدّسة، ويداها مرفوعتان كما في الصلاة. وكان النورُ المقدّسُ لنجم الحبّ يسكبُ أشعّتهُ الزرقاء عليهما.

# (٦٨)

أحاول النوم في الليل، لكنّ اليأس والخوف من خسارتها يحاصرانني بالهواجس. كان تأثيرُهما كبيرًا عليّ، ما حوّلني فجأةً إلى رجلٍ شجاع. أشعلتُ المصباح الزيتيّ الأحمر، ودخلتُ إلى غرفة نومها، حاملًا المصباح بيدٍ ومغطّيًا ضوءَهُ باليد الأخرى.

كانت اللبوةُ قد اصطِيدَتْ بنجاح، وجُرَّتْ حتى أُنهكَتْ تمامًا. رأيتُها غارقةً في النوم بين الوسائد، مُسجّاةً على ظهرها، تتنفّس بصوتٍ ثقيل، ويبدو أنها تشاهد حلمًا مزعجًا. رفعتُ يدي عن المصباح ببطء، تاركًا الضوء الأحمر يسطع على وجهها الرائع.

لكنها لم تستيقظ.

وضعتُ المصباحَ على الأرض برفق، استلقيتُ جانبها بهدوء، واضعًا رأسي على ذراعها الدافئة الطريّة.

تحرّكتْ قليلًا، لكنها لم تستيقظ. لا أعرف كم مرَّ من الوقت وأنا مُستلقٍ على ذراعها هذه الليلة، وكأنّ الآلام الرهيبة قد حوّلتني إلى كتلة حجر.

وأخيرًا، تجرّأتُ وعانقتُها، فانسكبتْ دموعي على ذراعها. تحرّكتْ قليلًا، ثم استفاقتْ، فركَتْ عينيها بيديها ونظرتْ إلي.

"سيفرين!"، صرختْ خائفةً أكثر مما هي غاضبة.

لم أكنْ قادرًا على الإجابة.

"سيفرين"، أكملتْ بلطف: "ما الأمر؟ هل أنتَ مريض؟"

كان صوتُها رقيقًا وعطُوفًا ومُفعمًا بالحبّ، إلى درجة أنهُ غرزَ مخالبَهُ في صدري مثل كلّابة فولاذيّة ساخنة، فصرتُ أهذي وأشهق.

"سيفرين، يا صديقي البائس التعيس"، راحتْ تمسحُ شَعري بيدها الرقيقة: "أنا آسفة، آسفة جدًّا من أجلك. لكنني لا أستطيع مساعدتك، لأنني أعرفُ أنه لا شيء سوف يشفيك".

"آهٍ يا فاندا، وهل هذا ضروري؟"، تأوّهتُ عشقًا وعذابًا.

"ماذا يا سيفرين؟ ما الذي تقصده؟"

"أما عُدتِ تحبينني؟ أليس لديكَ ذرةٌ واحدة من الشفقة عليّ؟ هل استطاع الغريبُ الوسيمُ امتلاكَكَ بالكامل؟"

"لا يمكنني أنْ أكذب، لقد تركَ فيَّ أثرًا لا أعرفُ لحدّ الآن ما هو، وعلى الرغم من ذلك أُعاني منه وأرتجف. إنه من النوع الذي قرأتُ عنه في القصائد، وشاهدتُه في المسرحيّات، وكنتُ أحسَبُه من صُنع الخيال. آهٍ... إنه رجلٌ مثل الأسد، قويٌّ ووسيم، وفوق ذلك لطيف، فهو ليس فظًّا مثل الرجال في عالمنا الشمالي. أنا آسفة من أجلك يا سيفرين، أنا... يجبُ أنْ يكونَ لي، ماذا قلتُ؟ أعني... يجبُ أنْ أهبَ نفسي له، إذا أرادني".

"فكّري... بسُمعتكِ يا فاندا، فقد بقيتْ لحدّ الآن نظيفةً لا عيبَ فيها. حتى لو أنني ما عدتُ أعني لكِ أيّ شيء".

"إني أفكّر بها، أنوي أنْ أظلَّ قويةً لأطول فترة ممكنة، أريد..."، دفنتْ رأسها بين الوسائد خجلى: "أريد أنْ أصبح زوجته، إذا أرادني".

"فاندا!"، صرختُ مسكونًا بخوفٍ قاتل، ذاك الخوف الذي يخنقُ أنفاسي، ويجعلُني أفقد السيطرة على ذاتي: "تريدين أن تصبحي زوجته؟ تابعةً له دائمًا؟ لا... لا تبعديني عنكِ! إنه لا يحبّك..."

"من قال ذلك؟"، صرختْ بغضب.

"هو لا يحبّك... لكنني أحبُّكِ، أعشقكِ، أنا عبْدُكِ، أدعُكِ تدوسينني تحت قدميك، وأريد أنْ أحملكِ بين ذراعيّ طول العمر..."

"من قال إنه لا يحبّني؟"

"آه، كوني لي، أرجوك، لا يمكنني أنْ أحيا، لا أستطيع العيش من دونك، ارحميني يا فاندا، ارحميني".

عادتْ إلى وجهها ملامحُ القسوة الباردة والابتسامة الشريرة: "قلتَ إنه لا يحبّني"، أضافتْ ساخرةً: "حسنًا إذًا، وَاسِ نفسكَ بالطريقة التي تشاء". ثم أدارتْ وجهها إلى الجانب الآخر، تاركةً ظهرها لي باحتقار.

"يا ربَّ السماء! هل أنتِ امرأة من دون لحمٍ أو دمّ! أليس لديك قلبٌ مثلما لديّ!"

"أنتَ تعرف ما أنا، أنا امرأةٌ من حجر، فينوس ذات الفراء، مثالُكَ الأعلى، فاركعْ أمامي وصَلِّ إلي".

"فاندا... الرحمة!"

صارتْ تضحك. دفنتُ رأسي بين الوسائد، بينما فتحَ الألمُ سُدودَ عينيّ، وفاضت دموعي.

ساد صمتٌ طويل، ثم نهضتْ فاندا: "أنتَ تضجرني".

"فاندا!".

"أنا متعبة، دعني أنَم".

"الرحمة!"، توسّلتُ إليها: "لا تبعديني عنكِ، لا أحد... لا أحد سوف يحبّكِ بقدْر ما أحبّك".

"دعني أنم"، أدارتْ ظهرها لي مرةً أخرى.

قفزتُ، واختطفتُ الخنجرَ المعلّق فوق سريرها، سحبتُه من غمده، وثبَّتُّ رأسه على صدري.

"سوف أقتلُ نفسي هنا، أمام عينيك".

"افعلْ ما تشاء"، أجابتْ غير مباليةٍ إطلاقًا. "لكنْ دعني أنم"، تثاءبتْ بصوتٍ عالٍ: "أنا نعسانة جدًّا".

تسمّرتُ في مكاني كالعمود، مرَّ صمتٌ طويل، وبعدها صرتُ أضحك وأبكي في آنٍ معًا. وفي النهاية وضعتُ الخنجر في حزامي، ونزلتُ على ركبتيّ أمامها.

"فاندا، أصغي إليّ، فقط لبضع دقائق".

"أريد أنْ أنام! ألا تسمع؟!"، صاحتْ وهي تقفز من السرير بغضب، ثم دفعتْني بكعبِ قدمها: "هل نسيتَ أنني سيّدتُكَ؟". لكنني لم أتزحزحْ من مكاني، فسحبتِ السوطَ وضربتني. وقفتُ على قدميّ، فضربتني مجدّدًا، كانت الضربة على وجهي هذه المرة.

"صعلوك! عبد!".

بقبضة يدي المشدودة والمرفوعة إلى الأعلى، غادرتُ غرفتها إثرَ قرارٍ مفاجئ. أما هي فقد رمتِ السوطَ جانبًا، وأطلقتْ ضحكةً مجلجلة. أتصوّرُ أن المشهد الذي مثّلتُهُ، كان كوميديًّا جدًّا.

# (٦٩)

صمَّمتُ على تحرير رقبتي من هذه المرأة المتحجّرة القلب، ممَّنْ تعاملُني بقسوةٍ بالغة، وهي الآن على وشك أنْ تخلِفَ بوعدها وتخونني. وكأنها المكافأةُ على إخلاصي العبوديّ وكلّ ما عانيتُه منها. حزمتُ أمتعتي القليلة في صُرّة، ثم كتبتُ لها ما يلي:

"عزيزتي،

لقد أحببتُكِ إلى حدّ الجنون، ووهبتُ قلبي لكِ كما لم يهبْ رجلٌ قلبَه لامرأةٍ قطّ. وقد أهنتِ أكثرَ مشاعري قدسيّةً، ولعبتِ لعبةً عابثة وماجنة معي. على أيّ حال، حين كنتِ قاسيةً معي وعديمة الرحمة فحسب، كنتُ قادرًا على حبّك. أما الآن، فأنتِ على وشكِ أنْ تصيري امرأةً رخيصة، وأنا لم أعدْ ذلك العبد الذي تركلينه وتجلدينه. أنتِ، أنتِ بنفسك، يجب أنْ تطلقي سراحي. وأنا سأغادر على الفور، وسوف أهجر امرأةً لا أُكِنُّ لها سوى البغضاء والازدراء.

سيفرين كوشيمسكي".

سلّمتُ هذه السطور إلى الزنجيّة، وركضتُ مبتعدًا بأقصى سرعة. وصلتُ إلى محطة القطار على آخر نفَس، فجأةً شعرتُ بألمٍ حادّ في قلبي، فتوقّفتُ وشرعتُ بالبكاء. يا لهُ من عار! أريدُ الهربَ ولا أستطيع! التفتُّ إلى الوراء... إلى أين؟ إليها؟! تلك التي أكرهها، وفي الوقت ذاته أعبدها.

توقفتُ مجدّدًا، لا أستطيع العودة، لا أجرؤ!

لكنْ، كيف لي أنْ أغادر فلورنسا الآن؟ تذكّرتُ أنني لا أملك أيّ نقود، ولا حتى فِلْسًا. حسنًا إذًا، سأغادر سيرًا على الأقدام. أنْ يكونَ المرءُ شحّاذًا شريفًا؛ خيرٌ لهُ منْ أنْ يأكل الخبزَ من يد عاهرة.

لكنني ما زلتُ عاجزًا عن الذهاب.

لقد أعطيتُها عهدًا، كلمة شرف، وينبغي أن أعود، فربّما سترُدُّ حرّيتي إليّ.

بعد بضع خطواتٍ سريعة، توقفّتُ.

لقد أعطيتُها كلمة شرفٍ وعهدًا بأنْ أبقى عبدًا لها ما تشاء، وإلى أنْ تقوم هي بإعطائي حريتي. هذا صحيح، لكنْ يمكنني الانتحار!

ذهبتُ إلى حديقة كاشيني، واقتربتُ من نهر أرنو. كانت الأمواجُ الصفراء تهدُر برتابةٍ حول صفصافتين تائهتين، فجلستُ عليهما، وأجريتُ حساباتي الأخيرة مع الوجود. تركتُ حياتي كلَّها تمرُّ أمام عينيّ مرّةً ثانية، وكانت المحصّلة: ذكريات تعيسة فيها القليل من الفرح، عددٌ لا نهائيّ من الأمور التافهة وعديمة القيمة، وفوق كلّ شيء؛ حصادٌ وفيرٌ من الألم والمآسي والمخاوف والخيبات والمصائب والآمال المحطَّمة والأسى والعذاب.

فكّرتُ بأمّي، لقد أحببتُها من أعماق قلبي، لكنْ كُتِبَ عليَّ أنْ أراها تذوي أمام عينيّ، وتتلاشى بعد مرضٍ رهيب. فكّرتُ بأخي الذي كان شُعلةً من الفرح والأمل، لكنّ الشعلة خبَتْ في ريعانِ شبابها، وقبلَ أنْ يتمكّنَ من وضعِ شفتيه الحالمتين على كأس الحياة. فكّرتُ بمُرضعتي الميّتة، بأصدقاء اللعب في أيام الطفولة، بالرفاق الذين درسُوا وناضلُوا معي، بكُلّ أولئك الذين ابتلعتْهم الأرضُ الميّتةُ الباردة من دون اكتراث. تذكّرتُ الحمامة التي كنتُ أُربّيها، وكانتْ تهدلُ حين تراني، ولا تهدلُ برفقة زوجها. جميعُهم عادوا... من الترابِ إلى التراب...

ضحكتُ جهرًا، ووقعتُ في الماء. لكنني لحِقتُ وأمسكتُ غصنًا من إحدى الصفصافتين بيَدي، فصرتُ معلَّقًا... لستُ فوق الماء، ولستُ تحته. وكما يحدثُ في الرؤيا... رأيتُ المرأة التي سبَّبتْ شقائي كلَّه، كانت تعومُ فوق سطح الماء، تتلألأُ في ضوء الشمس وكأنها كائنٌ شفّاف، وترفرفُ خصلاتُ الشعر الأحمر حول رأسها وعنقها. أدارتْ وجهها نحوي، وابتسمتْ.

# (٧٠)

عدتُ إلى البيت أقطرُ ماءً، مُبلّلًا حتى العظم، ومُكلّلًا بالعار والحُمّى. كانت الزنجيةُ قد أوصلت الرسالة لها، وها أنا ذا أنتظرُ محاكمتي، من قِبَل امرأةٍ ظالمة وقاسية ومُهينة. حسنًا، دعْها تقتُلْني، فأنا لستُ قادرًا على فعلِ ذلك بنفسي، وفي الوقت ذاته فقدتُ كلَّ رغبة في الحياة. كنتُ أتجوّل حول البيت، وكانت واقفةً في الرواق، مستندةً على الدرابزين. كان وجهُها مُمتلئًا بضياء الشمس، وعيناها الخضراوان تبرقان.

"أما زلتَ حيًّا؟"، سألتْني ببرود. وقفتُ صامتًا ورأسي مطأطأ إلى الأسفل. "أعِدْ لي خنجري، لا فائدة من وجوده معك، أنتَ لا تملكُ الشجاعة حتى على قتل نفسك".

"لقد أضعتُه"، أجبتُ مرتجفًا من الخوف والبرد.

نظرتْ إليّ من الأعلى إلى الأسفل باحتقارٍ شديد.

"أظنُّ أنكَ قد وقعتَ في النهر"، ضحكتْ وهي تهزُّ كتفيها. "لا بأس، لكنْ لماذا لم ترحل؟"

تمتمتُ بكلماتٍ لم تستطعْ هي، ولا أنا، فهمَها.

"أممم... أنتَ لا تملكُ أي نقود، هنا..."، وبنظرةٍ متكبّرة لا تُوصَف، رمتْ لي محفظتها.

لم آخذْها، وبقينا صامتين لبرهة من الزمن.

"أنتَ لا تريد الرحيل إذًا؟"

"لا أستطيع".

# (٧١)

تذهب فاندا إلى حديقة "كاشيني" من دوني، وإلى المسرح من دوني. وحين تستقبل ضيوفًا، تقوم الزنجيّة بخدمتها. لاأحد يسأل عني أبدًا، أسرحُ في الحديقة حيرانَ ذاهلًا، مثل حيوانٍ فقدَ مُربّيه.

كنتُ مستلقيًا بين الأجمات، أراقبُ زوجًا من السنونو يتصارعان على حبّة قمح. وفجأةً، سمعتُ خشخشة ثوب امرأة.

كانت فاندا تقترب بثوبها الحريريّ الملتفّ على جسدها بأسلوبٍ أنيق، وكان اليونانيّ يتمشّى معها. لاحظتُ أنهما منشغلان في نقاشٍ حادّ، لكنني لم أستطعْ فهم كلمة واحدة ممّا يقولان. كان اليونانيُّ يضربُ الأرضَ بقدمه، فيتناثرُ الحصى في كلِّ اتجاه. ويضربُ الهواء بالسوط الذي يسوقُ به الفرس، فتجفلُ فاندا وتفزع.

أتُراها خائفة من أنْ يقوم بضربها؟ هل وصلا إلى هذه الدرجة؟!

لقد تركها ومشى، إنها تناديه، لكنه لا يسمعُها، أو لا يريد أنْ يسمعها.

طأطأتْ فاندا رأسَها مكسورةَ الخاطر، ثم جلستْ على أقرب مقعدٍ حجري. بقيتْ جالسةً لوقتٍ طويل، مستغرقةً في التفكير. كنتُ أراقبها بشيءٍ من المتعة الحاقدة، وفي النهاية حملتُ نفسي بكلّ ما أملكُ من قوة الإرادة، واقتربتُ منها هازئًا.

"أتيتُ لأتمنّى لكِ السعادة. أرى أنّ سيّدتي أيضًا، قد وجدتْ لنفسها سيّدًا".

"نعم، الحمد لله أنه ليس عبدًا جديدًا، فلديّ الكثيرُ منهم. إنه سيّد! المرأة تحتاج إلى سيّد، وهي تعشق السيّد".

"أنتِ تحبّينه يا فاندا؟ تحبّينَ هذا الوحش!"

"نعم، أحبّه كما لم أحبّ من قبل".

"فاندا"، شددتُ قبضتي، لكنّ الدموع سبقتْني وملأتْ عيني. كنتُ مسلوبَ الإرادة، مهزوزًا بزلزالٍ عاطفيّ. "حسنًا إذًا، خُذيهِ زوجًا لكِ، دعيه يصبح سيّدكِ. لكنني أريدُ أنْ أبقى عبدكِ، حتى آخر يوم في حياتي".

"تريدُ أنْ تبقى عبدًا؟ حتى بعد ذلك؟ ... سيكون هذا مثيرًا، لكنه ربّما لن يسمحَ بذلك".

"هو؟"

"نعم، فهو يغارُ منكَ منذ الآن... هوَ! يغارُ منكَ...! ولقد طلبَ مني أنْ أطردك فورًا، وعندما أخبرتُه من تكون..."

"أخبرتِهِ...؟!"، أجبتُ كمنْ ضربتْه صاعقة.

"لقد أخبرتُهُ بكلّ شيء، بقصّتنا كاملة، بكلّ تصرّفاتك الغريبة، بكلّ شيء. لكنه بدلًا من أنْ يتسلّى بما سمع، استشاطَ غضبًا، وضربَ الأرض بقدمه".

"وهدَّدَ بأنْ يضربكِ؟"

كسرتْ فاندا نظرها نحو الأرض، وظلَّتْ صامتة.

"نعم، بالفعل"، قلتُ بمرارةٍ لاذعة: "أنتِ خائفة منه يا فاندا". رميتُ نفسي عند قدميها، وعانقتُ ركبتيها مرتجفًا. "لا أريدُ منكِ أيّ شيء، سوى أنْ أكون عبدكِ، أنْ أظلَّ قربكِ دائمًا، سوف أكونُ كلبك".

"هل تعلم كم أنتَ تضجرني؟"

نهضتُ، وكلّ ما فيَّ يشتعل: "أنتِ ما عُدتِ امرأةً قاسية، بل رخيصة". قلتُها بوضوحٍ وصراحة، مشدّدًا الكلماتِ حرفًا حرفًا.

"سبقَ أنْ قلتَ هذا في رسالتك"، أكملتْ فاندا وهي تهزُّ كتفيها بغرور: "الرجُل النبيه لا يكرّر كلامه".

"الطريقة التي تعامليني بها... ماذا تسمّينها؟"

"يمكنني أنْ أعاقبكَ كما تعلم، لكنني أفضّل في هذه المرّة أنْ أردَّ عليكَ بالمنطق بدلًا من السوط. ليس لكَ الحقُّ في أنْ تتّهمني، أَلَمْ أكنْ صادقةً معكَ على الدوام؟ أَلَمْ أحذّركَ أكثر من مرّة؟ أَلَمْ أحبّك حبًّا شغوفًا من أعماق قلبي؟! وهل أخفيتُ عنكَ حقيقة أنهُ من الخطير جدًّا أنْ تضعَ نفسَك تحت سُلطتي؟ وأنْ تذلّ نفسك أمامي؟ وأنني سأكون متسلّطة؟! لكنكَ تمنّيتَ أنْ تكون لُعبتي وعبدي! ووجدتَ قمّةَ اللذة تحت مداسِ القدم، وفي غطرسة السوط، وفي المرأة القاسية. إذًا... ما الذي تريده الآن؟

الطاقاتُ الخطيرةُ التي كانتْ كامنةً في داخلي، أنتَ أوّلُ مَن أيقظها. وإذا كنتُ أجدُ الآن لذّةً في تعذيبك وإذلالك، فهذا ذنبُك. أنتَ من جعلَني أصيرُ كذلك، وأنتَ الآن ضعيف وبائس وعديمُ الرجولة، فكيف تلومني؟"

"نعم، أنا المذنب، لكنني عانيتُ أيضًا بسبب ذلك. دعينا نضع نهايةً لهذه اللعبة القاسية".

"هذا ما أتمنّاه أيضًا"، أجابتْ بنظرةٍ خبيثة ماكرة.

"فاندا، لا تحاولي دفعي إلى الهاوية، فعندها سوف ترينَ أنني رجلٌ فعلًا".

"كومةُ القشّ تشتعلُ بسرعةٍ كبيرةٍ خلال لحظة، لكنها تخبو بالسرعة نفسها التي اشتعلتْ بها. تظنُّ أنكَ تستطيعُ أنْ تُخيفني، لكنك لا تستطيعُ سوى أنْ تجعلَ من نفسكَ أضحوكة. لو كنتَ ذاك الرجلَ الذي خِلْتُهُ أنتَ، حين التقينا لأوّل مرة، ذاك الجادَّ المحافظ الصارم، لكنتُ أحببتُكَ بإخلاص، وأصبحتُ زوجتك. تحتاجُ المرأةُ بشدّة حارقةٍ إلى رجُل، لكنّ واحدًا مثلك، يضعُ رقبته

طواعيةً تحت قدميها، سوف تستخدمه كدُميةٍ مُرحَّب بها فقط، ثم ترميها جانبًا عندما تسأمُ منها".

"جرّبيْ أنْ ترميني جانبًا... بعضُ الدُّمى خطيرة!"

"لا تتحدّني!"، صاحتْ فاندا بعينين يقدحُ منهما الشرر.

"إذا لم تكوني لي الآن"، تابعتُ بصوتٍ يخنقُه الغضب: "لن تكوني لأيّ رجلٍ آخر أيضًا!".

"من أيّ مسرحيّةٍ جئتَ بهذا؟"، سخرتْ مني. ثم أمسكتْني من ياقة قميصي: "لا تتحدّني! أنا لستُ شريرة، لكنني لا أعرفُ إذا ما كنتُ سأصبحُ كذلك، وعندها لنْ تقفَ أمامي أيّ حواجز أو قيود".

"وهل يمكنكِ فعلُ أسوأ من هذا؟ من أنْ تجعلي ذاك الرجل زوجك!"

"ربما، فقد أجعلُكَ عبدَه. ألستَ تحت سلطتي؟ أليستِ الاتفاقية معي؟ لكنك بالطبع، سوف تجدُ متعةً في ذلك، حين أُقيّدكَ وأقولُ له: افعلْ به ما تشاء".

"يا امرأة! هل جُننتِ!"

"أنا بكامل عقلي. أحذّركَ للمرة الأخيرة، إياكَ أنْ تُبدي أي ممانعة، فالشخص الذي ذهبَ بعيدًا مثلما ذهبتُ أنا، يمكنه -بكلّ سهولةٍ- أنْ يذهب إلى الأبعد. أشعرُ بنوعٍ من الكراهية تجاهك، وسوف أجدُ لذّةً عظيمةً حين أراهُ يضربُكَ حتى الموت. لكنني ما زلتُ أتمالكُ نفسي..."

فقدتُ السيطرة على أعصابي، أمسكتُها من خصرها وأنزلتُها إلى الأرض، بحيث صارتْ جاثيةً على ركبتيها أمامي.

"سيفرين!"، صرختْ والغضبُ والرعبُ يلوّنانِ وجهها.

"سوف أقتُلكِ إذا تزوّجته"، خرجتْ الكلماتُ بصوتٍ مبحوحٍ ومنطفئ من صدري. "أنتِ لي، لنْ أدعكِ تذهبين، أحبّكِ جدًّا". أمسكتُها بقوةٍ وجذبتُها إليّ، و -لا شعوريًّا- تلمّستْ يدي الخنجرَ الذي ما زال معلّقًا على خصري.

رمقتْني فاندا بنظرةٍ ساكنة عميقة غامضة.

"تعجبُني هكذا"، قالتْ من دون اكتراث: "الآن... أنتَ رجل، وفي هذه اللحظةِ عرفتُ أنني ما زلتُ أحبّك".

"فاندا"، بكيتُ فرحًا، وانحنيتُ فوقها وأنا أغمرُ وجهها النفيسَ بالقُبُلات. لكنها -فجأةً- أطلقتْ ضحكةً مدوّية مرحة، وقالت: "هل شُفيتَ الآن من مثالكَ الأعلى؟ هل أنتَ راضٍ عني؟"

"تقصدين"، تلعثمتُ بالقول: "أنكِ لم تكوني جادّة؟"

"أنا بكامل الجدّية. أحبّكَ أنتَ فقط، أنتَ أيها الأحمق، أيها الرجلُ الطفل، ألا تعرفُ أنّ كلَّ ما حدثَ كان تمثيلًا وتظاهُرًا؟ كم كان صعبًا عليَّ أنْ أضربكَ بالسوط، في حين كنتُ أتمنّى أنْ أضمّك وأقبّلك. لكننا الآن تجاوزنا الماضي، أليس كذلك؟ لقد لعبتُ دورَ القاسية بصورةٍ أفضلَ مما كنتَ تتوقّع، والآن سوف ترضى عني كامرأةٍ طيبة، كزوجةٍ محبوبة. هل هذا صحيح؟ وسوف نعيش مثل البشر العقلاء".

"سوف تتزوّجينني؟"، صرختُ طافحًا بالسعادة.

"نعم، سوف أتزوّجكَ يا عزيزي، يا حبيبي". همسَتْ وقبّلتْ يدي.

جذبتُها إلى صدري.

"لم تعُدْ بعد الآن غريغور العبد، بل سيفرين، الرجل الغالي الذي أعشقه".

"وماذا عنه؟ ألا تحبّينه؟"

"كيف لكَ أنْ تتخيّل أنْ أحبَّ رجلًا قاسيًا مثله؟ أنتَ أعمى، لا ترى شيئًا. وكنتُ حقًّا خائفةً عليك".

"كِدْتُ أقتلُ نفسي من أجلك".

"حقًّا؟ ... آه، ما زلتُ أرتجفُ من مجرّد التفكير بأنكَ قد رميتَ نفسكَ في نهر أرنو".

"لكنكِ أنقذتني، كنتِ ترفرفينَ فوق الماء وتبتسمين. وحدَها ابتسامتُكِ تُعيدني إلى الحياة".

# (٧٢)

ينتابُني شعورٌ غريبٌ حين أضمُّها بين ذراعي، وحين تستلقي صامتةً فوق صدري، وتدعُني أقبّلُها، وتبتسم. أشعرُ وكأنني شخصٌ استيقظَ فجأةً من هذيان الحُمّى، أو مثل بحارٍ غرقتْ سفينتُه، وظلَّ يصارعُ الأمواجَ لعدة أيام، وفي اللحظة التي كاد البحرُ أنْ يبتلعَه فيها، وجَدَ شاطئًا آمنًا.

# (٧٣)

"أكرهُ فلورنسا، لأنكَ ذُقتَ فيها التعاسة".

وأضافتْ بعدما قلتُ لها ليلة سعيدة: "أريدُ أنْ أرحلَ حالًا، غدًا، سوف تكونُ طيّبًا وتكتبُ بضعَ رسائلَ بالنيابة عني. وبينما تفعلُ ذلك، أذهبُ إلى المدينة لأقوم بزيارات الوداع. هل أنتَ راضٍ؟"

"بالتأكيد، يا عزيزتي الجميلة الرائعة".

# (٧٤)

في الصباح الباكر، طرقتْ بابَ غرفتي لكي تطمئنّ عليّ إذا ما نمتُ جيّدًا. حنانُها بالغُ الروعة! لم أكنْ أتخيّلُ أنها تستطيعُ أنْ تكون حنونةً جدًّا.

# (٧٥)

مضى على ذهابها أربعُ ساعات، وقد أنهيتُ كتابة الرسائل. أجلسُ الآن في الرواق، أنظرُ إلى الطريق البعيد، وأترقّب قدومَ عربتها. صرتُ قلقًا عليها بعض الشيء، وأعرفُ أنه ما من مبرّرٌ للخوف أو الريبة. على كل حال، ثمة شعورٌ عميق بالاضطهاد يُثقِلُ كاهلي، ويبدو أنّ أوجاعَ الأيام السالفة ما زالتْ تُلقي بظلالها على روحي.

# (٧٦)

ها قد عادتْ مُؤتلِقةً بالسعادة والرضا.

"يا أهلًا، هل سارتِ الأمورُ كما أردتِ؟"، سألتُها وأنا أقبّلُ يدَها بلطف.

"نعم، يا حبيب قلبي. سوف نغادر هذه الليلة، ساعدني في حزم الحقائب".

# (٧٧)

قبل حلول المساء، طلبتْ مني الذهابَ إلى مكتب البريد لإرسال الرسائل. فأخذتُ العربة، ورجعتُ بعد ساعة.

"السيدة سألتْ عنك"، قالتْ لي الزنجيّةُ مع تكشيرة بينما كنتُ أصعدُ الدرجَ الرخامي.

"هل جاء أحدٌ إلى هنا؟"

"لا أحد"، أجابتْ وهي تقفز على الدرجاتِ مثل قطّة سوداء.

عبرتُ خلال المرسم، ثم وقفتُ أمام باب غرفة نومها. لماذا تتسارعُ نبضاتي؟ ألا ينبغي أنْ أكون سعيدًا إلى أقصى درجات السعادة؟!

فتحتُ الباب بهدوء، رأيتُها جالسةً على الأريكة العثمانية، ويبدو أنها لم تلحظْ وجودي. آهٍ ما أجملَها في هذا الثوبِ الفضيّ الذي يلتفُّ على جسدها بإحكام، وما أحلى تسريحة شعرها الأنيقة، وذراعيها العاريتين، وصدرَها المكشوف تحت القماش الشفّاف.

كانت النيرانُ تلتهبُ في الموقد، والمصابيحُ المعلَّقة تُلقي وهجًا أحمر، فتبدو الغرفةُ وكأنها غارقةٌ بالدماء.

"فاندا"، نطقتُ أخيرًا.

"آه سيفرين، كنتُ أنتظركَ على أحرَّ من الجمر"، نهضتْ وأخذتْني بين ذراعيها. ثم أمسكتْ يدي وسحبتْني معها لنجلس بين وسائد الأريكة، لكنني انزلقتُ بمرونةٍ لعند قدميها، ووضعتُ رأسي في حضنها.

"هل تعلمُ أنني أحبّكَ الآن حبًّا عظيمًا؟"، همسَتْ وهي ترفعُ خصلات شعري عن جبيني، وتقبّلُ عينيّ. "آهٍ ما أحلى عينيكَ! لطالما أحببتُهما واعتبرتُهما أجملَ ما فيك. لكنهما اليوم... تسكرانني... آهٍ كم أنا سكرى...". مدّتْ ذراعيها المترفتين بكسلٍ، ورَنتْ إليّ من بين أهدابها. "لكنكَ باردٌ، تتمسكُ بي وكأنني عمود من خشب. انتظرْ، سوف أشعلُكَ بنار الحبّ". عانقتْني بحرارة، وداعبتْ شعري وقبّلتني. "يبدو أنني ما عدتُ أمتعُكَ، أعتقدُ أنه يجبُ عليّ أن أعود قاسيةً معك، فمِن الواضح أنني أفرطتُ باللطف هذا اليوم. هل تعرف ماذا سأفعلُ بك أيها الأبله الصغير؟ سوف أجلدكَ قليلًا...".

"يا بنت..."

"أريد ذلك".

"فاندا..."

"تعالَ، دعني أربطكَ"، ركضتْ في الغرفة مرِحةً: "أريدُ رؤيتكَ غارقًا في العشق، هل تفهم؟ هذه هي الحبال، أتساءلُ إذا ما زلتُ قادرةً على فعلها".

شرعتْ بربطِ قدميّ، ثم أوثقتْ معصميَّ خلف ظهري مثلما يُوثَق السجناء.

"حسنًا، هل تستطيع الحركة؟"

"لا".

"ممتاز".

بعد ذلك أخذتْ حبلًا عريضًا وصنعتْ منه أُنشوطة، ألقتْها حولَ عنقي، وتركتِ الحبلَ يتدلّى على ظهري. كانت الأنشوطة تحزّ على عنقي، ثم ربطت الحبلَ بعمود السرير.

سرَتْ قشعريرةٌ غريبة في جسدي.

"أحسُّ وكأنني ذاهبٌ إلى الإعدام"، قلتُ بصوتٍ منخفض.

"صحيح، سوف تنالُ عقابًا شاملًا اليوم".

"لكنْ، ألبسيْ معطفَ الفرو أرجوكِ".

"سوف أمنحكَ اللّذة بكلّ سرور"، تناولتْ معطفها وارتدته. ثم وقفتْ أمامي وذراعاها متقاطعتان فوق صدرها، ونظرتْ إليّ بعينين نصف مغلقتين.

"هل تذكرُ حكاية ديونيسوس والثور؟"

"أذكرها بصورةٍ مبهمة، ماذا كانت الحكاية؟"

"اخترعَ أحدُ رجال البلاط آلةَ تعذيب جديدة، وقدّمها هديةً لسيّدِهِ ديونيسوس ملك سَرَقُوسَة[٦١]. وقد كانت الآلةُ ثورًا فولاذيًّا، يُوضَع الشخصُ المحكوم بالإعدام في داخله، ثم يُدفعُ الثورُ إلى داخل فرنٍ هائل.

وعندما تبدأ حرارةُ الثور الفولاذيّ بالارتفاع، ويبدأ الشخصُ المحكوم بالصُراخ من شدّة الألم، فإنّ نواحَهُ يبدو مثل خُوار الثور.

هزَّ الملك ديونيسوس رأسَه مسرورًا أمام المخترع، ولكي يُجري اختبارًا فوريًّا لهذا الاختراع الجديد، وضعَ المخترعَ داخلَ الثور الفولاذيّ، وجرّبَهُ به.

إنها قصةٌ ذات مغزى عميق.

لقد كنتَ أنتَ مَنْ غذَّى أنانيّتي وغروري وقسوتي، ولهذا ستكون أنتَ أوّل ضحيّة. أشعرُ بمتعةٍ كبيرة عندما أضعُ إنسانًا بكلّ ما فيه من أفكارٍ ومشاعر ورغبات تحت سلطتي، أحبُّ أنْ أعذّبَ وأتلاعبَ برجُلٍ يتفوّقُ عليّ بالقوة العقلية والجسدية، وخصوصًا إذا ما كان رجلًا يحبُّني. أما زلتَ تحبّني؟"

"إلى حدّ الجنون".

---

[٦١] - سَرَقُوسَة: مدينة أثرية في جزيرة صقلية، أسَّسها الإغريق في القرن السابع قبل الميلاد. ثم صارت عاصمةً لدولة ذات شأنٍ بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد. والمقصود بـ" ديونيسوس" هو ديونيسوس الأول أو ديونيسوس الثاني، وكلاهُما ملِكان إغريقيّان حكمَا هذه الدولة في القرن الرابع قبل الميلاد، واتّصفَ حكمهمُا بالطغيان والبطش.

"رائع جدًّا، والأكثرُ روعةً هو أنكَ ستستمتعُ كثيرًا بما سوف أفعلُه بكَ بعد قليل".

"ما مشكلتكِ؟ أكاد لا أفهمُكِ، ثمّة قسوةٌ حقيقية تقدحُ شررًا من عينيك، ورغمَ ذلك تبدين جميلةً بشكلٍ خارق، إنك فينوس ذات الفراء بكامل فتنتها".

من دون أي إجابة، لفَّتْ ذراعيها حول عنقي وقبّلتْني، فغرقتُ في غرامها بجنونٍ أكبر.

"أين السوط؟"، سألتُها.

ضحكتْ فاندا، وتراجعتْ بضعَ خطوات.

"أنتَ مُصرٌّ على أنْ تُعاقَب؟"، سألتْ وهي ترفع أنفها بغرور.

"نعم".

فجأةً تغيّرتْ ملامحُ وجهها كليًّا، وكأنَّ سَوْرة غضبٍ مسخَتْ جمالها، حتى أنني صرتُ أراها قبيحة.

"حسنًا إذًا، أجلدْهُ أنتَ"، نادتْ بصوتٍ جهور.

في اللحظة ذاتها، أخرجَ اليونانيُّ الوسيم رأسَه من بين ستائر السرير ذي الأعمدة، فانصعقتُ وابتلعتُ لساني. كان مشهدًا هزليًّا مرعبًا، وكِدْتُ أنفجرُ ضحكًا، لولا أنني في موقفٍ مُزرٍ ومُذِلّ.

كان هذا أبعدَ مما تخيّلتُ يومًا.

سرَتْ رعدةٌ باردة في ظهري، عندما نزلَ خصمي من السرير... بجزمة ركوب الخيل الجلدية الطويلة، وبنطاله الملتصق على فخذيه، ومعطفه المخمل القصير، وساعديه المفتولين.

"أنتِ قاسيةٌ فعلًا"، قال وهو ينظرُ إلى فاندا.

"فقط من أجل جُرعةٍ مفرطةٍ من اللذة"، أكملتْ بسُخريةٍ مريرة: "وحدَها اللذةُ تعطي للوجود قيمته. مَنْ يستمتعُ بالعيش، لا تقدرُ الحياةُ على فراقه. بعكسِ من يُعاني ويتعذّب، فهو يعانقُ الموتِ مثل صديق قديم. ومَن يسعى إلى حياةٍ ممتعةٍ حقًّا، يجب عليه أنْ يعيش بمرحٍ مثلما كانت الحياة في العالم القديم، وألّا يتردّد بالاستمتاع بهلاكِ الآخرين. يجبُ عليه ألّا يملكَ ذرةً من الشفقة، وأنْ يكون مُستعدًّا لتسخير الآخرين كالدَّوَاب من أجل جرِّ عربته أو محراثه. يجب أنْ يعرف كيف يجعلُ البشرَ عبيدًا له، خصوصًا أولئك الذين يُسَرُّون بالعبودية، ويُسخّرهم لخدمة ملذّاته من دون ذرّة ندم. يجب ألّا يهتمَّ أبدًا إذا ما كان ذلك يعجبهم، أو كانوا يتمزّقون ويهلَكون. وعليه أنْ يتذكّر دومًا أنهُ لو وقعَ تحت سلطتهم، مثلما كانوا هُمْ تحت سلطته، فإنهم سوف يتصرّفون بالطريقة ذاتها، وسوف يدفعُ الكثيرَ من عرقِهِ ودمِهِ من أجل إمتاعهم. هكذا كانت الدنيا في العصور القديمة؛ لذّة وقسوة، حرّية وعبوديّة، يسيران معًا يدًا بيَد. الناسُ الذين يرغبون بالعيش مثل آلهة الألمب، يجبُ عليهم بالضرورة أنْ يملكوا عبيدًا، ثم يلقونهم طعامًا للأسماك. وأنْ يملكوا مصارعين يتقاتلون حتى الموت، بينما هُمْ يحتفلون، وربما لنْ تُزعجهُم قطرةُ دمٍ طائشة قد تصيبُ وجوههم بالصدفة".

أعادتْ كلماتُها الثقة إلى نفسي.

"فُكّي وثاقي!"، صرختُ غاضبًا.

"ألستَ عبدي؟ ملكيّتي الخاصّة؟ هل تريدُ أنْ ترى الاتفاقيّة؟"

"فُكّي وثاقي، وإلّا..."، شددْتُ الحبالَ بكلّ قوتي.

"هل يمكنه أنْ يحرّر نفسه؟"، سألتْ فاندا. "لقد هدَّدَني بالقتل!".

"كوني هادئةً تمامًا"، قال اليونانيّ وهو يتأكّد من قوة الحبال.

"سوف أصرخُ وأطلب النجدة!"، بدأتُ من جديد.

"لا أحد سوف يسمعك هنا"، أجابتْ فاندا: "ولا أحد سوف يمنعني من التلاعب بأكثر مشاعركَ قدسيّة، ومن العبث بكَ كما أشاء". ثم راحتْ تكرّرُ على مسمعي -باستهزاءٍ شيطانيّ- عباراتٍ من رسالتي لها. "هل تعتقد في هذه اللحظة، أنني مجرّدُ قاسيةٍ وعديمة الرحمة؟ أم أنني أصبحتُ رخيصةً فوق ذلك؟! أجِبْ، ماذا؟ هل ما زلتَ تحبّني؟ أم صرتَ تكرهُني وتبغضني؟! هذا هو السوط..."، أعطت السوط لليونانيّ الذي اقترب مني على عجل.

"لن تجرؤ"، صرختُ وأنا أرتجفُ غضبًا: "أنا لا أسمحُ لكَ!".

"آه، لأنني لا ألبسُ الفراء؟"، ردَّ اليونانيُّ بابتسامةٍ هازئة، ثم أخذَ فروةً صغيرة كانت على السرير.

"أنتَ رائع!"، قالتْ فاندا وهي تقبّلُه وتساعده على ارتدائها.

"هل يمكنني جلْدُهُ حقًّا؟"، سألَها.

"افعلْ به ما يحلُو لك"، أجابتْ فاندا.

"وحش!"، صرختُ مشمئزًّا جدًّا.

ثبّتَ اليونانيُّ نظرته القاسية الشرسة عليّ، وراح يجرّبُ السوط. كانت عضلاتُهُ تنقبضُ وتنبسِطُ حين يمدُّ ذراعه ويثنيها، وكان السُوط يصفُرُ في الهواء. بينما كنتُ مقيّدًا وأسيرًا، مثل مارسياس حين كان أبوللو يستعدُّ لسلْخِ جلدِهِ حيًّا.

جالتْ عيناي في أرجاء الغرفة، ثم توقّفتْا عند السقف، حيثُ كان شمشونُ جاثيًا عند قدميّ دليلة، قبلَ أنْ يفقأ الفلسطينيُّون عينيه بقليل. بدتِ اللوحةُ في هذه اللحظة كرمزٍ خالد، كمثالٍ أبديّ للعشق والشهوة، ولحبّ الرجل

للمرأة. {كلُّ واحدٍ منّا، هو في النهايةِ شمشون} خطرَ ليْ، {وفي السرّاء والضرّاء، سوف تخونه المرأةُ التي يعشقُها، سواءً كان يلبسُ معطفًا رثًّا أو فاخرًا}".

"الآن، شاهديْ كيف أروّضه"، قال اليوناني. ثم كشفَ عن أنيابه، واكتسبَ وجهُهُ ملامحَ التعطّش للدماء، ذاك الوجه الذي أفزعني حين رأيتُه لأوّل مرة.

بدأ بالجلْدِ من دون رحمة، بقوةٍ رهيبةٍ جعلتْني أقفزُ مع كل ضربة، وأترنّحُ ألمًا. سالتِ الدموعُ على وجنتيّ، بينما كانت فاندا مضطجعةً على الأريكة بمعطف الفرو، مستندةً على كوعها، تراقبُ المشهد باستمتاعٍ فظيع، وتزمجرُ ضاحكة. الشعورُ الذي يراودُكَ حين تتعرّضُ للجلْد من قِبَل خصمكَ المتفوّق، أمام عينيّ المرأة التي تعبدها، لا يمكن وصفه بالكلمات. فقدتُ عقلي من شدّة اليأس والعار.

أمّا ما هو مُذِلٌّ ومُهينٌ أشدَّ الهوان، هو أنني في البداية أحسَسْتُ بنشوةٍ روحيّة وجسديّة تحت سِيَاط أبوللو، وضحكة فينوس الشريرة، رغمًا عن المأزق الرهيب الذي وقعتُ فيه. لكنّ أبوللو تابعَ الجلْدَ ضربةً إثر ضربة، حتى فقدتُ الإحساس، ورحتُ أصرُّ على أسناني في حالةِ غضبٍ عنّين، وألعنُ أحلامي الجامحة والنساء والحبّ.

وهكذا، وبشكلٍ غير متوقّع، أرى بوضوحٍ مرعب إلى أيّ حدٍّ يمكن للهوى الأعمى والشهوة أنْ يُوصَلا الرجل، منذ أيام هولو فرنيس وأغاممنون[٦٢]. إلى أيّ هاويةٍ بلا قرار، إلى أيّ شَرَكٍ من غدرِ النساء، إلى المأساة والعبودية والموت.

وكأنني استعدتُ الوعي بعد غيبوبة.

---

٦٢ - أغاممنون: حسب الإلياذة، هو ملك ميسيني وشقيق مينلاوس ملك اسبارطة، وهو قائد الجيوش الإغريقية في حربها على طروادة. وعند نهاية الحرب وعودته إلى بلده، اصطحبَ معه سبيّةً طرواديّة هي الأميرة كاساندرا، فقامتْ زوجته كليتمنسترا -بمساعدة عشيقها إيجيستوس- بقتلهما معًا.

كانت الدماءُ قد سالتْ تحت ضربات السوط، وكنتُ أنزفُ مثل دودةٍ دُعِسَتْ بالحذاء. لكنه تابعَ الجلْدَ من دون رحمة، وهي أيضًا تابعت الضحك من دون رحمة. ثم رأيتُها تقفلُ حقيبة السفر الموضَّبة، وترتدي معطفَ السفر، وتواصلُ الضحكَ حتى وهما ينزلان الدرج معًا.

بعد ذلك عمَّ صمتٌ عميق.

كنتُ أصيخُ السمعَ كاتمًا أنفاسي.

سمعتُ بابَ العربة يُغلَق، وراح الحصانُ يجرُّها. بقي صوتُ العربة لفترة قصيرة، ثم عاد الصمتُ الرهيب.

# (٧٨)

لفترةٍ من الزمن، فكّرتُ في الانتقام، وفي قتله. لكنني وجدتُ نفسي مقيّدًا بالاتفاقيّة الملعونة، فلم يبقَ أمامي من خيارٍ سوى أنْ أحفظَ العهدَ الذي قطعتُه، وأنْ أصرّ على أسناني.

# (٧٩)

أولى ردود فعلي بعد ذلك، بعد أفظع كارثةٍ في حياتي كلّها، كانت البحثَ عن أعمالٍ شاقة ومنهكة وخطيرة. أردتُ أنْ أصبح جنديًّا وأذهبَ إلى الحرب في آسيا أو الجزائر، لكنّ والدي كان شيخًا ومريضًا وفي حاجة إليّ.

ولهذا عدتُ إلى بلدي بهدوء، وساعدتُه لمدة عامين في أشغاله، وتعلّمتُ منه الاعتناء بالأملاك والأرزاق، وهذا ما لم أفعلْه يومًا من قبل. كان العملُ وإنجازُ المهامّ يُريحني مثل كأسٍ من الماء العذب.

ثم تُوفّي والدي وورثتُ عنه الأملاك، لكنّ شيئًا لم يتغيّر. بقيتُ أرتدي جزمة العمل الإسبانية، وأخوضُ غمارَ الحياة بعقلانية ورصانة، كما لو أنّ الشيخ ما زال يقف ورائي، ويرمقُني بعينيه الحكيمتين الرائقتين.

ذات يوم، وصلَني طردٌ بريديّ مرفقٌ برسالة، عرفتُ أنه خطُّ يد فاندا.

فتحتُ الرسالة بسرعة، ورحتُ أقرأ:

" السيد.....

الآن وقد مرّتْ ثلاثة أعوامٍ على تلك الليلة في فلورنسا، أعتقد أنهُ من الواجب عليّ الاعترافُ لكَ بأنني أحببتُكَ جدًّا. لكنكَ أنتَ بذاتكَ قد أخمدتَ حبّي لكَ بهيامك المجنون وإخلاصك الخيالي. منذ اللحظة التي صرتَ فيها عبدي، عرفتُ أنه من المستحيل أنْ تصير زوجي. على كل حال، رأيتُ الأمرَ مثيرًا... أنْ تجدَ مثالكَ الأعلى في شخصي، وفي ذاك الوقتِ كنتُ أستمتعُ بذلك، ربما لكي أشفيك.

وجدتُ الرجلَ القويّ الذي أحتاجُه، وكنتُ سعيدةً معه، كما يسعدُ كلَّ شخصٍ حين يجد نصفه الآخر.

لكنّ سعادتي مثل كل الأشياء الفانية، لم تدُمْ سوى لوقتٍ قصير. فمنذ سنةٍ، سقطَ زوجي أثناء مبارزة، ومن وقتها وأنا أعيشُ في باريس وكأنني أسبازيا.

ماذا عنكَ؟ أعتقد أنّ حياتكَ ستكون مشرقةً، إذا ما استطعتَ السيطرة على خيالك، والاستفادة من الخِصَال التي فيك، تلك التي جذبتْني إليك أوّل مرة: ذكاؤكَ الجليّ، طيبةُ قلبك، وفوق ذلك؛ التزامُكَ الأخلاقي.

آملُ أنكَ قد شُفيتَ تحت سياطي، لقد كان العلاجُ قاسيًا، لكنه جذريّ.

كذكرى من ذاك الزمن، ومن المرأة التي هامَتْ بغرامك، أرسلُ إليك اللوحة التي رسمها الألمانيّ المسكين.

**فينوس ذات الفراء".**

ابتسمتُ، واسترجعتُ صورة المرأة الجميلة وكأنها واقفةٌ أمامي الآن، بمعطفها المخمليّ المزيّن بالفرو، وبالسوط الذي تمسكه بيدها. وتابعتُ الابتسام لخيَال المرأة التي عشقتُها ذات يومٍ إلى حدّ الجنون، ولمعطف الفرو الذي سلبَ عقلي، وللسُوط. ثم ابتسمتُ لنفسي وقلت: كان العلاج قاسيًا، لكنه جذريّ.

# (٨٠)

"وما هو مغزى القصة؟"، سألتُ سيفرين بعدما وضعتُ المخطوطَ فوق الطاولة.

"أنني كنتُ حمارًا"، قالها من دون حرَج. "يا ليتني ضربتُها".

"علاجٌ غريب! لكنه قد يُعطي تفسيرًا لطريقة تعاملُكَ مع الفلّاحات اللواتي يعملن عندك".

"إنهنّ معتاداتٌ على ذلك. لكنْ تصوّرْ تأثير هذه الطريقة على واحدةٍ من سيّداتنا الناعمات المرهفات المزاجيّات العصبيّات".

"لكنْ، ما المغزى؟"

"المغزى هو أنّ المرأة، كما خلقتْها الطبيعة، وكما يُربّيها الإنسانُ في هذا الزمن، عدوّةُ الرجل. يمكنُها فقط أنْ تكون عبدَتهُ أو سيّدته الطاغية، لكنها لنْ تكون شريكته أبدًا. يمكن للمرأة أنْ تصير شريكةً، فقط عندما تملكُ الحقوق نفسها التي يملكُها الرجل، وعندما تكون متساويةً معه في التعليم والعمل.

في الوقت الحالي، لدينا الخيارُ بأنْ نكونَ مطرقةً أو سِنْدانًا فحسب، وقد كنتُ أنا من صنف الحمير، ممّنْ يسمحون لامرأةٍ بأنْ تجَعل منهم عبدًا. هل تفهمني؟

مغزى الحكاية هو: مَنْ يرضى لنفسِهِ بأنْ يُجلَد، فهو يستحقُّ الجلْد.

وكما ترى، فقد جرتِ الرياحُ كما أشتهي، وتلك الغشاوةُ الورديّةُ المرهفة الأحاسيس؛ تلاشتْ كليًّا. لن يستطيعَ أيٌّ كان أنْ يقنعني بعد اليوم، أنّ هذي القرود المقدّسة من بينارس[٦٣]، أو دجاجة أفلاطون[٦٤]، هي صورةٌ عن الله.

**(انتهت)**

٦٣ - العبارة لـ شوبنهاور (١٧٨٨-١٨٦٠)، وردتْ في كتابه "الزوائد والفضلات"، فصل "عن النساء"، ضمن السياق التالي:
"احترامُ النساءِ قد جعلَ منهنّ متكبّراتٍ جدًّا، حيث إنّ الواحدة منهنّ تذكّرُ بالقِرَدة المقدّسة في بينارس [مدينة في الهند]، والتي بإدراكها لقداستها وحُرمتها، تحسَبُ أنها تملكُ الحرية لفعل ما يحلو لها".

٦٤ - كان أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) يُعرّف الإنسان في أحد دروسه بأنه "حيوانٌ منزوع الريش يسيرُ على قدمين". فقام ديوجين الكلبي (٤١٢-٣٢٣ ق.م) برمي دجاجة منتوفة الريش في مدرسة أفلاطون، وقال: "هذا هو إنسان أفلاطون".

# ملحق

**عقد بين السيدة فاني فون بيستورو ليوبولد فون زاخر مازوخ**[٦٥]

• بناءً على كلمة الشرف التي قطعها، يتعهّد السيد ليوبولد فون زاخر مازوخ بأنْ يكون عبدًا للسيدة فون بيستور، وأنْ ينفّذ جميع رغباتها لمدة ستة أشهر.

• من جهتها، ينبغي على السيدة فون بيستور ألّا تطلبُ منه أيّ شيءٍ قد يُهينه بأيّ شكلٍ من الأشكال (بوصفه إنسانًا وبوصفه مواطنًا). فوق ذلك، سوف تعطيه مدة ستّ ساعات في اليوم للقيام بأعماله الشخصية، ولن تطّلعَ على مراسلاته أو كتاباته.

• عند ارتكابه لأيّ خطأ أو إهمال أو مساسٍ بالذات المالكة، يحقّ للسيدة (فاني فون بيستور) معاقبة عبدها (ليوبولد فون زاخر مازوخ) بالطريقة التي تشاء. باختصار؛ يجب على المملوك أن يطيع مالكه باستسلامٍ كامل، وأنْ يعتبر أيّ إحسانٍ منها كصدقةٍ ومنحةٍ كريمة. ويجب عليه ألّا يطلبُ منها أيّ شيء يتعلّق بالحبّ أو بحقوق الحبيب.

• من جهتها، تتعهد فاني فون بيستور بارتداء الفراء كلما كان ذلك ممكنًا، خاصةً عندما تتصرف بقسوة.

• في نهاية هذه الأشهر الستة، يجب على كِلا الطرفين اعتبار فترة العبودية هذه وكأنها لم تكنْ قطّ، ويجبُ عليهما ألّا يذكُراها أبدًا. كلّ ما حدثَ يجبُ أنْ يُنسى، ويعودان إلى علاقة الحبّ السابقة بينهما.

---

[٦٥] - أورد العالم النمساوي ريتشارد فون كرافت-إيبنغ هذا العقد في كتابه "الاعتلال النفسي الجنسي".

• ليس بالضرورة أن تكون هذه الأشهر الستة متتابعة، فقد تقسَّم إلى بدايات ونهايات متعددة، وذلك وفقًا لنزوات السيدة المالكة.

نحن الموقعين أدناه، نصادقُ على هذا العقد بتاريخ ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٨٦٩:

فاني فون بيستور باغانوف د. ليوبولد، الفارس زاخر مازوخ

# العُذُوبة والعذاب دراسة في المازوخية وأدب مازوخ

بقلم: عبد الكريم بدرخان

هيكلية الدراسة:

I. الفارس زاخر مازوخ.

II. المازوخية:

أ) المصطلح وتطوّره.

ب) تخليص مازوخ من رقبة ساد.

III. فينوس ذات الفراء:

أ) التحليل الفرويدي.

ب) التحليل الدولوزي.

ج) التحليل النيتشوي.

د) الأدوار الجندرية.

هـ) البُعد الاستشراقي.

IV. تأثيرات "فينوس" في الفنون الأخرى:

أ) الفن التشكيلي.

ب) الدراما.

ج) الغناء.

IV. كلمة أخيرة.

# I. الفارس زاخر مازوخ

ليوبولد فون زاخر مازوخ: (١٨٣٦-١٨٩٥): أديب نمساويّ ومفكّر ومؤرّخ وصحافي، ولد في مدينة ليمبرغ (تقع اليوم في أوكرانيا وتسمى: لفيف) التي كانت عاصمة مقاطعة غاليسيا (وهي منطقة مقسّمة اليوم بين أوكرانيا وبولندا، وكانت أكبر مقاطعات الإمبراطورية النمساوية المجرية ١٧٧٢-١٩١٨)، لعائلةٍ كاثوليكيّة ثريّة من طبقة النبلاء، ورثَ عنها لقب "فارس" الذي ظلَّ مرافقاً لاسمه في جميع كتاباته ورسائله وتواقيعه ("Ritter" بالألمانية، "Knight" بالترجمات الإنكليزية، و"Chevalier" بالترجمات الفرنسية) حتى عام ١٩١٩ حين أُزيلَت الألقاب عن طبقة النبلاء.

كان والدهُ يوهان نيبوموك فون زاخر موظفًا حكوميًّا في الإمبراطورية النمساوية، شغلَ منصب قائد الشرطة في ليمبرغ. أما والدته فهي شارلوت فون مازوخ، البنت الأخيرة من سلالة نبلاء أوكرانيّة، ولاحقًا تمَّ دمجُ لقبيّ العائلتين ليصبح زاخر-مازوخ، فنالَ الوالد على إثر ذلك لقبَ فارس من الإمبراطور النمساوي.

بالرغم من نشأته المترفة، فقد ترعرعَ الطفلُ ليوبولد في فترة صراعاتٍ إثنيّة واقتصادية، إذ كانت تصلُه يوميًّا أخبارُ الاقتتال بين الفلّاحين البولنديين والإقطاعيين، وما يتبعه من أعمال وحشية وفظائع. وكان لذلك دورٌ في تشكيل وعيه المستقبلي، إذ عُرف كمفكّرٍ اشتراكيّ طوباويّ يتبنّى القيم الإنسانية في كتبه ومقالاته. وكذلك كان لقصص التعذيب التي سمعها دورٌ في تشكيل مخياله الجنسي.

درس ليوبولد فون زاخر مازوخ القانون والتاريخ والرياضيات في جامعة غراتس، وبعد التخرج عاد إلى ليمبرغ ليعمل أستاذًا جامعيًّا. أولى إصداراته كان كتابًا عن التاريخ النمساوي، ثم عاد إلى الفولكلور ونشر حكاياتٍ من الثقافة الشعبية الغاليسيّة. بعد ذلك تركَ مهنة التدريس وتفرّغ للكتابة، وخلال عقدٍ من الزمن طغتْ رواياته وقصصه على كتبه التاريخية، مع أنّ أعماله الأدبية لم تخلُ من الموضوعات التاريخيّة كذلك. اهتمَّ ليوبولد بالتنوّع الإثنيّ في منطقة غاليسيا، فحوّل الكثير من الحكايات الشعبية إلى أعمال أدبية: "قصص يهودية"، "قصص بولندية"، "قصص غاليسيّة"، و"قصص البلاط الروسي".

في عام ١٨٦٩ بدأ بنشر سلسلة روايات تحت عنوان "تركة قابيل" (The Legacy of Cain)، استهلّها برواية "المتشرّد" (Wanderer) التي أظهر فيها كراهيّته للنساء، وهذه سِمة مميزة لكتاباته. وكان من المفروض أن تتضمّن السلسلة ستَّ روايات، لكنه تخلَّى عن مشروعه بعد الرواية الثانية. على الرغم من ذلك، كانت هذه الرواية الثانية أشهرَ أعماله قاطبةً؛ "فينوس ذات الفراء" (Venus in Furs).

في عام ١٨٨١ أصدر مجلة "في القمة" (Auf Der Höhe)، وكانت مجلة تقدميّة في زمنها، تدعو إلى التسامح مع اليهود ودمجهم في المجتمع الأوروبي، وعُرِفَتْ بمواقفها المناهضة للأفكار المعادية للساميّة. وكذلك دافعت المجلة عن حقوق المرأة، وطالبت بمساواتها مع الرجل في التعليم وحق الاقتراع[٦٦].

[٦٦] - The cultural legacy of Sacher-Masoch: Nataliya Kosmolinska and Yury Okhrimenko:
http://www.wumag.kiev.ua/index2.php?param=pgs20044/70

بالنسبة إلى حياته العاطفية، فقد سُجّلَتْ أوّل حادثة عاطفية له مع عمّته الكونتيسة زنوبيا، إذ طلبتْ منه أنْ يساعدها في خلْعِ فروتها، وفجأةً راح الولدُ يقبّل قدمها، فركلتْهُ خارج الغرفة مع ضحكة ساخرة. وفي يوم لاحق، كان يلعبُ مع رفاقه لعبة الاختباء (الغُمَّيضة)، فدخل إلى غرفة نوم عمّته، واختبأ وراءَ مشجب الثياب. بعد قليل، دخلت الكونتيسة مع عشيقها، وما هي إلّا دقائقُ حتى دخل زوجُها الغرفة، وهكذا وقع شجارٌ بين الرجُلين، فاستلَّت الكونتيسة السُوط وصرختْ في وجهيهما، وطردتْهما من الغرفة. لكنّ القصة لم تنتهِ هنا، إذ وقعَ المشجبُ الذي كان ليوبولد مختبئًا خلفه، فقامت الكونتيسة بمعاقبته وضربه بالسوط بقسوة. هذه العقوبة الأليمة التي اختبرَها في سنٍّ مبكّرة، بعد أنْ شاهد العلاقة العاطفيّة واستُثيرتْ شهوتُهُ لأوّل مرة، ربطتْ في وعيه وذاكرته اللّذة بالألم[٦٧].

عندما شبَّ ليوبولد، دخلَ في سلسلة علاقات عاطفية باحثًا عن مُراده، عمَّا يرضي عشقه للفراء، وحاجتْه لأنْ يكون محكومًا ومُسيطَرًا عليه من قِبل امرأةٍ جميلة وقاسية. وفي عام ١٨٦٩ قام بتوقيع عقد سريّ مع عشيقته البارونة فاني بيستور، ثمّ سافرا معًا إلى مدينة فينيسيا الإيطالية حيث لا يعرفهما أحد. وفي عام ١٨٧٣ تزوّج من أورورا فون روميلين، لكنه وجدَ حياته الزوجية غير ممتعة، فانفصل عنها. وبعد ذلك تزوّج من سكرتيرته في المجلة هولدا مايستر[٦٨].

---

٦٧ - http://www.astro.com/astro-databank/Sacher-Masoch,_Leopold

٦٨ - Hyams, Barbara (2000). "Causal Connections: The Case of Sacher-Masoch".

راحت كتابات مازوخ في السنوات اللاحقة تركّز على الرغبة الجنسيّة وارتباطها بالألم، وقد اقتنى لنفسه العديد من القُيود والسياط، ووجَدَ أنه غير قادر على الاستثارة من دون استعمال الفراء. ويُقال إنه اشترى العديد من القطط، وكان يُبقيها حوله أثناء الكتابة.

وفي أواخر الخمسينات من عمره، بدأت صحّته العقليّة بالتدهور، فعاش السنوات الأخيرة من حياته تحت رعاية الأطباء النفسيّين، ووفقًا للتقارير الرسمية فقد توفّي ليوبولد فون زاخر مازوخ في مصَحّ "ألتنستاد" الواقع في مقاطعة "هِسّن" الألمانية عام ١٩٨٥.

بقيتْ تفاصيلُ الحياة الخاصّة لمازوخ غامضةً جدًّا، إلى أنْ نشرتْ زوجتُه أوروا فون روميلين مذكّراتها "اعترافات حياتي" عام ١٩٠٦، وقد نشرتْها في برلين تحت اسم مستعار هو: فاندا فون دوناييف. بعد عام صدرت الترجمة الفرنسية للمذكرات تحت اسم: فاندا فون زاخر مازوخ، وبعد قرابة قرن صدرت الترجمة الإنكليزية نقلًا عن الفرنسية، موقعةً باسم "فاندا فون زاخر مازوخ" عام ١٩٩١[٦٩].

**كتب ليوبولد فون زاخر مازوخ:**

قصة غاليسية ١٨٥٨ - سقوط المجر والملكة ماريا ١٨٦٣ – الثورات البولندية ١٨٦٣ – أشعار فريدريش العظيم ١٨٦٥ – المتشرّد ١٨٦٩ - آخر ملوك المجر ١٨٧٠ – فينوس ذات الفراء ١٨٧٠ – المطلَّقة ١٨٧١ - السُلطانة ١٨٧٣ – قصص البلاط الروسي ١٨٧٤ – قصص البلاط الفينيسي ١٨٧٤ – المُثُل في عصرنا ١٨٧٥ – قصص غاليسية ١٨٧٥ – الإنسان من دون أحكامٍ مُسبَقة

[٦٩] - Weinberg, Thomas. Erwin Haeberle: "Sacher-Masoch: Human Sexuality". Garland Publishing. 2009.

١٨٧٧ – المُلْكيّة الخاصة ١٨٧٧ – قصص يهودية ١٨٧٨ – جمهورية أعداء النساء ١٨٧٨ – والدة الله ١٨٨٣ – الشباب الأبدي ١٨٨٦ – قصص بولندية ١٨٨٧ – أفعى الفردوس ١٨٩٠ – الحياة اليهودية بالكلمات والصور ١٨٩٣.

كما نُشِرَ من كتبه بعد موته: كاثرين الثانية ١٩٠٠ – قصص حبّ ١٩٠٤ – نساء رهيبات ١٩٠٧.

تنقّل ليوبولود فون زاخر مازوخ خلال حياته بين عدة بلدان أوروبية، ولم يُحسَب أو يُعتبَر أو يُصنَّف في يوم من الأيام، ولا بأيّ شكلٍ من الأشكال، كمجنونٍ أو مختلٍّ عقلي أو كاتب إباحي. كان الجميع ينظرون إليه كرجلٍ مرهف الأحاسيس، يتألّم لما يراهُ من ظلم في الحياة، ويناصرُ المضطهَدين والفقراء[٧٠].

٧٠ - http://www.local-life.com/lviv/articles/venus-sacher-masoch-furs

## II. المازوخية

### أ) المصطلح وتطوّره:

كان عالم النفس النمساوي ريتشارد فون كرافت-إيبنغ (١٨٤٠-١٩٠٢) أوّل من نحت مصطلح المازوخية، وذلك في كتابه "الاعتلال النفسي الجنسي" الصادر عام ١٨٨٦، وقد ذكر كرافت-إيبنغ في هامش الكتاب أنه اشتقَّ المصطلحَ من اسم الكاتب مازوخ، لأنّ هذا الانحراف يظهر في رواياته بشكل مميّز. يُعرّف كرافت-إيبنغ المازوخية بأنها "نقيضُ السادية. فالأخيرة هي الرغبة بإيقاع الألم واستخدام القوة والعنف، بينما الأولى هي الرغبة بمكابدة الألم والخضوع للقوة والعنف".

يرى كرافت-إيبنغ أنه يستطيع عن طريق المازوخية تفسير انحرافٍ غريب عن الحياة الجنسيّة النفسيّة، يكون فيه الشخص المصاب "مُسيطَرًا عليه، شعوريًّا وفكريًّا، بهاجسِ أنْ يكون خاضعًا خضوعًا كاملًا غير مشروط، لشخصٍ من الجنس الآخر. وأنْ يُعامَل من قِبل ذلك الشخص كما يُعامَل العبدُ من قِبَل سيّده، مُهانًا ومضطهَدًا. يترافقُ هذا الهاجس مع ميولٍ شهواني، وتخيّلاتٍ جامحة، إذ يتخيّلُ المصابُ مشاهدَ من هذا القبيل، ويسعى إلى تحويلها لحقيقة".

ويُضيف أنه في حالة هذا الانحراف، "لا يكونُ المصاب عديمَ الإحساس أو فاقدًا للشعور، ولا يكونُ مُصابًا بالعِنَّة لأسباب نفسيّة كالخوف من الجنس الآخر. ففي الواقع، هذه الغريزة المُنحرِفة تجدُ إشباعًا كافيًا –مختلفًا عن

الإشباع الطبيعي- في المرأة أيضًا، لكنْ ليس عن طريق الجِماع"[٧١]. ورأى كرافت-إيبنغ أن هذا الانحراف ليس بجديد، إذ إنّ واحدًا من أشهر الفلاسفة كان مصابًا به، وهو جان جاك روسّو، فيعود إلى كتابه "الاعترافات" ويسهب في تحليله.

عندما بدأ سيغموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩) دراسته للسلوك البشري، كان مصطلَحَا المازوخية والسادية قد ترسَّخا في كتب كرافت-إيبنغ وغيره، وكلاهما بالنسبة إلى فرويد "اللذة في أي شكلٍ من أشكال الإذلال والإخضاع". نقطة التحول عند فرويد هو دمجه لهذين المصطلحين في مصطلح "سادومازوخية" (Sadomasochism). يقول فرويد في كتاب "ثلاث مقالات في نظرية الجنسية" (١٩٠٥) إن السادو-مازوخية مركّب نفسي يشتمل على غرائز ودوافع متناقضة، حيث أنّ "الشخص الذي يشعر باللذة في إيقاع الألم على شخصٍ آخر أثناء علاقة جنسية، هو أيضًا قادرٌ على الاستمتاع بالألم الذي يجنيه هو نفسه من العلاقات الجنسية. الساديّ هو دائمًا، وفي الوقت ذاته، مازوخي. بالرغم من أن العنصر الإيجابي والفاعل للانحراف يكون أقوى وأكثر تطورًا في داخله، ولذلك يظهر نشاطه الجنسي المسيطِر والمهيمِن[٧٢].

وفي كتابه "الغرائز وتقلّباتها" (١٩١٥) يعود فرويد ويقدّم تفسيرًا للمركّب السادو-مازوخي: "الساديّ لا يشعرُ باللذة إلا عن طريق إيقاع الألم على الآخرين، لأنه قد سبقَ له أنْ تعرّضَ لتجربة في ماضيه، ربطتْ بين لذّته الخاصّة والألم الذي عاناه." ويضيف فرويد: "لا يمكن للسادي أنْ يجد اللذة

---

٧١ - Krafft-Ebing, Richard von: “Psychopathia Sexualis”. F.J. Rebman. London, 1984. p. 89.

٧٢ - Freud, Sigmund: “Three Essays on The Theory of Sexuality”. Hogarth. London, 1955. p. 159.

في ألم الآخرين؛ إذا لم يكنْ هو بنفسه قد اختبرَ التجربة المازوخيّة الرابطة بين الألم واللذة"[٧٣].

في عام ١٩٢٤ نشر فرويد مقاله "المشكلة الاقتصادية للمازوخية"، وفيه يناقش المازوخية بمعزل عن السادية، ويردُّ أسبابها إلى الطفولة. يرى فرويد أنّ المازوخية تأخذ ثلاث صُورٍ أو أشكال:

١) المازوخيّة الحسيّة أو الشهوانية: وتعود إلى أقدم مراحل الطفولة، وتنبعث من الهو (Id)؛

٢) المازوخية المعنوية أو الخُلُقية: وهي الخضوع الجنسي للموضوع المعشوق، ومركزُها الأنا العليا (Super-ego)؛

٣) المازوخية الأنثويّة: وهي انحراف سلوكي مركزه الأنا[٧٤](Ego)

ولتوضيح ذلك، نقول إنّ الحالة الأولى تعود إلى المرحلة الأوديبيّة من الطفولة، حيث تترافق اللذة مع الشعور بالذنب، ويكون الضربُ الذي يتعرّض له الطفل من أمه بمثابة الفعل التطهيري المُريح للنفس. الثانية تمثل عبودية (فيتيشية) للشخص المعشوق، وهي ناجمة عن ضغوط الأنا العليا. الثالثة هي العجز عن تحقيق الأنا الفرديّة، (يكون تحقيق الأنا الفردية عن طريق التماهي بصورة الأب)، ولذلك ينحرف السلوك (الذكري) إلى الأنثوية.

لكن تقديم فرويد لثلاث صُورٍ أو أنماطٍ من المازوخية لم يبسِّط القضية، بل زاد من تعقيدها. فهل تظهر هذه الصور كلّ واحدة منها على حدة؟ أم تكون متداخلة ومترابطة؟!

---

[٧٣] - Freud, Sigmund: “Instincts and Their Vicissitudes”. Collected Papers. 1946. p. 71.

[٧٤] - Freud, Sigmund: “The Economic Problem of Masochism”. New York University Press. New York, 1995. p. 161.

يُعتبر ثيودور رايك (١٨٨٨-١٩٦٩) من أبرز تلامذة فرويد ومن أكبر نقّاده، وتحظَى أعمالُه في مجال التحليل النفسي بمصداقية كبيرة. وفي كتابه "المازوخية في الإنسان المعاصر" (١٩٤١) يحدّد رايك أربع خاصيّات أساسيّة للمازوخية: ١) الأهميّة الكبرى للخيال: حيث يكون التخْيِيْل من أجلِ التخييل وحده، وتلعب أحلام اليقظة أو النوم دورًا رافدًا ومؤثرًا في الخيال، ثم يسعى الشخصُ إلى تجسيد تخيّلاته على شكلِ طقوس وممارسات. ٢) عامل الإرجاء: يتميّز المازوخي بقدرته على الانتظار والتأجيل والتلهُّف الشديد والحَصْر النفسي، وكذلك كبْتِ حدّة التوتر الجنسي ومنعهِ من الإشباع. ٣) التعبير عن العواطف: يعرضُ المازوخي بطريقة مميّزة معاناته وإحراجه وهَوَانه. ٤) الخوف المثير: يطلب المازوخي العقاب بشدّة وعنف، لتفريغ الحصر النفسي والاستمتاع باللذة المحرمة[٧٥].

في عام ١٩٨٣، ألقى الطبيب الأمريكي وليم غروسمان محاضرة في "جمعية التحليل النفسي"– نيويورك، حملت عنوان: "ملاحظات حول المازوخية: مناقشة لتاريخ المفهوم وتطوّره"، وفيها يرى أنّ المازوخية قد تحوّلتْ إلى مفهوم يُستخدم لتغطيةِ ظواهر طبيّة واسعة ومتنوّعة، وأنّ الدراسات الحديثة تثبتُ ازدياد القيمة الطبية لهذا المفهوم. ومن أوجُه استخدامه:

١) المازوخية كوصف للسلوك: والمقصود به السلوك البشري الذي يربط بين الألم واللذة، ويُقِرّ غروسمان بأنّ الأدب قد سبقَ الطب النفسي في ذلك، ويُحيل اكتشافه إلى الجهود التي حاولتْ ربطَ السلوك البشري بأنماطه البدئيّة في مملكة الحيوان.

---

٧٥ - Reik, Theodor: “Masochism in The Modern Man”. Grove Press. New .York, 1962. p. 44-91.

٢) المازوخية كإشارة إلى التخيُّلات: يستخدم المفهوم لتشخيصِ ظاهرةٍ طبية يكون فيها المريض مسكونًا بالتخيّلات الواعية وغير الواعية.

٣) المازوخية كإشارة إلى نوع من العلاقات بين الأفراد[٧٦].

**ب) تحرير مازوخ من رقبة ساد:**

في عام ١٩٦٧، نشر الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز (١٩٢٥-١٩٩٥) كتابه: "المازوخية: البرودة والقساوة"، وفيه يقدّم دراسة هامّة وعميقة لأعمال مازوخ. تُرجم الكتاب إلى عدة لغات، وقد أصدرته عدّة دور نشر مع رواية "فينوس ذات الفراء" في مجلّد واحد، بحيث غَدَا الكتابُ مقدّمةً طويلة لها. في هذا الكتاب يقدّم دولوز رؤية جديدة للمازوخيّة، وينتقد ربط المازوخية بالسادية، ويفكّك مركّب "سادو-مازوخية" الذي نحتَهُ فرويد.

يرى دولوز أنّ اعتبار المازوخية "نقيضًا للسادية" تصوّرٌ قاصرٌ ومغلوط، وأن تعريفها بأنها "التلذّذ بالألم" هو تقزيمٌ جائر لأعمال كاتب بالغ الأهمية والتأثير. لذلك فإنه من الضروري قراءةُ أعمال مازوخ، لا الاكتفاء بما كُتِب عنه، فقد تعرّضتْ أعماله لإهمالٍ وإجحاف ظالمين. ومن التحامُلِ أنْ تقرأ مازوخ وأنت تضعُ المركيز دو ساد في ذهنك، أو أنْ تقرأ بنيّة أنْ تجد في أعماله ما يثبتُ أنّ المازوخية قد تنقلبُ إلى سادية أو العكس. ويرى دولوز أنّ عبقرية مازوخ وساد تكمن في كونهما قُطْبين متباعدَين لا يلتقيان، لكلٍّ منهما عالمه الخاص، وهما كاتبان تختلف تقنيّاتهما الروائية كليًّا. صحيح أنّ اسميهما ارتبطَا بانحرافَين

[٧٦] - http://internationalpsychoanalysis.net/wp-content/uploads/2011/02/NotesonMasochism.pdf

نفسيّين جنسيين، كلٌّ منهما يتضمن اللذة والألم، لكنّ ذلك لا يختلف عن كثيرٍ من الأمراض التي أخذتْ أسماءَ أعراضها، بدلًا من أسماء أسبابها[٧٧].

يرى دولوز أنّ الفرق الأوّل بين مازوخ وساد يكمن في اللغة، ففي أعمال ساد تطويرٌ مدهش للوظيفة التصويرية للغة، ويكون التصويرُ والوصف هما الغاية العليا للغة. بينما -عند مازوخ- تُوضَع الوظيفة التصويرية للغة في خدمة غايةٍ أسمى، فهي تهدف إلى الإقناع والتعليم والتثقيف. لغةُ ساد آمِرة سُلطوية تعبّر عن العنف الذاتي للسادي وتصفُ رغباته، ولا يكون للضحيّة أيُّ صوت. بينما لغةُ مازوخ هي لغة الضحية التي تبحثُ عن جلاد، وتحاول إقناعه وإبرامَ اتفاقٍ معه بغرض تحقيق أحلامها. وفي هذا السياق يستشهد دولوز بكلام جورج باتاي (١٨٩٧-١٩٦٢): "لغة ساد تقطعُ أية علاقةٍ ممكنة بين المتحدّث والمُستمِع"، فهي لغة آمِرة تطلبُ تنفيذ أوامرها، ولا تسعى إلى إقناع المستمع بوجهة نظرها. بينما لغة مازوخ هي لغة الناصح المثقِّف الساعي إلى إقناع الآخر، ويظهر الالتزام الثقافي عند شخصيّات مازوخ جليًّا، وما قبولُهم بالعذاب والألم سوى باعتباره خطواتٍ في سبيل الوصول إلى مثالهم الأعلى[٧٨].

وفي معرَض نقده لرأي فرويد القائل بأنّ السادية والمازوخية مركّب واحد (سادو-مازوخية)، وأنّ كلَّ سادي هو مازوخي بالضرورة، والعكس بالعكس. يتساءلُ دولوز: "هل يمكن للسادي أنْ يصبح مازوخيًّا؟ وهل يمكن للمازوخي أنْ يصير ساديًّا؟". يوضّح دولوز رؤيته بالقول إنّ المرأة-الجلّاد في المازوخية لا

---

٧٧ - Deleuze, Gilles: “Masochism: Coldness and Cruelty”. Zone Books. New York, 1991. p. 133.

٧٨ - Deleuze. p. 18-20.

يمكنها أنْ تصير سادية، لأنها جزءٌ لا يتجزأ من الحالة المازوخية، إنها تجسيدٌ للخيال المازوخي، وهي تنتمي إلى العالم المازوخي. هذا لا يعني أنها تحمل الميول التي يحملُها الشخص المازوخي، بل يعني إنّ "ساديّتها" هي من نوعٍ لا يمكن أن يوجد في الشخص الساديّ، لأنها انعكاسٌ للمازوخي ووجهٌ آخرُ له. وكذلك في السادية، لا يمكن للضحية أنْ تصير مازوخية، لأنها تنتمي إلى العالم السادي وهي جزءٌ لا يتجزأ عنه، إنها الوجه الآخر للسادي. الخلاصة هي أنه لا يمكن النظر إلى أيٍّ من المازوخيّ أو الساديّ؛ ككيانٍ منفصِل عن عالمه ومنعزلٍ عن شروطه وظروفه[٧٩].

المازوخي ليس شخصًا غريبَ الأطوار يجدُ اللذة في الألم، إنه مثلُ كلّ شخص، يجدُ اللذة في مكانها الطبيعي. لكنّ الاختلاف في حالته، هو أنه يرضى بالألم والإذلال كشروطٍ مسبقة وضرورية في سبيل الوصول إلى المتعة والمسرّة. ولذلك من المغالطة أنْ نُعامل عقدة (لذة-ألم) كمادّة خامّ قابلة بطبيعتها للتشكّل في عدّة صور، وأكثر المغالطات شيوعًا هو الادّعاء المزعوم بتحوّل السادية إلى مازوخية[٨٠].

وفي النهاية يلخّص دولوز نتائج بحثه، ويحدّد تسعة فروق رئيسة بين السادية والمازوخية:

١) السادية تعبير عن المشاعر والرغبات من دون قيود، المازوخية تمثّل جدليّة الخيال والواقع.

---

٧٩ - Deleuze. p. 40-42.

٨٠ - Deleuze. p. 71.

٢) تتدرّج السادية من السلبية كجزء من عملية التدمير، إلى النفي كفكرة مطلقة. بينما تتدرّج المازوخية من إنكار الواقع إلى التوق والتلهّف إلى تحقيق المثال الأعلى.

٣) تُعنى السادية بالتكرار الكمّي، بينما تُعنى المازوخية بالتشويق النوعي.

٤) لا يبحث السادي عن الشخص المازوخي، وكذلك لا يبحث المازوخي عن السادي، وهما لا يمكنْ أن يلتقيا في الأدب ولا في الواقع.

٥) السادية تُلغي الأمّ وتضخّم الأب، المازوخية تضخّم الأمّ وتحجُب الأب.

٦) يختلفان كليًّا من حيث وظيفة الخيال ودوره.

٧) هنالك تقديس للجمال عند المازوخية، بينما تُعادي الساديةُ الموقف الجمالي.

٨) السادية سلطوية، المازوخية تعاقدية.

٩) في السادية يكون الدورُ الرئيسي للأنا العليا ولتماهي الذوات فيها، أما في المازوخية فتكون الأولوية للأنا، وللسعي إلى تحقيق مثال الأنا[٨١].

وكما أعتقد، لا تتضح هذه الفروق إلا لمنْ قرأ بعضًا من أعمال مازوخ وساد، لكنها ضرورية لإزالة الأحكام المسبقة عن الموقفين. فالمازوخية والسادية ليسا مركّبًا واحدًا، وليسَا وجهين لعملة واحدة.

[٨١] - Deleuze. p. 133.

# III. فينوس ذات الفراء

خلال القرن العشرين وبداية الواحد والعشرين، صدرَ أكثرَ من مائة عمل أدبي ومسرحي وسينمائي وتلفزيوني، متأثّر بشكلٍ صريح أو ضمني بأدب ليوبولد فون زاخر مازوخ[٨٢]. قد تكون أهمية رواية "فينوس ذات الفراء" السيكولوجية أكبر من أهميتها الأدبية، وهي قابلة للدراسة من خلال عدة نظريات ومناهج نقدية. سأقوم في هذه الدراسة بمقاربة الرواية من منظور التحليل النفسي (فرويد- دولوز)، ونظرية نيتشه في الأدب، ومن منظور الدراسات الثقافية، وفق التقسيم التالي: أ) التحليل الفرويدي؛ ب) التحليل الدولوزي؛ ج) التحليل النيتشوي؛ د) الأدوار الجندرية؛ ه) البُعد الاستشراقي.

**أ) التحليل الفرويدي:**

أشرتُ إلى أنّ فرويد اعتبر السادية والمازوخية مركّبًا واحدًا، سمّاه "سادو-مازوخية"، وهو يبدو بذلك متأثّرًا بالجدل الهيغيلي: (أطروحة × نقيض = تركيب). وغالبًا ما تتوحّدُ الأضداد -عند فرويد- في تركيبة متكاملة واحدة. فعند فرويد لا يصحُّ القول "لكلّ قاعدة شواذ"، لأن الشواذ عناصرُ جوهرية في بنية القاعدة ذاتها.

في كتابه "ما فوق مبدأ اللذة" (١٩٢٠) يقدّم فرويد قانونًا عامًّا ومتكاملًا للذة وعدم اللذة، أو للذة والألم، وهنا لا يكون الألمُ استثناءً من مبدأ اللذة، بل هو عنصرٌ مكمّل له. حيث إنّ كلَّ سعي وراء اللذة يحتوي ضمنًا تجنُّبَ الألم،

[٨٢] - https://en.wikipedia.org/wiki/Sadism_and_masochism_in_fiction

وكلُّ هروب من الألم يحتوي ضمنًا رغبة في تحقيق اللذة. وبالتالي فإنّ العلاقة بين اللذة والألم تكامليّة.

يرى فرويد أنّ هنالك عنصرًا من السادية أو العدوانيّة في الغريزة الجنسية، ويمكن لهذا العنصر (السادي-العدواني) في سياق تطوُّره وانطلاقه من الذات إلى الموضوع، أنْ ينعكس ويرتدَّ إلى الذات. من هنا يتشكّل عنصرُ المازوخيّة، أي أنّ المازوخية هي في الأساس "سادية" انطلقتْ بغريزتها العدوانيّة من الذات نحو الموضوع، ثم تعرّضتْ لارتكاسٍ ونكُوص، فارتدَّتْ من الموضوع إلى الذات[٨٣].

لكنْ لماذا تنعكس الطاقة الغريزية العدوانية إلى الذات؟ يفسّر فرويد ارتكاسَها ثم انعكاسها في صورتين: الأولى هي العدوانية تجاه الأبّ، فهي يمكن أن تنقلب وتنعكس نحو الذات، بسبب الخوف من فقدان حبّ الأب. والصورة الثانية هي الانعكاس الناتج عن الشعور بالذنب المرافق لمرحلة تشكُّل الأنا العليا[٨٤].

نوضّح الصورة الأولى: العدوانية تجاه الأب مفهومة في سياق عقدة أوديب (Oedipus Complex)، والتنافس على الأم، والخوف من الخصاء (Castration fear)، والرغبة في إخصاء الأب. وهنالك علاقة وثيقة بين عقدة أوديب وانعكاس العدوانية الغريزية إلى الذات. ففي مرحلة الطفولة، وتحديدًا مرحلة تشكّل الأنا العليا، يكون الطفل مصمّمًا على التخلّص من عقدة أوديب، ويكون التخلّص منها بنزع جنسيّتها. وهكذا تقوم الأنا العليا بنزع

---

٨٣ - Freud, Sigmund: “Beyond the Pleasure Principle”. Bartleby. New York, 2010. P. 93.

٨٤ - Freud. P. 94.

جنسيّة الأنا بشكلٍ عنيف (ساديّ)، فتتراجع الأنا إلى الوراء وتصبح مازوخية. وبالتالي لا يمكن اعتبار المازوخية "سادية" منعكسة إلى الذات، إلا عبرَ تنشيط الرغبة الأوديبيّة من جديد، وإعادة الفاعليّة الجنسية لها.

أما الصورة الثانية: الشعور بالذنب (Guilt-feelings) بوصفها سببًا من أسباب انعكاس العدوانية الغريزية إلى الذات، فينبغي أنْ نضيف إليه الرغبة في العقاب. إنّ المازوخي يقبل بالعقاب كوسيلة لتحقيق غاية أسمى، هي التخلّص من الذنب ومن الحَصْر النفسي المرافق له، وجعْل الإشباع الجنسي ممكنًا.

إن رغبة المازوخي بأن يُعاقَب، ليستْ سوى هروب من المواجهة مع الأب (خوف الخِصاء + العجز عن إخصاء الأب)، ويكون الهروب عن طريق التماهي مع الأم (الطرف الخاضع)، وتقديم نفسه كموضوع جنسيّ للأب.

لكن المازوخي يعطي للأم صورةَ الشخص المتسلّط الذي يقوم بالضرب، وليس للأب، وهذه محاولة من الأنا المازوخية لتجنُّب الوقوع في فخ المثليّة الجنسية. وهكذا يهرب المازوخي من مواجهة الأب التي يعجز عنها، ويُلقي باللوم على الأم (الأم تلعبُ دور الأب = الأم هي مَن أخصَت الأب).

نلخّص السيرورة الفرويدية لتكوين شخصيّة المازوخي: (طفل --> عقدة أوديب --> الصدام مع الأب --> الخوف من الخصاء --> ارتكاس ونكوص --> أخذ دور الأم لاستعطاف محبّة الأب --> إعطاء الأم دورَ الأب).

في رواية "فينوس ذات الفراء" تغيب صورة الأب كليًّا عن المشهد، كما تغيبُ الأم البيولوجيّة، لتظهر الأم في صور جديدة، وكلّ أم جديدة تخفي وراءَها صورةً للأب. يقول بطل الرواية (سيفرين) إن تربيته الأرستقراطية المحافظة جعلتْهُ شخصًا مرهفَ الأحاسيس، يبغضُ النساء والجنس. وهذا انتصار للأنا

العليا على الأنا، وارتكاسٌ للأنا نحو المازوخية. وبما أنه عاجز عن مواجهة الأب/المجتمع/المنظومة الأخلاقية، فإنه يأخذ دور الضحيّة ويقدّم نفسه موضوعًا جنسيًّا للأب. لكنّ الأب مغيَّبٌ كما قلنا، فتأخذ النسوةُ صُوَر الأبوية/الذكورية/السلطوية، وذلك لتجنّب الوقوع في الجنسية المثلية.

وبالعودة إلى فرويد وكتابه "ما فوق مبدأ اللذة"، نشير إلى تمييزه بين الإيروس (Eros) والثاناتوس (Thanatos)، فالأول هو الحب وغريزة الحياة، والثاني هو الكراهية وغريزة الموت. إذ أنّ كل إنسان يحمل في داخله غريزة الحياة وحفظ النسل والبقاء، وتُعزَّز هذه الغريزة بالحب والرغبة الجنسية (إيروس). وكذلك فإنّ كلّ إنسانٍ يحمل في داخله غريزة الموت والنزعة التدميرية، والرغبة بفناء المادة العضوية وتلاشيها (ثاناتوس).

وانطلاقًا من مبدأ وحدة الأضداد الذي تبنّاه فرويد كقانون ناظمٍ لمبدأ اللذة، فإنّ كلَّ إيروس في الظاهر يخفي ثاناتوسًا في الباطن، وكلَّ ثاناتوس في الظاهر يخفي إيروسًا في الباطن. وبالتالي يمكن لكلّ حبٍّ إيروسيّ أنّ يُخفي نزعة تدميرية (ثاناتوس) في جوهره. وعندما تظهر النزعة التدميرية في ممارسة الجنس، وتنصبُّ على الشريك/الآخر، نكون أمام الانحراف السادي. وعندما تنعكس النزعة التدميرية نحو الذات، نكون أمام الانحراف المازوخي.

في "فينوس ذات الفراء" يعجز البطل المازوخي "سيفرين" عن تحقيق علاقة إيروسيّة (عشقيّة-جنسيّة) مُرْضِية مع الشريكة "فاندا"، فيظهر الثاناتوس المختبئ تحت الإيروس. وبما أنّ "أنا" البطل المازوخي مهزومة تحت سطوة الأنا العليا، وهي -بسبب رهافتها ورومانسيّتها ودماثة أخلاقها- تعجزُ عن صبّ نزعتها التدميرية (ثاناتوس) على الآخر، فإنّ نزعتها التدميرية تنعكس نحو

الذات، ويصيرُ يطلبُ من الشريكة أن تقوم هي بقتله، إرضاءً لغريزة الموت لديه (ثاناتوس).

يمكن في النهاية اختصار التحليل الفرويدي بـ: (عقدة أوديب × خوف الخصاء = الإيروس × الثاناتوس).

**ب) التحليل الدولوزي:**

في كتابه "المازوخية: البرودة والقساوة" (١٩٦٧)، يلاحظ جيل دولوز أنّ للبطلاتِ في أدب مازوخ صفات مشتركة: القوة العضليّة، الغرور الفطري، الإرادة الجبّارة، والنزوع نحو القسوة حتى في لحظاتِ البراءة والحنان. ويستشهد بما قاله مازوخ في واحدٍ من كتبه: "سواءً كانت أميرةً أو فلاحة، سواءً كانت متّشحةً بفرو القاقم أو بفروة خروف، فإنّها المرأة نفسُها على الدوام. إنها ترتدي الفراء، وتستخدم السوط ببراعة، وتُعامِل الرجالَ كعبيدٍ لها"[٨٥]. لكنْ تحت هذا التماثل الظاهري، يُميّز دولوز بين ثلاث صورٍ للمرأة عند مازوخ.

يعتقد دولوز أنّ مازوخ كان مُطّلعًا بشكلٍ جيّد على أعمال معاصره: يوهان ياكوب باخوفن (١٨١٥-١٨٨٧)، لا سيّما كتابه الرائد "الأمومة" (Motherhood)، وفيه يميّز باخوفن بين ثلاث حقبات مرَّ فيها التطوّر البشري: أولًا: الحقبة الهيتايرية (Hetaeric): وهي حقبة تتّسم بالفوضى الشهوانية وسط المستنقعات البدائية، حيث كانت علاقاتُ النساء مع الرجال متعدّدة ومتبدّلة، وكان القانون الأنثوي هو الناظم للحياة، أما الأب فلم يكن معروفًا. ثانيًا: الحقبة الأمازونية: وفيها تمَّ تجفيفُ المستنقعات واكتشافُ الزراعة، وظهرت المجتمعات الأمازونيّة المحكومة من قبل النساء. وهنا بدأت

[٨٥] - Deleuze, Gilles: "Masochism: Coldness and Cruelty". Zone Books. New .York, 1991. P. 47

شخصية الأب والزوج بالظهور، لكنها بقيتْ تحت سيطرة المرأة. ثالثًا: الحقبة البطريركية: وفيها سيطرَ الرجل ونشأ المجتمع الأبوي البطريركي، وتراجعت الأموميّة والأنوثيّة إلى الهوامش[٨٦].

بناءً على تقسيمات باخوفن، يرى دولوز أن المرأة عند مازوخ تظهر في ثلاثة أنماط: أولًا: الأمّ الهيتايرية البدائية، وهي أمّ المستنقعات. ثانيًا: الأمّ الشفويّة، وهي أمّ السُهوب، دورُها تربية الطفل ومعاقبته وربما قتله. ثالثًا: الأمّ الأوديبيّة، وهي المرأة المعشوقة، وتكون دائمًا مرتبطة مع الأب الساديّ بوصفها ضحيّته أو شريكته في الجريمة[٨٧].

في "فينوس ذات الفراء" يبحث "سيفرين" منذ البداية عن الأم الهيتايرية، عن امرأة من زمن الإغريق، تكرّسُ حياتها للمتعة والسعادة من دون حدود، وتتخذُ لنفسها عددًا من العشاق تبدّل بينهم كما تشاء. هذه المرأة تمثّل حنينه إلى البدائيّة المتحرّرة من قوانين العصر الحديث وأخلاقه. لكنه وبتأثير من خياله وثقافة عصره يريد أن يصنع منها امرأةً مستبدّة وطاغية، تحملُ صفات الملكات اللواتي حكمنَ بلادهنّ بقوةٍ وحزم، مثل كاثرين الثانية وماري أنطوانيت... وهذه المرأة هي الأمّ الشفويّة المُربيّة التي تعلّم الطفل وتعاقبه على أخطائه، وقد تقتله. عندما تجتمع الأمّ الهيتايرية البدائية مع الأم الشفويّة المربّية في امرأة واحدة، فإنها تشكّل معشوقة البطل المازوخي ومثاله الأعلى، أي إنها الأمّ الأوديبية. إذًا، تكون المعادلة الدولوزية: (الأم الهيتايرية + الأم الشفويّة = الأم الأوديبية).

---

٨٦ - Deleuze. P. 52.

٨٧ - Deleuze. P. 55.

ونلاحظ في تحليل دولوز؛ أنّ الأم الشفوية المربّية التي تعاقب الطفل وتقتله، تحمل في شخصيّتها شيئًا من التناقض بين التربية والقتل. لكنّ هذا التناقض يُحَلُّ عندما نستذكر النمط الأولي: ليليت (Lilith). ليليت التي انتقلت من البانثيون السومريّ إلى التوراة العبريّة إلى الثقافة الأوروبية، هي المرأة/الربّة التي تربّي الطفل وتغنّي له ترنيمة المهد (Lullaby). لكنْ بعد انتقال المجتمع من الطُور الأمومي إلى الطور الأبوي، قام بمعاقبة ليليت، فصارتْ تُوصَف بالشيطانة الليليّة التي تزور أسرّة الأطفال، لا لتغنّي ترنيمة المهد فحسب، بل لتقتلهم خنقًا بشعرها الأسود الطويل. من خلال فهم نمط ليليت، يمكننا فهم وظيفة الأمّ الشفوية المربيّة والقاتلة معًا.

بعد تمييز دولوز بين ثلاث صور للمرأة في "فينوس ذات الفراء"، يقدّم لنا تحليلًا بديعًا: "إنّ صراع مازوخ العلَني مع الأم، الرغبة بها وتجريمها، ينبغي أنْ يُقنعنا بأنّ الأب هو الذي يلعبُ الدور المحوريّ، وليس الأمّ"[٨٨]. ولتفسير وجهة النظر هذه، يرى دولوز أن المازوخي -في الأصل- يرغب في أخذ دور الأب وسرقة فحولته. ثم ينشأ لديه شعورٌ بالذنب مترافقٌ مع الخوف من الخصاء، وهذا ما يدفعه لإعلان هدفه الفعلي، وهو أخذُ دورِ الأم بهدف استجداء محبّة الأب واستعطافه.

ولكي يتجنّب هجمةً جديدة من الشعور بالذنب والخوف من الخصاء، فإنه يستبدل برغبة تلقّي الحبّ من الأب رغبةَ التعرّض للضرب من الأب، وهنا لا يمثّل العقاب سوى الشكل الظاهري لها، أما هي -في الجوهر والعمق- علاقةُ

[٨٨] - Deleuze. P. 57.

حبّ كاملة. (الضارب = الفاعل/الذكوري/السادي. المضروب = المنفعل/الأنثويّ/المازوخي).

لكنْ لماذا أعطى مازوخ وظيفة الضرب للأمّ بدلًا من إعطائها للأب؟ يُعطي دولوز ثلاثة أسباب لهذا الإبدال:

١) الحاجة إلى تفادي الوقوع في المثليّة الجنسيّة.

٢) الحاجة إلى الحفاظ على المرحلة الطفولية الأولى حين كانت الأم هي المرغوبة، مطعّمةً بالفعل العقابي الذي يمارسه الأب.

٣) الحاجة إلى تقديم العملية كلّها كحالة استجداء واستعطاف وتوسُّل إلى الأب، بمعنى: "هل ترى؟ لستُ أنا من أخذَ مكانك، إنها هي من تؤذيني وتضربني وتخصيني..."[٨٩]. إذًا، يقف الأبُ وراء جميع الأقنعة التي وضعها مازوخ على وجوه نسائه، فهو يتجنّب الصدام مع الأب بكل الأشكال الممكنة، ويغيّبه عن مجمل أحداث الرواية.

معادلة التحليل الدولوزي: (الأم الهيتايرية + الأم الشفوية = الأم الأوديبية)

الأم الأوديبية = المرأة المعشوقة -------> <------- الأب الساديّ.

**ج) التحليل النيتشوي:**

أصدر فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) كتابه "مولد التراجيديا من روح الموسيقى" (١٨٧٢) بعد سنتين من صدور "فينوس ذات الفراء" (١٨٧٠)، لا أتوقّع أنْ يكون أحدُ الرجُلين مطّلعًا على كتابات الآخر، فكلاهما لم يكن معروفًا خلال حياته. في كلّ حال، ثمة قواسمُ مشتركة بينهما: كراهية النساء

[٨٩] - Deleuze. P. 58.

(Misogyny)، محاباة اليهود (Philo-semitism)، انتقاد الأخلاق المسيحية، عشق الروح الإغريقية والدين والفلسفة والأدب الإغريقي.

الفنّ -عند نيتشه- تعبيرٌ عن التراجيديا البشرية، والتراجيديا ليستْ مأساةً فحسب، بل هي نضال مستمرّ وتحمُّل للمصائب والأهوال والانتصار عليها، حتى لو أن الظروف ستؤدي إلى هزيمة الإنسان عاجلًا أم آجلًا. ويرى نيتشه أن الفنّ يستمدُّ مقوماتِ بقائه وأسباب تطوّره من ثنائية: أبوللو × ديونيزوس، مثلما تستمدّ الأنواع بقاءها من ثنائية الجنسين: ذكر وأنثى. ويُصرّح نيتشه بوجود تعارض -في الجذور والأهداف- بين الفنّ الأبولوني في النحت، والفنّ الديونيزي الموسيقي اللابصري[٩٠].

لن أسهب في عرض نظرية نيتشه، لكني سأوضّح ما نعنيه بـ "أبولوني" (Apollonian) وما نعنيه بـ "ديونيزي" (Dionysian). ديونيزوس هو إله الخمر والرقص والغناء والمسرح، وظيفته زراعة الكرمة وصنع الخمر والرقص الاحتفالي الذي يعرف بالطقوس الديونيزية، ومن هذه الطقوس نشأ المسرح. أما أبوللو فهو إله الشعر والفنون، صحيح أنّ وظيفته مشابهة لديونيزوس في الظاهر، لكنها مختلفة كليًّا في الجوهر. حيث أنّ ديونيزوس يمثل الروح الإغريقية القديمة التي لا تهتمُّ سوى بالسعي وراء المتعة وتصيُّد اللذة وصناعة الفرح، وبالتالي ترتبط الديونيزية بالسُكْر واللا عقلانية والعبَث واللذة والمجون. بينما يمثّل أبوللو العقلَ والمنطق والوعي والنظام، والفلسفة الأفلاطونية (ثم المسيحية) التي تزدري الفنّ والجسد والرغبات.

٩٠- Nietzsche, Friedrich: "The Birth of Tragedy out of The Spirit of Music". Vancouver Island University. British Columbia, 2008. P. 11.

من ثنائية ديونيزوس وأبوللو، نحدّد بعض الثنائيات المرتبطة بما هو ديونيزي وأبولوني:

| ديونيزوس | أبوللو |
|---|---|
| الجسد | العقل |
| الحيوان | الإنسان |
| الطبيعة | الثقافة |
| الأنوثة | الذكورة |
| الفوضى | النظام |
| الحدْس | الجدل |
| الرذيلة | الفضيلة |

في "فينوس ذات الفراء"، يبدو البطل المازوخي "سيفرين" شخصية ديونيزية بامتياز، فهو يمثل الروح الإغريقية القديمة، من حيث سعيه الدائم لهدم البُنى العقلية والأخلاقية والاجتماعية القائمة، وبحثه عن اللذة الفطرية والغرائزية الصافية. هو بطل تراجيديّ يصارع ويقاوم ويتحدّى، ويذهب إلى حتفه بطواعيةٍ ورضا. البطل الديونيزي الذي لا يُساوم ولا يقبل بأنصاف الحلول، فهو مستعدٌّ في أي لحظة أنْ يتخلّى عن كل شيء في سبيل تحقيق هدفه.

ثم يصطدم بشخصيّة "فاندا" التي يمكن وصفها بالبراغماتية، فهي تأخذ من الديونيزية ما تشاء، ومن الأبولونية ما تشاء. تأخذ من عاشقها الديونيزي أفضل الصفات الديونيزية، ومن عاشقها الأبولوني أفضل الصفات

الأبولونية. وفي مرحلة لاحقة من أحداث الرواية، يظهر الشخص الذي سمّاه الكاتب "اليونانيّ"، ووصفه بالقوة والجمال والذكورة والهيبة، وقال إنه لم يرَ مثلَه من بين الرجال الأحياء، وشبّهه بتمثال أبوللو.

وهكذا يمكن تحليل الرواية على أنها صراعٌ بين ديونيزوس وأبوللو، فالبطل المازوخي "سيفرين" صاحب الأنا المهزومة والمُرتكِسَة والمُتقهقرة إلى الوراء، إلى عالم الخيال والأحلام، إلى الهوامش والزوايا. هو في صراع دائم مع الأبولونية: الأب، المجتمع، الفضيلة، العقل، الواقع... وهو يعرف أنه سوف يُهزَم في النهاية، لكنه يتابع نضاله بعنادِ البطل التراجيدي وإصراره في مواجهة مع القدر.

لكن ما هي رمزية الفراء؟ سأعتمد على دراسة فيكتوريا سينغ: "خُفّ ساندريلا: ثنائية الفراء والزجاج" في ذلك، ثم أربط رمزية كلٍّ من الفراء والجِلْد بما هو ديونيزي وأبولوني. ترى سينغ أنّ الفراء يرمز إلى الإحيائية (Animism) أي الإيمان بوجود أرواح في النبات والحجر والجماد. ولقد كان الفراء "مادّة باهظة القيمة في القرن السابع عشر، ودليلًا على الترف والثراء الفاحش. نتيجةً لذلك، تظهرُ التراتبية الهرمية في المجتمع بالنظر إلى كلّ نوع من أنواع الفراء. فقد كان فرو السنجاب والقاقم كسوةً للأمراء وأهل البلاط، وكان فرو السَّمُّور كسوة النبلاء الأدنى درجة، أما فروة الغنم فهي لعامّة الشعب. وكانت هناك قوانين تمنع الأفراد من ارتداء الفراء الذي لا يناسب طبقتهم الاجتماعية"[٩١].

[٩١] - Singh, Victoria: "Cinderella's Slippers: The Dichotomy of Fur and Glass". Victoria University of Wellington. New Zealand, 1992. 10-11.

تضيف سينغ أنّ الفراء يرتبط بالشَعر، وأنّ الشعر يرتبط بالقوة (نتذكّر قصة شمشون في العهد القديم، وكيف كان شَعرُه سرَّ قوته). أما نزع الفراء فهو يعني نزع الشَعر، وبالتالي نزع القوة[٩٢]. أما العامل المُسبّب للاستثارة عند رؤية امرأةٍ ترتدي الفراء، فهو لأن الفراء يُذكّر الناظر -لا شعوريًّا- بشَعر العانة، وشعر العانة يدلّ على الفتاة في مقتبَل البلوغ، كما يدلُّ على البدائية والبهيميّة وكلّ ما يستدعي الطاقة الغريزية الفطرية، وهذا بالطبع يتعلّق بالطقوس الديونيزية القديمة[٩٣].

وفي هذه الرواية، فإنّ الوَلَع بالفراء ليس من صفات بطلة مازوخ (فاندا)، بل من صفات البطل المازوخي (سيفرين)، فهو مَنْ يتوسّلُ إليها ارتداء الفراء، خاصةً عندما تمارس طقوس التعذيب، وهذا ما ينسجم مع شخصيته الديونيزية. وفي مقابله تظهر شخصيّة "اليوناني" المولَع بالجِلد (أبولونيّة)، فهو يرتدي دائمًا "جزمةً جلديةً طويلة"، "جزمة ركوب الخيل"، وتبدو هذه الجزمة رمزًا قضيبيًّا (Phallic symbol) لكونها طويلة وعديمة الشَّعر. ومن هنا نربط جزمة الجِلْد بالذكورة، وبالتالي بالأبولونية.

لكنّ معشوقة البطل المازوخي (فاندا) ترتدي جزمة جلدية أيضًا؟! نعم هذا صحيح، لكن مازوخ دقيق الوصف والترميز، فهو لم يذكُر الجزمة الجلدية النسائية مرةً، إلّا وأضاف أنها مبطّنة بالفراء من الداخل، ومزيّنة بالفراء من الأعلى، ووصفها بالجزمة القصيرة. وعندما تكون الجزمة قصيرة، ومكسوّة بالفراء من الداخل والأعلى، فإنّ لها رمزية العضو الأنثويّ، والأنثويّة من

---

٩٢ - Singh. P. 15.

٩٣ - Singh. P. 23.

الصفات الديونيزيّة. إن معشوقة البطل المازوخي (فاندا) شخصيّة تجمع بين الأم الهيتايرية والأم الشفوية، بين الفراء والجلْد، بين الديونيزية والأبولونية.

نختصر التحليل النيتشوي بـ:

سيفرين --> مازوخي --> أنثوي --> مولَع بالفراء --> ديونيزي.

اليوناني --> سادي --> ذكوري --> مولَع بالجلد --> أبولوني.

فاندا --> سادو مازوخية --> غير ثنائية الجندر (Genderqueer) --> فرائية وجلدية --> ديونيزية وأبولونيّة.

**د) الأدوار الجندرية:**

رأى علماء القرن التاسع عشر أن المجتمعات البشرية انتقلتْ من النظام المطريركي (الأمومي) إلى النظام البطريركي (الأبوي) بعد اكتشاف الزراعة، وظهور أهميّة الثور في حراثة الحقل، ونشوء المُلْكية الخاصّة. ومنذ ذلك الوقت لم يتوقّف نضال المرأة ضد المجتمع البطريركي، مع اختلاف أساليب النضال القديمة كليًّا عن الحديثة. ولم يكن مازوخ بعيدًا عن ذلك في مجلّته "في القمة"، إذ كانت منصّة للدفاع عن حقوق المرأة ولا سيّما حقّ التعليم وحق الاقتراع.

ميّزتْ منظّراتُ الموجة النسوية الثانية (١٩٦٠-١٩٧٠) بين الجنس (sex) والجندر (gender)، فالجنس مفهوم بيولوجيّ يتحدد بالولادة، بينما الجندر مفهوم اجتماعي وثقافي مُكتسَب. فمنذ الطفولة، يبدأ المجتمع بصناعة الفروق الجندرية بين الذكر والأنثى، عن طريق التمييز بينهما في الملابس والألعاب والتعليم والواجبات. وهكذا يُنتج المجتمعُ شخصيةَ الذكر (العدوانيّ، الذكي، القويّ، الفاعل) وشخصية الأنثى (السلبيّة، الجاهلة، المُطيعة، المُنفعِلة).

بالعودة إلى زمن مازوخ ١٨٧٠، وإذا نظرنا إلى صورة البطلة (فاندا) من ناحية الأدوار الجندرية، نجد أنها تجمع صفاتٍ ذكورية وأنثويّة في آنٍ معًا، أي أنها "غير ثنائية الجندر" (Non-binary gender). فهي أولًا سيّدة تسخّر الآخرين عبيدًا لها، والسيادة بحدّ ذاتها مفهوم ذكوريّ سواءً اتصفَ بها رجل أو امرأة. وهي قوية وعنيدة تجرُّ الرجال من أنوفهم. وهي فاعلة غير منفعلة، إذ غالبًا ما تسحقُ مشاعرَ الآخر وتتلاعبُ بها من دون أنْ يهتزّ لها رمش، وتبقى كما وصفها مرارًا: "امرأة من حجر"، "تمثال رخاميّ"، "قاسية وباردة"، "عديمة القلب وعديمة الرحمة". وهي عدوانيّة تضرب بلا شفقة، وتوقع العنف الماديّ والمعنوي على جسد الآخر ومشاعره. ويكثر الكاتب من إعطاء الأدوار الذكورية لها، كأن تقود العربة بنفسها، وكأن تعلّق خنجرًا فوق سريرها. وفي الوقت ذاته يسهب في وصف صفاتها الأنوثيّة، من رقّة وحنان وإثارة وإغراء.... وهكذا فإنّ المرأة المعشوقة لدى المازوخي، تجمع بين أفضل الصفات الذكورية وأفضل الصفات الأنثوية. وهي كما قال دولوز: الأبّ خلف قناع الأم.

بينما يبدو البطل "سيفرين" شخصًا مرهفَ الأحاسيس، ولد في عائلة أرستقراطية، وقضى طفولته وشبابه منكبًّا على دراسة الفنون والآداب والعلوم، لم يساعدْ والده في العمل يومًا، ولم يُكابدْ شيئًا من مصاعب الحياة. هذا الفرد الذي عجز عن التماهي مع الأب في المرحلة الطفولية الأوديبية، سوف يعجز عن أخذ دور الأب اجتماعيًّا. وكما أنه هرب من مواجهة الأب، فهو سيهرب أيضًا من مواجهة المجتمع البطريركي.

يبحث البطل المازوخي عن امرأة تكون سيّدةً عليه، ولا مشكلة عنده في أنْ تمارس سيادتها (الذكورية- الأبوية) بشيءٍ من الظلم والطغيان. المهمّ بالنسبة إليه هو أنْ يُلقي عن كاهلهِ مسؤوليّة نفسِه، وأنْ تصبح حياته خاضعةً

لأوامرها ونزواتها، لأنّ شخصيّته المهزومة عاجزة عن اتخاذ أيّ قرار بحقّ نفسها. ويبحث المازوخي عن امرأة تكون مسؤولة عنه اقتصاديًّا، لأنه أضعفُ من أنْ ينخرط في العمل بين الرجال ومثل الرجال، فيرتكس إلى الوراء، ويأخذ دورَ المرأة التابعة للرجُل اقتصاديًّا.

لا يكتفي البطل المازوخي بالخضوع الجسدي والنفسي لها، بل يريد لسلطة المرأة/السيّدة عليه أنْ تكون معزّزة بقوة القانون. فهو يريد قلْبَ بنية المجتمع البطريركي رأسًا على عقب، بحيث تصير المرأة الجميلة والقويّة في رأس الهرم، بينما يقبعُ الرجالُ عبيدًا في قاعدة الهرم. وسواءً كانت رغبة مازوخ في قلب بنية المجتمع البطريركي نابعةً من تقديره لقُدرات المرأة، أو من رغبته في العودة إلى النظام المطريركي الأمومي (نتذكّر الأم الهيتايرية)؛ فإنّ طَرْحه لهذه الأفكار يُعتبر ثورةً جذريّة في زمنه، ثورةً على ثقافة العصر وسياسته.

أما فيما يتعلّق بالحبّ، فهو يرى أن علاقة الحبّ الطبيعية السليمة بين الرجل والمرأة غير ممكنة في عصره، أولًا بسبب عدم المساواة بين الجنسين في التعليم والعمل، وثانيًا بسبب الطريقة التي تُربّى فيها المرأة منذ الصغر، وهي طريقة تؤدي إلى بناء شخصيّتها الأنانيّة المغرورة والعابثة والماكرة والخائنة. ولذلك فإن للرجل خيارًا واحدًا بين اثنين، فهو إما أنْ يكون مطرقةً أو سِنْدانًا، فإذا اختار الأوّل كانت المرأة هي الثاني، والعكس بالعكس.

يصرّح مازوخ في نهاية الرواية أنه لا يمكن أنْ توجد علاقة حبّ سليمة بين رجل وامرأة، إلا في مجتمع يتساوى فيه الرجال والنساء من حيث الحقوق والواجبات. فهل يمكن اعتبار مازوخ نِسْويًّا؟ وهو الذي اشتُهر بكونه كارهًا للنساء؟

**هـ) البُعد الاستشراقي:**

بدأ الاستشراق الحديث مع حملة نابليون إلى مصر (١٧٩٨-١٨٠١)، وبالعموم كان القرن التاسع عشر حافلًا بالاهتمام الثقافي الغربي تجاه الشرق، سواءً في الأعمال الأدبية والفنية أو في الدراسات اللغوية والتاريخية... حتى تشكّلتْ صورةٌ مجرّدة لهذا الشرق، تُعرف بالمخيَال الاستشراقي، وصار الكاتب الغربي الجديد يتأثّرُ بما كتبه أسلافُهُ عن الشرق، بشكلٍ واعٍ أو غير واع.

لم يزُرْ مازوخ الشرق، لكنه قرأ ما كتبه الغربيّونَ عنه، وكانت صورة هذا المكان الغائب (الشرق) حاضرةً في أدبه، ومؤثّرة وفاعلة في المكان الحاضر (أوروبا) وأحداثه. مازوخ الذي عاش في زمن الإمبراطورية النمساوية المجرية، يعرف أن هذه الإمبراطورية قامت في الأصل من أجل حماية أوروبا من خطر السلطنة العثمانية المتاخم للحدود الشرقية لأوروبا. ويعرف أنّ شمال إفريقيا صار مجالًا جديدًا للاستعمار ودراسة الشرق. وبما أن السلطنة العثمانية كانت أقوى دولة مشرقية في القرن التاسع عشر، وحاصرتْ فيينا وهدّدتْ أوروبا مرّتين، فقد كان لها حضور كبير في الثقافة الأوروبية والمخيال الاستشراقي، لأنّ تعريف هذا الشرقي (الآخر) ضروريٌّ من أجل تعريف الغربي (الذات).

في "فينوس ذات الفراء" تظهر صورتان للشرق الغائب/الحاضر، الأولى: شرق العنف والعبودية، والثانية: شرق الغنى والرفاه.

على الرغم من أن التاريخ الأوروبي حافل بالعنف والعبودية، من أيام الإغريق إلى الرومان إلى عصر الكنيسة ومحاكم التفتيش ثم حروب الكاثوليك والبروتستانت. وعلى الرغم من أنّ مازوخ استشهد بكثير من صور العنف في

التاريخ الأوروبي القديم والحديث؛ إلا أنه حاول -بالوعي أو باللاوعي- نسبَ العنف والعبودية إلى الشرق. ففي هذه الرواية، غالبًا ما يكون مشهدُ العنف والتعذيب فوق الأريكة العثمانية (Ottoman) أو بجوارها، وهي أريكة منخفضة ليس لها ظهر، ترتفع بشكل انسيابيّ من الجانبين لتشكّل مساند الأذرع. إنّ توظيف هذه الأريكة المتكرّر أثناء مشاهد العنف -باسمها المعروف في اللغات الأوروبية: "عثمانية"- يجعل الشرق الغائب حاضرًا دومًا. وعندما تكون البطلة "فاندا" خارجةً في غزوة لاصطياد المعجبين، فإنها تضع على رأسها القَلْبَق العثماني (Bashlyk). وهو جزء من اللباس الرسمي للجيش العثماني، ولو أنّ المدنيين يلبسونه أيضًا. وفي أواخر الرواية يظهر البطل اليوناني الذي حارب الأتراك في كريت، واضعًا الطربوش العثماني (Fez) على رأسه، وكأنه بهذه الصورة قد نزع رمز السلطة عن رؤوسهم ووضعه على رأسه. وهذا ما يجعله مُهابًا ومرهوبَ الجانب.

ويكثر مازوخ من الاستشهاد بقصة شمشون ودليلة المذكورة في الكتاب المقدس- سفر القضاة، لأنّ مغزاها خيانة المرأة للرجل الذي يعشقها. لكنّ هذه القصة تخرج من سياقها التاريخي-الأسطوري؛ وتصبح صورةً فوق زمنيّة تتوافق مع المخيال الاستشراقي. إذ تظهر دليلة في اللوحات الجدارية وهي ترتدي عباءة مصنوعة من الفرو (فروة بدوية)، وتجلس على أريكة عثمانية من القرن التاسع عشر. بينما يظهر شمشون مُصفّدًا ومسجًّى على الأرض، وفوقه واحدٌ من أعدائه الفسلطيّين يريد أن يفقأ عينيه. ونجد أن مازوخ يتعاطف مع القاضي اليهودي شمشون القادم إلى فلسطين باعتبارها أرض الميعاد، ضدّ دليلة التي تدافع عن أهلها وأرضها. ومن هنا ينسب صفاتِ الغدر والخيانة والعنف إلى دليلة وأهلها الفلسطيّين، ويترك لشمشون صفات الوفاء

والإخلاص والمحبة. أما فيما يخصّ العبودية، فعندما يتفق بطلا الرواية على توقيع عقد عبودية، يجدان أنّ العبودية قد أُلغيتْ في العالم الأوروبي المتحضّر (وهذا صحيح تاريخيًّا، فقد أُلغيت العبودية بعد مؤتمر فيينا ١٨١٤). وبالتالي لا يكون أمامهما من خيار سوى الذهاب إلى العالم الآخر، إلى العالم الذي يعيش خارج الزمن، وهو "الشرق". فالحلّ الوحيد لامتلاك عبدٍ هو السفر إلى القسطنطينية. والشرق العنيف هو أيضًا الجغرافيا المشتعلة بالحروب، فعندما يفكّر "سيفرين" بالتطوّع كجندي والذهاب إلى الحرب، فإنّه يفكّر في آسيا وشمال إفريقيا، فهذه هي أقاليم الحرب في نظره. على الرغم من أنّ زمن الرواية كان حافلًا بالحروب الأوروبية-الأوربية، سواءً صراع الفلاحين مع الإقطاعيين، أو حروب الدول والإمبراطوريات، ومنها حرب كبيرة وقعتْ سنةَ صدور الرواية، وهي الحرب البروسية الفرنسية ١٨٧٠.

الصورة الثانية للشرق في الرواية هي: شرق الغنى والرفاه. فمِنْ علامات الرفاه في المنزل الأرستقراطي، أنْ يكون فيه سَمَاوَر لصنع الشاي، وأنْ يقدّم شايُ السَّمَاوَر للضيوف. ومن الألبسة الفاخرة التي ترتديها النساء الأرستقراطيات؛ الفساتين المصنوعة من قماش الموصلين. أما غرف النوم الفارهة فتكون ستائرُها من البروكار الدمشقي، ولا تخلو غرفة نوم فخمة من الأريكة العثمانية التي وصفها الكاتب أحيانًا بالأريكة الدمشقية (Damask ottoman)، وهذه دلالة أخرى على تأثير المخيال الاستشراقي الذي يرى الشرق وحدةً لا تتجزأ، فلا فرق بين فلسطين أو سوريا أو تركيا. وكذلك تُكسى البيوت الفارهة بالسجّاد التركي، وتؤثث بالديوان الفارسي الذي كان منتشرًا في قصور العثمانيين. (أريكة عثمانية من القرن التاسع عشر)

# IV. تأثيرات "فينوس" في الفنون الأخرى

**أ) الفنّ التشكيلي:**

للرسّام السوريالي سلفادور دالي (١٩٠٤-١٩٨٩) ستَّ عشرة لوحةً مستوحاةً من رواية "فينوس ذات الفراء"، تصفُ كلُّ واحدةٍ منها مشهدًا من مشاهد الرواية معزّزًا بالخيال الإبداعي السُوريالي. في جميع اللوحات تظهر المرأة المعشوقة لدى البطل المازوخي مع لمساتٍ إبداعية لدالي. أما البطل المازوخي فيظهر بوجهِ سلفادور دالي نفسه، وهذه ثيمة متكرّرة في لوحات دالي. لمجموعة اللوحات هذه المسماة "فينوس ذات الفراء" أسماء فرعية: "المرأة ذات السُوط، امرأة تمسك وشاحًا، رأس، امرأة ومسنَد القدمين، الشيطانة المجنّحة، رجل يقبّل حذاءً، المرأة الورقة، طائر البلشون، زقاقُ الجَلْد، الأرداف الشائكة، الجزمة البنفسجية، امرأة بالحذاء، المرأة الجاثية، الجذع، الزنجيّات، امرأة على ظهر حصان"[٩٤].

سأتوقّف عند بعضٍ من تلك اللوحات:

- لوحة "المرأة ذات السوط" (Woman with Whip): تظهر فيها امرأةٌ ذات شعر طويل وغزير جدًّا، بحيث أنه يغطي وجهها وكتفيها وظهرها. يدُها اليمنى المرفوعة إلى الأعلى تحملُ سوطًا ملطّخًا بالدماء، بينما تدوس بقدمها اليُسرى على وجه رجل مستلقٍ على الأرض، وجهُه وجُه دالي نفسه. النقطة التي أودّ الإشارة إليها، هو أنّ دالي لم يرسم هذه المرأة متّشحةً بالفراء، لكنه رسمَ لها

[٩٤] - Argillet, Pierre: "Salvador Dali: The Argillet Era and Surrealists". P. 35-38.
http://www.visionsfineart.com/surrealistCatalog.pdf

شَعر عانة كثيفاً، وهنا أراه يأخذ بالتفسير القائل إن للفراء دلالة شَعر العانة. فقد تمّ تعويض غياب الفراء عن اللوحة عن طريق تكثيف شعر الرأس وشعر العانة.

- في لوحة "الشيطانة المجنّحة" (Winged Demon): تظهر المرأة ذاتُها بجناحين أسودين مثبّتين على كتفيها، وذيل أسود يمتدّ من مؤخّرتها، ويكون جسدها كثيفَ الوبر ومنتصبَ الشُعيرات كأنه مقشَعرّ أو مُكهرَب.

- وفي لوحة "امرأة على ظهر حصان" (Woman on Horseback) نجد المرأة ذاتها عاريةً بشعرها الطويل المبعثر، تمتطي ظهر حصانٍ لهُ وجهُ سيلفادور دالي. أما لوحة الزنجيّات (Negresses) فهي تصوير دقيق لمشهد من مشاهد الرواية.

**(لوحة دالي: المرأة ذات السوط)**

وبالإضافة إلى سلفادور دالي، هنالك فنانة سوريالّية أُخرى اهتمتْ بالفراء بصورة لافتة، وهي ميريت أوبنهايم (١٩١٣-١٩٨٥)، إذ قدّمتْ ثلاثة أعمال معتمدة على الفراء ودلالاته: فطور بالفراء (Breakfast in Furs)، القفاز الفرائي والأصابع الخشبية (Fur Gloves with Wooden Fingers)، تصُوُّر للصندل (Project for Sandals).

كان لدى أوبنهايم ولَع بتغطية المواد الفنية بالفراء، فحتى الأساور التي ترتديها كانت تزيّنها بطبقة من الفراء. يتكوّن عملها الفنيّ "فطور بالفراء" من فنجانٍ وصحنِ فنجان مصنوعين من الخزف، وعلى صحن الفنجان ملعقة شاي صغيرة. لكنها غطّتْ الفنجان وصحنه والملعقة بطبقةٍ من فرو الغزال. وقد أثار هذا العمل الفني تحليلات متعددة، فقد يبدو الفنجان وصحنه والملعقة المغطّاة جميعًا بالفراء... تصويرًا إيروتيكيًّا للجنسيّة الغَيريّة، فالملعقة

الموضوعة على صحن الفنجان، ليستْ سوى رمز قضيبي، وهي تتهيّأ للدخول في حوض الفنجان الفرائي. وقد يكون الفراء تمثيلًا للجنسانيّة الأنثويّة، وبالتالي المثلية بين النساء[٩٥].

(عمل أوبنهايم: فطور بالفراء)

**ب) الدراما:**

في عام ١٩٦٩ صدر الفيلم الإيروتيكي الإيطالي "فينوس ذات الفراء"، من بطولة: جيمس دارين وماريا روم، وإخراج الإسباني خيسوس فرانكو. الفيلم لا يعرض أحداث رواية "فينوس ذات الفراء"، لكنه مستوحىً منها، فهو يعرض قصة حبّ مستحيلة بين شابّ (جيمي) وفتاة (فاندا)، ويصوّر بشكل خارق وسوريالي كيف يمكن للعاشق أن يفعل الكثير من الأشياء المستحيلة في سبيل الوصول إلى الشخص الذي يحبّه[٩٦].

في العام نفسه ١٩٦٩، صدر فيلم إيروتيكي إيطالي آخر بعنوان "فينوس ذات الفراء"، من بطولة: ريغيس فالي ولورا أنتونيللي، وإخراج الإيطالي: ماسيمو دالامانو. وهذا الفيلم يعرض أحداث رواية "فينوس ذات الفراء" مثلما كتبها مازوخ تقريبًا[٩٧].

في عام ٢٠١٠ عُرضتْ مسرحية "فينوس ذات الفراء" لأول مرة على مسرح "كلاسيك ستيج كَمْباني" في نيويورك، وهي من تأليف الكاتب الأمريكي ديفيد

---

[٩٥] - Singh, Victoria: "Cinderella's Slippers: The Dichotomy of Fur and Glass". Victoria University of Wellington. New Zealand, 1992. P. 17-18.

[٩٦] - http://www.nytimes.com/movie/review?_r=1&res=9402E7D91731EE34BC4852DFBF66838B669EDE&scp=3&sq=Venus%2520in%2520Furs&st=cse

[٩٧] - Stefano Piselli, Riccardo Morocchi: "Sexy Heroine: Erotic Heroines in Movies". Glittering images, 2003.

إيفيس (١٩٥٠-....)، ومن بطولة: فاندا جوردان وتوماس نوفوشيك، وفيها اقتبسَ الكاتبُ شخصيتيّ مازوخ الرئيسيتين، وعدّة مشاهد وحوارات من الرواية. وقد توالى عرض المسرحية في عدة مسارح أمريكية وكندية، وفازت بعدة جوائز محلية وعالمية[٩٨].

في عام ٢٠١٣ صدر فيلم فرنسي بعنوان "فينوس ذات الفراء"، من بطولة: ماتيو أمارليك وإيمانويل سينييه، ومن سيناريو وإخراج رومان بولانسكي (١٩٣٣-....). اقتبس بولانسكي السيناريو من مسرحية ديفيد إيفيس المقتبسَة بدورها من رواية مازوخ. وقد أُطلِق الفيلم في مهرجان "كان" السينمائي عام ٢٠١٣، وترشّح لنيل السُعفة الذهبية. ثم ترشّح إلى جوائز سيزر ونال جائزة أفضل إخراج[٩٩].

أما الأفلام الأخرى المتأثرة بـ "فينوس ذات الفراء" وأدب مازوخ فلا يمكن حصرُها، أختار منها على سبيل المثال، "خمسون درجةً من الرمادي" عام ٢٠١٥، من بطولة: جيمي دورنان وداكوتا جوهانسون، وإخراج: سام تايلور جونسون. الفيلم مأخوذ من رواية "خمسون درجة من الرمادي" للروائية البريطانية إ.ل جيمس[١٠٠]. في هذا الفيلم، كما في الرواية، العديدُ من المشاهد المقتبسة من رواية "فينوس ذات الفراء" لمازوخ، الفرق أن جيمس أعطتْ الشخصية المازوخية للمرأة، وشخصيّة السادي للرجل. وأنّ جيمس أخذتْ من المازوخية والسادية الظواهر الشكليّة والسطحيّة من دون الغوص إلى

[٩٨] - https://en.wikipedia.org/wiki/Venus_in_Fur
[٩٩] - https://en.wikipedia.org/wiki/Venus_in_Fur_(film)
[١٠٠] - http://www.imdb.com/title/tt2322441/?ref_=nv_sr_2

الأعماق، ولهذا كان بناءُ الشخصيّات وسيرورة الأحداث غير مُقنِعَين، وربما غير مفهومَين.

**ج) الغناء:**

في الفنون السمعية أيضاً، نجد فرقة الروك الأمريكية "فيلفيت أندرغراوند" (Velvet Underground)، والتي استمرّتْ سنواتُ نشاطها من ١٩٦٤ إلى ١٩٩٦، أصدرت عام ١٩٦٧ أغنيةً بعنوان "فينوس ذات الفراء"، كتبها المغني الرئيسي للفرقة: لو ريد (Lou Reed). كلمات الأغنية مستوحاة من أجواء رواية مازوخ، وهي تتبنّى الموقف المازوخي في الحب، أذكرُ مقطعًا منها:

"الجزمةُ الجلديةُ تبرقُ في الظلام / وهناكَ الفتاةُ التي تضربُ بالسُوط.

خادمُكِ يأتي برنّةِ جَرَسٍ، فلا تتركيه. / اضربي يا سيدتي العزيزة، لكي يشفى القلب"[١٠١].

[١٠١] - https://www.youtube.com/watch?v=PK8ijrapwA8

# ٧. كلمة أخيرة

غايتي من هذه الدراسة هي القول: ليست المازوخية نقيضَ السادية، وليست المازوخية تلذُّذًا في تعذيب الذات، وليس المازوخيُّ ساديًّا في الأصل أو الساديُّ مازوخيًّا في الأصل. وما ذاك الربطُ بين السادية والمازوخية إلا "غلطة الشاطر"، غلطة فرويد في "ثلاث مقالات في نظرية الجنس" والتي عاد عنها وحاول إصلاحها في "ما فوق مبدأ اللذة". لكن الانتشارُ الواسع لهذا الفهم المغلوط؛ صار أصعب من أن يُصَحَّح.

تنتمي المازوخية إلى الفلسفة الرومانسية التي ازدهرت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر. الرومانسية بما فيها من تمجيد للطبيعة باعتبارها الحالة المثالية التي انحرف الإنسانُ المتمدّن عنها، والرغبة في العودة إلى نقاء الطبيعة على الرغم من قسوتها. وكذلك الرومانسية بوصفها حنينًا نوستالجيًّا إلى الطفولة، سواءً طفولة الفرد أو طفولة الأمة، فهي في الحالتين طفولة مُؤَسْطرة. وأيضاً الرومانسية بما فيها من إعطاء أهمية كُبرى للمشاعر والعواطف، إذ تتفوق العاطفة على العقل من حيث قيمتها وقوّتها ومدى تأثيرها.

وإذا كان غوته قد رسمَ الصورة النمطية للبطل الرومانسي في رواية "آلام فرتر"، فإنّ بطل مازوخ (سيفرين) هو نسخة مُطوَّرة ومُنقَّحة من البطل الرومانسي. لقد رضيَ فرتر بعذابه العاطفي رضَاهُ عن قدره ومصيره، إذ لا يدَ لهُ في الأمرين. أما سيفرين فقد رضيَ بالعذاب لا لِذاته، بل من أجل تحقيق غاية أسمى، وهي الوصول إلى معشوقته والبقاء معها.

ولتعزيز الموقف الرومانسي المازوخي، البعيد كلَّ البُعد عمّا أُلصقَ به من تشوُّهات، يحضُرُني المونولوج الأخير من فيلم "سُبات شتويّ" (٢٠١٤) للمخرج التركي نوري بيلغي جيلان، وأرى فيه خاتمة مناسبة لهذي الدراسة:

" اِعلَمي أنه ليس لي أحدٌ سواكِ
أفتقدُ كلَّ دقيقة وكلَّ ثانية معك،
لم أعترفْ لكِ قطّ
لأن كبريائي منعني
أعرف أن هذا يبدو فظيعًا
ولكن، كان من المستحيل أن أفترق عنكِ
لأنني أعرف تمامًا أنكِ تحبّينني،
أعرف أنّ ماضينا لن يعود
ولستُ نادمًا عليه،
اتخذيني خادمًا
أو عبدًا لكِ،
فلْنواصِلْ حياتنا معًا
حتى ولو كانت على طريقتك،
سامحيني".

***

**"عبد الكريم بدرخان" هالسا – النرويج ١٦-١٢-٢٠١٦**

(جميع الهوامش من وَضْع المترجم، وليستْ من أصل الرواية)

# فينوس ذات الفراء

"حذار أن تشعر بالأمان مع امرأة تحبُّها. فالخطـرُ الكامن في شخص المرأة أكثر مما تتصوّر. النساءُ لسن طيبات إلى الدرجة التي يُصوّرهنّ بها عشـاقهنّ. ولسن شريرات إلى الدرجة التي يُصوّرهنّ بها أعداؤهنّ.

شخصيّة المرأة . . هي العدام الشخصية. يمكن لأفضل واحدة من النساء أن تتحدر في لحظة إلى المستنقع. ويمكن لأسوأ واحدة أن ترتقي إلى مصاف المآثر العظـيمة. على الرغم من التقدم الحضاري كله. فقد بقيت المرأة كما هي. وكأنها خرجتْ للتوّ من رحم الطبيعة."

---

من الكتاب

ليوبولد فون زاخر مازوخ

رواية

9 786257 240604

موزاييك للدراسات والنشر
MOSAIC FOR STUDIES AND PUBLICATION